أخطر ١٠ قادة
فى العالم

بكر محمد إبراهيم

الناشر

مركز الراية للنشر والاعلام

اسم الكتاب : أخطر ١٠ قادة فى العالم

بقلـــم : بكر محمد إبراهيم

الطبعة : الأولى ٢٠٠٤

الناشر : مركز الراية للنشر والأعلام

فكرة الكتاب : للناشر أحمد فكرى .

رقم الإيداع : ٢٠٠٤/٩٧٤٣

الترقيم الدولى
I.S.B.N. : 977 - 354 - 046 - 4

المقدمة

الحمد لله وحده والصلاة والسلام على من لا نبى بعده سيدنا محمد وعلى آله وصحبه .

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله وخيرته من خلقه وحبيبه .

وبعـــد ،،،

هذا كتاب أخطر ١٠ قادة وهو يتضمن سير حياة مجموعة من القادة الذين شكلوا أهمية قصوى فى التاريخ سواء أكانوا صالحين أم طالحين فإن هدف الكتاب هو تسليط الأضواء وتجديد الذاكرة فى استعراض مواقف هامة وسير هؤلاء القادة المهمين لأن الخطورة هنا بمعنى الأهمية .

وهؤلاء القادة الذين ذكرناهم ومنهم جمال عبد الناصر وصلاح الدين الأيوبى وسعد زغلول والنحاس والنقراشى وأحمد ماهر وغيرهم شكلوا من أهمية عظمى فى تاريخ مصر.

كذلك استعرضنا سير ومواقف للقادة فى كل أنحاء العالم على سبيل المثال فى مختلف البلاد العربية وأوربا وآسيا وإفريقيا وقارة أمريكا .

ومن هؤلاء القادة كوامى نكروما ونلسون مانديلا وفارح عيديد فى الصومال، وكذلك الرئيس الأمريكى هارى ترومان والرئيس التركى مصطفى كمال أتاتورك - وكذلك الزعيمات من النساء مثل تاتشر فى انجلترا وأنديرا غاندى فى الهند.

استعرض الكتاب كيف أبغض عبد الناصر الاستعمار الانجليزى وهو طفل صغير لما شاهد منهم قتل الأطفال ، وكيف كانت سيرة حياة زعماء مصر

الكبار سعد زغلول قائد ثورة ١٩ وخليفته النزيه الشجاع الجسور مصطفى النحاس ودهاء أحمد ماهر والنقراشي والدور الذى قام به على ماهر قبل الثورة وبعدها واغتيال ماهر والنقراشى والصراع بين القصر وحزب الوفد .

كما يستعرض الكتاب سيرة القادة الكبار وكيف كان منهم سيدات فى منتهى القوة والعزم والحزم أمسكن السلطة فى أيديهن بقوة ويد من حديد .

ويستعرض فصولا من تاريخ قارة أمريكا وأسيا وأفريقيا من خلال أخطر وأهم زعمائها وقادتها الكبار .

كما يفرد فصلا للقادة العرب أمثال عبد الكريم الخطابى وعبد العزيز آل سعود وغيرهم .

فالكتاب يتناول فصولا من التاريخ العالمى والإنسانى فى غاية الأهمية والخطورة ويتعرض بالنقد والتحليل لسير هؤلاء القادة الكبار .

ولنترك القارئ يستمتع بسير هؤلاء القادة ويطلع على أسرار هامة ووقائع خطيرة فى سيرة حياتهم .

نفع الله به من أخرجه ومن قرأه واستفاد من عبر التاريخ وعطائه .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

المؤلف

بكر محمد إبراهيم

عضو اتحاد الكتاب



الفصل الأول

القـادة المصريـون

سعد زغلـول(١)

لم يكن سعد رسولا أو نبيا بل كان ينطق عن الهوى كما ينطق البشر.. ولم يكن يتلقى وحى السماء.. حتى يتقيه النقاد.

كان سعد زعيما وطنيا.. وأصبح بحكم التدانى والتداعى زعيما عربيا وأممى من غير قصد وبحكم القدرة زعيما عالميا..

لقد تزعم سعد شعبنا المصرى فى عصر من أسوأ عصور التخلف الإسلامى والعربى والمصرى.. وفى فترة بلغت شراسة الاستعمار فيها حدا أجاز لانجلترا أن تسمى الامبراطورية التى «لا تغيب الشمس عن أملاكها».. وكانت معظم الدول يومها أملاكا للمستعمرين أو كالأملاك.. وكانت معظم الدول يومها أملاكا عبيدا لهم أو كالعبيد وبكل ما تحمله كلمة العبودية والتبعية من اذلال وضياع وانحلال وعار.

ولم يكن سعد صانعا للعظماء أو للكبار .. وإنما كان شيخا ثائرا على الأوضاع.. والثورة ظاهرة تلازم الشباب.. ولكنه علا على الظاهرة وقاد.. وفتح أمام المواهب والقدرات كل النوافذ والأبواب.. ورصاص العدو يسدد إليها وينفذ منها إلى قلب الدار.. فمن شاء تقدم وبرز.. ومن شاء توارى وتخلف.. وأقدم على مواجهة الارهاب من أقدم.. فخاضوا تحت رايته غمار الموت فى غير تردد فكان الجيل الجديد التى انتمى إليه.. وكان الشعب الوليد الذى تمخضت عنه ثورته وهو الذى أسلمنا إلى الوضع الجديد الذى نعيشه اليوم.. وكلنا أمل فى غد أفضل.

ولقد كتب عنه العقاد كتابا يعرفه كل من يحمل بحق لقب «قارئ» كتابا اعترف (ومعذرة للكتاب) أن كاتبا غير العقاد لا يقوى عليه لأن العقادكان من

(١) أقطاب مصر بين ثورتين – محمد السوادى – مؤسسة أخبار اليوم – كتاب اليوم – بتصرف.

المريدين وكان من الحواريين وكان من المقربين.. وكان سعد يعلو به ويعتز.. وكان يسميه الكاتب الجبار..

مات سعد.. وكان طبيعيا أن يتبارى الشعراء فى الرثاء، وكان فى الساحة فرسان.. يكفى أن يكون منهم شوقى وحافظ ومطران.

ولكن صوتا شاعريا من لبنان لا من مصر ترامى إلينا على صفحات «الأهرام» يقول لنا كلاما عجيبا

قالوا : دهت مصر دهياء فقلت لهم

هل غيض النيل أم هل زلزل الهرم؟

قالوا : «أشد وأدهى» قلت ويحكم

إذن لقد مات سعد وانطوى العلم

قيل للشاعر أن «دهياء» قد دهت «مصر».. وتخرب فيها كل شىء.. وتخلى عنها كل خير.. ونزلت بها النازلة إلى مستوى الضياع فاستنتج -محقا- أن داهية من اثنتين لابد أن تكون قد وقعت .. كبراهما أن يكون النيل قد غاض فلا ينبت بعده على أرضها نبات، والصغرى أو الأخرى أن تكون «الأهرام» قد أصابها الزلزال فسقط عن رأس مصر تاج أمجادها واختفى عنوان عراقتها ونكس تاريخ الحضارة رأسه.

ولكنهم قالوا للشاعر – أبدا لا النيل ولا الهرم .. إن الدهياء أشد وأدهى من النيل إذا غاض ومن الهرم إذا تهدم.

وصرخ الشاعر من غير حاجة إلى أعمال الفكر :«إذن لقد مات سعد وانطوى العلم» فليس أشد وأدهى من المصابين إلا هذا المصاب.

عرف المصاب من فوره : إذن لقد مات سعد.. وخيل إليه فى غمرة الفجأة

أن مصر قد ضاعت وأن العلم قد انطوى.. وهى حساسية تغتفر للشاعر وتلازم الشاعرية دائما وإن كان قد وضح - فيمابعد- أن علم سعد لا يمكن أن يطوى كما تطوى الأجسام والأيام .. لأن سعدا لم يكن زعيما ثار.. وانتهت ثورته بانتهاءحياته..

سعد كان ضمير الجماهير تحرك.. وكان أمجاد القرون صحت.. وكان طاقة العراقة تفجرت.. وكان الفلاح فى القرية يهتف من الأعماق «يحيا سعد».. وكان العامل فى المدينة يهتف من الأعماق «يحيا سعد».. وكان الاثنان يقولانها بالروح والدم ويتحديان فى جنون دبابات العدو ويتلقيان فى تهليل رصاص العدو.. وخرجت المرأة المحجبة إلى الشارع تهتف بحياة سعد .

كان سعد هذا كله.. وفى مواجهة من؟

فى مواجهة اعتى قوى الوحشية والشر خرجت من الحرب العالمية الأولى نشوى بخمر النصر.. تطلب إلى الدنيا أن تدين إليها والا يرتفع لها صوت.. فإذا الصوت الذى يرتفع يجيء من الشرق المظلم .. وإذا هو صوت فلاح مصرى.. أصيل لا لكنة فيه ولا عجمة.. وإذا هو صوت شيخ جاوز الستين لا صوت فتى غض الأهاب مشبوب الشباب ولا صوت فارس يقتحم الصعاب ليتفوق على الأتراب.

ولم يكن سعد فى ذلك الزمن ضمير الشعب فى مصر وحدها .. وإنما كان ضمير الشعوب المقهورة والمستذلة والمحتلة فى كل مكان على سطح الأرض.. تراءت إليه أنباء الثورة على يد سعد.. فكان الشعلة المقدسة التى أنارت الطريق أمام غاندى.

ولقد قالها نبى الهند الجديد -كما أسموه -قال ما معناه- أن سعد أستاذه فى الجهاد وعنه تلقى أول درس فى مواجهة الأعداء عندما وحد بين المسلمين والأقباط وعانق الصليب الهلال.. فانطلق غاندى يوحد بين الهندوس

وبقية الطوائف ويحرر «السيخ» و«الانجاس» من لعنة هبطت عليهم من غير أى ذنب لهم.

دراسة سعد :

وقد يسأل أبناء هذا الجيل -جيل التخطيط العلمى وهواة الدولة العصرية- عن المادة التى يستقون منها حقائق تلك الثورة أو حقائق ذلك الزعيم.

والمصادر كثيرة .. ودار الوثائق حافلة بالكثير منها.. وبعض الصحف نشرت فصولا اضافية عنها وعنه.. ومحمد كامل سليم سكرتيره الخاص فى صدر شبابه، نشر فى إحدى الصحف، وفى «كتاب اليوم» أخيرا، مذكراته عن إقامة سعد فى باريس ومفاوضاته فى لندن وخلافاته مع زملائه فى الوفد وكفاحه المرير للأدوار الرخيصة التى لعبها فريق منهم .. وكما نشر الشىء الكثير عن الجهاز السرى الذى أنشأه سعد (برياسة عبد الرحمن فهمى) وأقض به مضاجع المحتل ونشر به الرعب فى جميع أرجاء أوربا وفى قلب لندن نفسها.. وظهور شباب فدائى من مريديه يدبرون أحداث الاغتيالات للانجليز الحاكمين فى مصر.. مما أدى إلى محاكمة أحمد ماهر والنقراشى.. فضلا عن مذكرات عند الأقربين فضلا عن كتاب العقاد وهو وحده يغنى عن الكثير.

نعم نحن فى عصر التخطيط العلمى والدراسات الواعية والتخصص فى كل جزئية من كل كلمة من كل مادة.. وكل هذه الميزات لهذا العصر مدد كبير للدارسين ولكن شيئا غامضا غير مرئى سيظل يحلق فوق رؤوس الدارسين حتى تطوى الأرض ومن عليها ولا سبيل للعلم إلى حُل هذا الغموض إلا إذا حل لغز الحياة والموت .. وخلق لنا إنسانا لا يموت.

والشىء الغامض الذى أعنيه هو سر العبقرية عند العباقرة أو سر الزعامة عند الزعماء.. وهو سر سعد أحسه معاصروه بكل جلال وعزوا أن ينقلوه

للأجيال.. والدراسات العلمية - أشد عجزا فى هذا المجال.. فالمتخصص فى أى فرع من فروع الرياضيات العليا قد «ينبغ» فى تخصصه .. وقد يصبح عالما فى تخصصه. وكذلك الأمر فيمن تخصص فى فرع من فروع علم النفس الحديث.. ولكن أى النابغين.. لن يكون يوما ولن يكون أبدا .. «اينشتاين» أو «فرويد» وأى نابغة فى الموسيقى لن يكون يوما ولن يكون أبدا بيتهوفن وقد تشهد البشرية من هو فى مستوى أى من هؤلاء العباقرة أو من هو أعلى مستوى منهم ويومها أن جاء سنعرف أنه عبقرى مثلهم وسنظل نجهل سر العبقرية فيه.

وما ينبغى لنا أن نقول «لماذا» ؟ وكل ما نملك أن نقوله - وهو كل ما يلوح لنا من آفاق العباقرة أن للعبقرى نظرة شمول تتخطى الجزئيات وسرا سلحته به العناية لأمر تعنيه من حيث يدريه أو لا يدريه- نظرة شمول يخترق بها الحجب.. وسرا يرى على أضوائه الكاشفة ما لا يراه المتخصص بأجهزته الدقيقة أو ببحوثه العميقة .. سرا يخرج بالعبقرى عن كل قاعدة علمية أرسلتها الملاحظة وأيدتهاالتجربة.

والزعامة فى الشعوب وجه من وجوه العبقرية فيه سحرها من غير تعليل وفيه سرها الموهوب للزعيم.

وقد لاحظ الكثيرون من الدارسين أن سعدا خرج بثورته على المتعارف عليه بين الناس والثوار.. فسعد ثار وثار معه الشعب .. فقاد الثورة وتزعم الشعب والأصل فى الثائر أن يكون شابا وكان سعد شيخا.. والأصل فى الثائر أن يكون قوى البنية موفور العافية وكان سعد مهدما ومريضا دائم التداوى.. وشاءت العناية أن تصل بينه وبين الشعب على النحو الذى تصل به بين الوالد والولد.. فحرمته من الإنجاب فلم يكن له بنت ولا ولد.. وكان شيخا يصلح أبا ويصلح جدا فغدا كل فرد فى الشعب ابنا له وحفيدا.. وشاءت له العناية ألا يكون غنيا يتهم أو يلوث.. وألا يكون فقيرا يذله الجوع وتحكمه الحاجة.

وهكذا هيىء للزعامة من هذه المداخل المعروفة للناس .. ولا يعنى هذا المساس بذلك الأساس اننا أمطنا اللثام عن سر الزعامة فيه..

وكان سعد قد أفرج عنه بعد اعتقاله الثانى واستعدت القاهرة لاستقباله وصل القطار.. والمحطة يكاد يدكها المستقبلون دكا .. ثم بدأ الميدان يموج بالخلق ويضيق .. فاشتعل أوار الاستقبال اشتعالا غير عادى.. وتاه الحكمدار الانجليزى ومئات الجنود والفرسان فيما يشبه الطوفان.. وسقط منهم من سقط.. وفر من فر.. وكان شيوخ وكهول.. قد دب الشباب فى أوصالهم وجرى الدم فى وجوههم.. ولم يعد أحد منهم يطمئن فى كرسيه أو يستقر.. أما الشعب فى الميدان فكان خليطا من الشباب والشيوخ والرجال والنساء.. وكان شعلة من الجنون اندفعوا إلى الركب قبل أن يبلغهم...

وفى مرة ثانية ولقاء آخر جاء نبأ يقول أن الزعيم مريض.. وأن عضوا من أعضاء الوفد سينوب عنه.. وحلت الضجة محل الوجوم.. ضج الشعب لأن الشعب لا يعرف نائبا لسعد.. سعد أو لا سعد.

ثم عاد الهدوء وتهللت الوجوه.. عندما أعلن أن اتصالا جرى بين لجنة الوفد فى شبرا وبيت الأمة.. وأن الزعيم قبل أن يجىء على الرغم من المرض.. على أن يعهد إلى عضو من أعضاء الوفد بالقاء كلمة الزعيم.. وكان المهم أن تراه الجماهير مريضا أو غير مريض.

وأخلت لجنة الاستقبال لعربة الزعيم أو (الحنطور) الذي يقله .. طريقا عريضا بين الصفوف حتى يبلغ المنصة وعندها يترجل فى طريقه إليها.

وجاءت العربة فعلا واخترقت الصفوف بين هدير الشعب الثائر«المجنون» ولا مهرب للواصف من الوصف المستحيل غير كلمة (الجنون).

ارتقى سعد المنصة وهو يتوكأ على عصاه فى اعياء، ومندوب اللجنة يعلن أن الزعيم سيلقى كلمة شكر يعلن فيها اسم الذى أنابه عنه ليلقى كلمته

وقف سعد وثار الشعب .. ثار على سعد فى هذه المرة.. وهو يصرخ «نريدك أنت.. وامتلأت عيناه بالدموع.. واهتز شاربه الأبيض وبدأ يشد قامته شيئا فشيئا كأنما يقوم بتمرين رياضى مرسوم.. حتى إذا بلغت ثورة الشعب ذراها .. واهتزت أسلاك الحب بينه وبين الزعيم.. بدأت شفتاه تتحركان فخفت فى السرادق كل صوت.. وبدأ سعد خافت الصوت .. ثم بدأ يبين.. ثم بدأ يعلو وفى سلم موسيقى ساحر بدأ الصوت يتصاعد فوق الدرج.. وبدأ يسرد قصة منفاه.. وما صنع به الأعداء.. وكيف جيء به بليل يوم ساءت صحته وأرادوا أن ينقلوه من منفى إلى منفى.. وفى سفينة حربية مغلقة النوافذ مطفأة الأنوار تسبح فوق الماء وتحت السماء.. وفى بحر لجى من الظلمات لتعبر به قناة السويس قناة مصر المغتصبة.

وانطلق الزعيم يصور مشاعره وكل مستمع واجف القلب كأن الأحداث جرت عليه هو .. والشهيق والزفير يسمعان.. والدموع فوق وجوه الرجال .. والتأهب للثورة مرسوم على تلك الوجوه في احتقان.. وارتفع صوت الزعيم وزمجر.. فتى فى العشرين أو فى الثلاثين.. فارع العود عملاق الجسم قوى البنية.. أربع ساعات متوالية.. وذراعه تمتد فى الفضاء (كما رآه مختار المثال وهو يصنع التمثال) وكل إشارة منه كأنها عصا المايسترو يوجه بها الفرقة إلى النغم.. وكأن الشعب أمسى رهين الإشارة تقيمه وتقعده.

أربع ساعات .. تدفق خلالها الخطيب «الشاب» واختفى المريض الشيخ .. وعاد يعطى ويزيد وهو سعيد.

هل كان سعد خطيبا ؟

نعم .. وأخطب الخطباء العرب فى القرن العشرين.

هل كان بليغا ؟

نعم .. ولكن فى مصر بلغاء كثيرين.

هل كان شجاعا ؟

نعم .. ولكن فى الدنيا كثيرا من الزعماء الشجعان.

هل كان مؤمنا بالله ؟

نعم .. ولكن فى الدنيا من هم أشد ايمانا بالله.. فى الدنيا عارفون بالله.

هل كان عالما ؟

نعم .. ولكن فى البلد من كان أعلم منه.

هل كان ساحرا للحسان اللواتى كن يبكين بالدموع وهن يهتفن من الأعماق ؟

لم يقل أحد أن الحسان الشابات يسحرن بمشيب الشيوخ..

ماذا كان الرجل اذن ؟

كان زعيما ..

وهكذا نفسر الماء بعد كل هذا الكر والفر فى ساحة السين والجيم بالماء .
كان زعيما سواه الله زعيما.. وهو سر كالكهرباء نستضىء بها ولا نعرف كنهها.. لم يكن له هدف غير أن يحرر شعبه..

لم يكن يخشى الموت وهو فى سن ترتقب مقدم الموت فى أية لحظة.. لم يكن يخشى التآمر على شخصه وإنما كان يخشى التآمر على الشعب وقضية الشعب .. لم يكن له ولد يريد أن يثريه أو أن يرقيه.

لم يكن يتطلع إلى الملك أو رياسة الدولة .. فقد عرضوا عليه الرياسة ملكية وجمهورية ليحولوه عن طريقه فأبى أن يتحول .

لم يكن مريضا بالأمجاد يتلمسها عند الخصوم أو عند الأعداء .. وقد ذاب مجده فى مجد شعبه ورق الخيط بين المجدين حتى تلاشى وتم الاندماج بين الاثنين.

هل كان الشعب مجمعا على زعامته فانعدم فيه الخوارج؟؟

ان شئت الشعب فى حقيقته فقد أجمع على هذه الزعامة.. وان شئت الشعب بكل اسم فى دفاتر المواليد فقد خرج عليه بعض الناس خرج عليه المرضى بالتمييز الطبقى كالأمراء والنبلاء ومن فى مستوى أمراضهم .. وخرج عليه طلاب المناصب العليا كالمستوزرين والطامحين فى رياسة الوزارة.. وخرج عليه المرضى بنفوذ العائلات العريقة بعد أن توارى هذا النفوذ أمام المد الثورى .. وخرج عليه المرضى بالارستقراطية الفكرية من المتعالين على جهالة الجماهير- المرضى بالزعامة ولم يبلغوها - وخرج عليه المرضى بالولاء للقصر أو للمحتل ليجنوا ما يهفون إليه من الثمر.. وخرج عليه الجبناء الذين رأوا أن من الجنون تعرض الشعب الأعزل لرصاص الامبراطورية السكرى .. وخرج عليه المرضى بالحزبية الكلامية التى عاشت تقول وهى تحلم «لا مفاوضة إلا بعد الجلاء» .. والتى كانت تطالب بزيلع وهرر ومصوع.

كل هذه الفرق خاصمت سعدا وخرجت على زعامته.

ومنهم من التزم حدود المعارضة النظيفة .. ومنهم من استعدى الأعداء على سعد.. ومنهم من استعان بالقصر أو بصاحبه.. وكان صاحبه يخشى على عرشه من سعد.. بعد أن سمع الشعب بأذنيه يهتف فى ساحة عابدين «سعد أو الثورة» وانتصر سعد على كل هذه الفرق.

وأخيرا ..

هل كان سعد سياسيا بالمعنى الذى ورثناه من القرن التاسع عشر ومشى بالركب طويلا على امتداد القرن العشرين ؟

أبدا .. كان سعد زعيما..

نعم كان حكيما .. وكان بعيدالنظر.. وكان يعرف طريقه .. وكان يستشير الآخرين.. ولكنه أيضا كان عنيدا.. إذا اقتنع بشىء وأصر عليه.. وكان عنيفا إذا

تشكك فى أى «عظيم» كاشفه بالشك.. وإذا التوى هاجمه فى الوكر.. وكما فعل مع عبد الخالق ثروت وهو رئيس الوزراء وألقى سعد خطابه التاريخى يقول لثروت فيه «أمامك المنابر فاعلها ان كنت خطيبا .. وأمامك .. الخ» إلى آخر تلك الخطبة النارية التى رددها الشعب ترديدا ورتل عباراتها ترتيلا.

لم يكن سعد سياسيا بالمعنى الذى كان ذلك العصر يفهمه من كلمة السياسة.. كان مصريا وكان فلاحا.. وكان قاضيا.. وكان شجاعا.

إن سعد جمع بين الأنواع الثلاثة التى قسم عليها شكسبير عظماء البشرية (ولد عظيما وصنع من نفسه عظيما وصنعت منه الظروف عظيما).

ولد عظيما بما أوتيه من مواهب.

وصنع من نفسه عظيما بعد أن كان أزهريا فكافح فى تثقيف نفسه حتى عين مستشارا ووزيرا وقاوم جهارا رجلا لا يقاوم.. قاوم (دنلوب فى وزارة المعارف.. وله معه نوادر تمشى القصة بها على وجه الزمن وضاءة مذهلة.

وصنعت منه الظروف عظيما عندما وضعت الحرب أوزارها ودعا زعماء مصر إلى داره .. واتجه مع عبد العزيز فهمى وعلى شعراوى إلى دار الحماية ليقابل سير ونجت ويطلب السماح للوفد بالسفر إلى مؤتمر الصلح فى فرساى ليطالب باستقلال مصر.

لم تكن زعامة سعد خافية على عارفيه بل كانت محجوبة عن الشعب وبنيه، فقد عرفه نواب الأمة قبل أن تعرفه الأمة بموقفه من امتياز القناة وتأسيسه الجامعة القديمة ومواقفه فى الجمعية التشريعية بعد أن انتخب وكيلا لها عن الشعب فى مواجهة الوكيل المعين من قبل الحكومة ثم بمواقفه وزيرا للمعارف.

كانت زعامته معه من مطلع الشباب.. وسنحت الفرصة لها وهو شيخ لا مطمح له فكان الزعيم من غير اعداد ولا افتراض للهزيمة أو للضياع.

مصطفى النحاس

كان النحاس خليفة لسعد ولم يكن سعدا.. ولم يكن من الممكن أن يكونه
ولقد مضى النحاس إلى بارئه ودخل التاريخ .. مرضيا عنه فيما أصاب ومغفورا له فيما أخطأ وكانت له دنيا يصول فيها ويجول...

ولقد عمر النحاس .. فمات من بضع سنين وهو يطل على التسعين وتزوج فى العاشر من يونيه سنة ١٩٢٤ وكان يومها فى الخامسة والخمسين .. فظل يرسف فى هذا «القيد الذهبى» أكثر من ثلث قرن بعد أن عاش حرا من ذلك القيد كل ذلك العمر كما ظل رئيسا للوفد أكثر من ربع قرن.. بعد أن حمل الراية مع سعد منذ تأسس الوفد حتى مات سعد.

وقبل أن يقوم الوفد كان القاضى الشاب مصطفى النحاس فى طليعة العاملين مع الحزب الوطنى فى حقل الكفاح السياسى.. أو المؤيدين لمبادئه على الأقل.. بحكم حروجة الوضع أو حيدة القضاء.

تلك هى قائمة الأعوام التسعين ترسم الخط البيانى لحياة الرجل .. لتلقى على هذا الخط نظرة عجلى أو مستأنية تنبئك فى الحالتين أن تلك الحياة كانت كلها كفاحا لا هدوء فيه.. وكأن الله قد سواها ليكون صاحبها مكافحا على طول الطريق.. وليكون زعيما «متفرغا للزعامة» لا يرضى أن ينازعه عليها أحد.

زعيم متفرغ

أقول «زعيما متفرغا» وأعنى القول .. فقد تزوج وهو قوى البنية موفور الصحة وتزوج من فتاة حسناء تصغره كثيرا.. والمفروض فيها.. وفى مثل سنها أن تملأ البيت أولادا.. وأن تظل ولودا حتى ترى فى البيت أحفادا.. ولكنها لم تحمل ولم تضع وعاش النحاس محروما من الأولاد كما عاش سعد.. فلم يصرفه عن الشجاعة والاقدام خوف على بنت أو ولد.. ولم يصرفه عن العفة

طمع فى مال يتركه لهم.. ولم يصرفه عن المغامرة ذلك الضعف العافى الذى يشعر به كل والد حيال كل ولد.

ولقد أشار إلى هذه الحقيقة فى الأربعينات أحد الصحفيين الفرنسيين فى إحدى زياراته الكثيرة لمصر- حقيقة «التفرغ للزعامة» - فذكر أسماء غاندى وسعد والنحاس فقال له صحفى مصرى كبير لايزال على قيد الحياة أن مكرم عبيد لم ينجب أيضا فابتسم الصحفى الفرنسى وقال : «مبلغ علمى أن أحدا من أعضاء الوفد لم ينازع النحاس زعامته غير مكرم.. وهذا يقوى الظاهرة ولا يضعفها فيما أظن» وقال الصحفى المصرى «ولكن مكرم أسس حزبا وتزعم.. فلماذا لم يستطع أن يكون زعيما؟» وضحك الصحفى الفرنسى وقال ما معناه : «أنتم أدرى بالأسباب .. وكل الذى أعرفه أن الزعيم يكون واحدا ولا يكون اثنين».. ثم أضاف مبتسما «فى الأغلب الأعم.. أو فيما رواه لنا التاريخ على الأقل».

ويبدو أن الصحفي الفرنسى كان محقا عندما قال : «فى الأغلب الأعم» لأن بعض العباقرة من الزعماء يخرجون أحيانا على كل قاعدة ولا يبالون أية ظاهرة.

ومن هؤلاء العباقرة «جواهر لال نهرو».. فقد كان زعيما وأنجب.. بل كان زعيما وأنجب «زعيمة».. ولقد كان نهرو بالنسبة لغاندى .. كما كان النحاس بالنسبة لسعد.. مع الفوارق فى الثقافات وفى المواهب.

مفتاح شخصيته :

ومفتاح شخصية النحاس هو «الإيمان».

شب النحاس من صدر الفترة ومطالع الشباب وملء قلبه «الايمان» بالله.. وكل نجاح أحرزه الرجل على امتداد زعامته لا يفسره إلا هذا«الايمان» وكل خطأ تردى فيه كان مرده إلى «الايمان» بسلامة هذا الخطأ.

وكان هذا اللون من الايمان زعيم كل الألوان فيه.. ولقد صنع منه الايمان بالله مخلوقا عفا ونظيفا.. وشجاعا لا يتهيب محتلا ولا ملكا ولا أميرا ولا وزيرا.

«عليه توكلنا».. لا على أحد سواه.

و«به استعنا» .. لا بأحد سواه.

و«ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها».. والرحمة إذن آتية لا شك فيها. ودبابات بريطانيا ومطامع القصر ومؤامرات الأحزاب.. لا تستطيع أن تحرمه من رحمة كتبها الله له.

«وما يمسك فلا مرسل له من بعده» وليس فى وسع قوى الأرض كلها أن تعطيه رحمة أمسكها الله عنه أو ترد عنه محنة كتبها الله عليه.

هكذا كانت تمضى الحياة بالنحاس مرئية من كل الناس لاسيما فى الصدر الأول من زعامته.

ظهر هذا المفتاح واضحا على طول امتداد زعامته .. فلم يتخلف النحاس عن الصلاة يوما.. بل لم يتخلف عن صلاة الفجر مرة فى حياته إلا مكرها، وكان له «ورد» يتلوه من صغره.. وكان له مصحف يقرأ فيه بعد صلاة الفجر ما تيسر منه.. :

وعـدا العـادون وجـاروا ورجـونا اللـــه مجـيرا

وكفـــى باللـــه وليــــا وكفـــى باللـــه نصـــيرا

فإذا ضيق المتآمرون عليه الخناق صاح ويده إلى السماء..

ان أبطأت غارة الأرحام وابتعدت فأقـرب السـير منا غـارة اللـــه

يا غارة الله جدى السير مسرعة فى حـل عقدتنـا يـا غارة اللـــه

وكان فى ذلك على النقيض من سعد.

كان سعد يهاجم خصمه حتى يدك معاقله فإذا فرغ منه ردد أمام الشعب في إحدى خطبه قول الشاعر :

جزى الله الشدائد كل خير عرفت بها عدوى من صديقى

ذلك هو مفتاح شخصية النحاس.. جعله عنوانا على عدل القضاء وجرأة القضاء.. فازدان تاريخه وهو قاض جزئى صغير ومصر تحت الحماية بأحكام لم يزدن بها تاريخ الفحول من المستشارين وفي عهد الاستقلال .. استقلال مصر واستقلال القضاء.

والايمان بسعد :

وبنفس المفتاح .. انفتح أمامه باب الزعامة.

وكما آمن بالله على مستوى العقيدة.. آمن بسعد على مستوى الوطن.

نفس المفتاح هو الذى تنبه عليه سعد فضم النحاس إلى الوفد.. وأولاه الثقة كاملة غير منقوصة.. وبلا شك أو تردد اختاره سكرتيرا للوفد.. وأدى النحاس فرائض الولاء لسعد كما لم يؤدها أحد.. ولم يكن النحاس ليضن بحياته نفسها إذا ما جد الجد.. فلم يبال المعتقلات عندما سيق إليها.

ولقد حورب النحاس - بعد أن أصبح رئيسا للوفد- من كل الجبهات وحورب من داخل الوفد ومن خارج الوفد.. وحورب من الصديق ومن العدو.. وخرج عليه من أسموهم «السبعة ونص» وكان الثمانية كلهم عمالقة من حيث القدر.. وخرج عليه ماهر والنقراشى وألفا حزبا نسباه فى التسمية إلى «سعد».. وخرج عليه أخيرا سكرتير الوفد وساعده الأيمن وكاتم سره.. «مكرم» وألف هو الآخر حزب «الكتلة» وقال أنه «الوفد مطهرا».

وحورب النحاس -فوق هؤلاء- من بريطانيا بكل أنيابها الزرق .. ومن القصر وبكل سراديبه المظلمة.. ومن الأحزاب وبكل مؤامراتها الغريبة.. فما وهن

النحاس وما ضعف وما هدأ النحاس وما استكان.. فقد ظلت تتوهج فى يده الشعلة القدسية الرائعة .. شعلة الايمان.. وكبر النحاس وتقدمت به السن.. وقال بعض الخصوم أنه «انتهى وهو على قيد الحياة.. بعكس سعد الذى لم ينته إلا بالموت»..

وفرحت انجلترا بهذا الذى قيل لها.. ولكن تقديرهم ساء.. ووقف النحاس فى اكتوبر سنة ١٩٥١ شابا فى شرخ الشباب وثائرا فى عنفوان الثورة.. يعلن الدنيا فى جلسة تاريخية من جلسات البرلمان.. وفى صورة رهيبة تعيد إلى الأذهان بعض الملامح من سعد زغلول.. وقف يعلن الدنيا أن حكومته قررت الغاء معاهدة سنة ١٩٣٦.

لم يلقها بقوة جيش جرار جديد أنشأه.. وإنما ألغاها بقوة «الايمان» وحده.

لم يكن يهدأ:

كان «يؤمن» بالشىء.. فيندفع كالسيل.. فى قوة عارمة.. تجرف أمامها كل عائق.. فاذا انتصر سجل النصر لمصر والشكر لله.. وإذا طوقوه.. وأقالوه من الحكم عاد إلى الشارع يستعدى الشعب على الظالمين.. فاستجابت له الجماهير.. حتى تعيده إلى الحكم بعد حين أو بعد سنين.. أو عاد إلى مكتبه -مكتب سعد فى بيت الأمة- يستقبل الزوار ويحاضر الوافدين ويكشف لهم أفاعيل الخصوم ويمدهم من جديد بشعلة الغضب أو بشحنة الثورة ..

فإذا جاء يوم الجمعة من كل أسبوع اختار مسجدا من المساجد يؤدى فيه الفريضة.. فيهتز الكرسى من تحت وزري الداخلية.. ويهرع رجال الأمن إلى المسجد يحاصرونه بحشود من الجند يخيل إليك معها أننا فى ساحة حرب فإذا دخل النحاس المسجد هلل المصلون وكبروا ..

فإذا انتهت الصلاة وبارح ركبه المسجد.. هتف الشعب من حوله أمواجا تتلاطم.. ورددت جنبات الحى هتافاتهم وأعمل الجنود هراواتهم فى أجساد المتظاهرين.. وقد يسفر الالتحام عن دماء تجرى واصابات لا حصر لها.. ويظل الكفاح محتدما شهورا أو أعواما.. حتى إذا رأى الانجليز شبح الثورة يقترب أمروا القصر باجراء انتخاب حرة.. وكان الانتخاب يعنى عودة الوفد إلى الحكم.

وقصة الأسلوب:

كان النحاس خطيبا بالصدق والحرارة والاخلاص.. ولم يكن خطيبا بالفصاحة أو بالبلاغة كما كان الخطيب مكرم.. وكان الكثيرون يتندرون بصرخاته وهو يقطع خطابه ليأمر واقفا بالجلوس أو لاغطا بالسكون.. وكان الرجل مفتوح القلب ولم يكن يحفل بأناقة العبارة.. كان «درويشا» إن صح أن للزعامة «دروشة» ..

كان يرسل ما فى قلبه بطريقته وكانت الجماهير مريدين لشيخها مؤمنين بكل ما يقوله لها.. ولم يكن تندر الخصوم بهذه «الدروشة» فى الطريقة أو فى الأسلوب ليجد مكانه إلا فى نواديهم ومقاهيهم وكان هذا التندر كل بضاعتهم.. ولم يترك أبدا أى أثر فى زعامة الرجل.

وقبصة الساعد:

هل كان من ميزات الرجل أو من عيوبه.. حاجته دائما إلى ساعد أيمن.. إلى رجل يصطفيه ويثق فيه.. ويأتمنه على كل سر.. ويشاوره فى كل أمر.. ويلقى له الحبل على الغارب.

ولعله أحس أنه كان هو المصطفى من سعد.. فأراد أن يمشى على السنة فاصطفى بدوره مكرما.. وقال الخبيثون يومها أنه آثر مكرم بذلك التكريم لأن مكرم لا ينتمى -عقيدة- إلى أغلبية الشعب فلا مطمع له فى الزعامة.. إن هذا

التعليل ضعيف وسخيف.. فما فكر أحد يومها مثل هذا التفكير.. والدليل أن النحاس اختار بعد مكرم مسلمين لهذا المنصب.. وما طاف بذهنه مثل ذلك الهاجس.

كان النحاس بحاجة إلى رجل يصطفيه وعلى ذلك النحو الذى كان يعتبر عيبا يشوب كمال الزعامة.. ولا تعليل إلا الرجعة إلى مفتاح الشخصية إلى «الايمان» أيضا.. الايمان بأن الله دائما يرعاه.. ولا يملك الضر أحد سواه.. فما ضره أن يثق.. وما ضره أن خابت الثقة.. تعليل مقبول من هذه الشخصية وأن لم يكن مقبولا فى عالم السياسة.

وقصة الزواج :

قصة الزواج .. يقف المؤرخون حيالها حيارى من غير شك.. والخوض فيها كالخوض فى حقل ملىء بالشوك..

والنحاس لم يضعفه إلا ذلك الزواج.. لا لأن النحاس كان يعرف شيئا مما يجرى حواليه.. وما جره الزواج عليه.. ولكن لأن الخصوم الذين أعياهم أن يعثروا على عيب فيه سرهم أن يجدوا مثل هذه الثغرة لينفذوا منها إلى الانتقاص من قدر الرجل ولقد استطاعوا أن يحدثوا فى الجرة خدشا ولم يستطيعوا أن يحدثوا فيها الثقب الذى أرادوه.

ولقد قيل عن التاريخ الإنسانى أنه ما من عظيم إلا وامرأة وراءه صادقا على طول الخط.. أو بغير قيد أو شرط.. صدق مثلا فى نهرو .. كانت وراءه «كمالا» زوجته المثالية الفضلى - كان يخرج من السجن إلى صدرها الحانى وقلبها الكبير وعقلها الواعى وتشجيعها الذى لا ينضب.. وكان يعود إلى السجن وهو على ثقة أن كفاحه يزيد«كمالا» زهوا به وحياله.. وكانت تحتمل المحن فى صبر عجيب حتى ثقل عليها المرض ونقلت إلى المانيا لتعالج..

ولقد طار إليها بعد خروجه الأخير من السجن فيلحق بها فى إحدى مصحاتها.. وكان أقسى ما لقيه فى الحياة أنها شاركته كل الشدائد والمحن. ولم تشاركه أيام المجد بعد أن دانت له الهند..

ولقد قال مرة وهو يذكرها ويغص بالذكرى: «ترى ماذا كانت قيمة الحياة لو لم تكن «كمالا» فى حياتى تهدئنى وتمنحنى الراحة والسعادة وتساعدنى على أن أزود جسمى وعقلى المنهوكين بما يجددهما».

ولكم كان العارفون يتمنون أن يهب الله النحاس «كمالا» مصرية .. أو أن يبقى بغير زواج كما كان مصرا..

مسار وشخصية:

ولا شك أن زواج النحاس انتقل بمساره الحزبى والسياسى – وعلى غفلة منه– من مرحلة إلى مرحلة.. وان كان هذا الزواج قد عجز تماما عن أن يتحول بشخصيته عن مكانها قيد أنملة كما عجز تماما عن أن يلتوى بخطه الخلقى عن مساره.

كان يلتزم صراطه المستقيم التزاما لا هوادة فيه .. صلة بالله .. وصلابة فى الحق.. وشجاعة فى الكفاح.. وكانت كل الخيوط من حوله تتشابك فى أخطبوط مخيف يحاول أن يلتوى به عن الطريق ولا يدرى ووقعت أخطاء لا تخلو من خطورة.. وهو لا يراها.. ولا يعرف شيئا عنها.. كبابا روما الذى يتندرون به وحاجبه يطرق بابه ليصحو فى الصباح على قول الحاجب «الشمس مشرقة والسماء صحو» فيرد عليه البابا «أعلم ذلك أعلمنى به الرب» والبابا لا يدرى أن المطر يهطل بوحشية وأن روما تسبح فى بحر من المطر.

ولقد تسربت إلى النحاس بعض الأقاويل.. ولكنه مات وهو مؤمن بأنها أباطيل هكذا قيل له ومن حقه أن يصدق هذا الذى قيل .. لأن أكاذيب الخصوم

التى واجهته عبر الزعامة كانت كلها أباطيل.. وعليها كان يقيس كل ما كان يتسرب إليه من القال والقيل.. وهذا التعامل لا ينفى أنه المسئول.

وزعامة نسائية :

فى بداية الزواج كانت السيدة حرمه مبهورة بالزعامة وأمجادها .. غارقة فى الأضواء التى تملأ المسرح.. أكثر مما بهرت ناريمان عندما وقع عليها اختيار الملك لتكون «ملكة» والبون بين الملك والزعيم شاسع.. فالملك بحكم الدستور ذات مصونة لا تمس.. وقد أرد الكثيرون أن يمسوه -بل أن يلغوا فيه- ولكنهم لم يجاوزوا حدود التمنى بحكم ذلك الدستور،

أما الزعيم فعرضة للمساس من كل الناس ولاكثر من المساس.. وليس له من الدروع الواقية غير سواعد الشعب.. وقد جاءت الحسناء الشابة إلي قلب غير سواعد الشعب.. وقد جاءت الحسناء الشابة إلى قلب العاصمة من فجاج الأقاليم.. لترى بعينيها كيف يثور الشعب إذا مس الزعيم ولتشهد الملايين فى الطرقات والميادين يهتفون باسم الزعيم بحناجر المجانين..

ولترى كيف اجتمع بها فى نقابة المحامين باسم كبار المحامين وأقطاب الوفد وذوات البلد فى حفل رائع أقامه يومها نقيب المحامين (مكرم) احتفالا بزواجها بالزعيم وأحيت الحفل أم كلثوم.. بل ترى العروس الحسناء كيف ينحنى أمامها رئيس الوزراء يومها- توفيق نسيم- وكاد بعض وزرائه يخرون بين يديها ساجدين.

هالها كل ذلك المجد.. وهال آلها من شباب آل الوكيل العاطشين إلى المجد وإلى الثراء وبدأت تفهم وتدرس - وكانت موهوبة - وتعد نفسها هى الأخرى لزعامة من نوع آخر.. كانت ذكية.. وكانت صاحبة شخصية .. وكانت نزاعة إلى السيطرة وعنيت بزوجها حتى لقى الراحة على يديها وذاق طعم الأسرة على

مستوى الحنان.. وأحب النحاس حرمه.. حب الزوج المحروم.. وحب الزوج الوفى..

ولم يجد عيبا فى أن يحبها مع فارق السن بينهما.. وكان يتمثل بالرسول وحبه لعائشة أم المؤمنين واندفع النحاس فى حنوه على بيته إلى آخر المدى الذي تتسع له عاطفة تمشى إلى ستين وكان أول خطأ له أنه بدأ يرى بعينيها لا بعينيه .. وبدأ يحب كل من تحبهم.. واتخذ من أخوتها أبناء له وأولادهم كما أولاها ثقة بغير حدود..

ولم يكن فى وسعهم بحكم وضعهم وشبابهم أن يرتفعوا إلي مستوى حبه النقى الخالص.. وإنما أحبوه على مستوى الأمانى والمطامع.. وبدأوا يحلمون .

كان النحاس يومها.. يخوض المعارك.. ويصرع الخصوم.. وكانت هى تتابع المعارك وتناقش أبطالها.. وتزحف على مهل إلي الاسهام فيها من داخل بيتها.. ولقد لاحظت أن سيدة ذكية وجريئة ومغامرة من بنات جنسها بطرت معيشتها وتجاسرت على خصومة الزعيم بعد أن نجحت جريدتها اليومية (روز اليوسف) نجاحا كبيرا.. وببيان من الوفد.. وبخطاب من الزعيم.. وبمقالات من مكرم .. ذهب المجد.. وفلست الجريدة.

ورأت الحسنناء كل الأحداث وهى تتوالى .. جبهة الشباب من مختلف الأحزاب تدعو إلى الوحدة.. والملك فؤاد يدعو إلى قيام الجبهة .. والانجليز يسعون إلى عقد المعاهدة.. والنحاس يصر على إجراء الانتخابات.. وعلى ماهر يجريها والنحاس يعود إلى الحكم ويعقد المعاهدة.. ويلغى الامتيازات .. ويجلس فوق أعلى قمة جلس فوقها زعيم.. وعاد النحاس إلى مصر فدخلها دخول الغزاة الفاتحين.. ولم يكن أحمد ماهر والنقراشى قد انشقا عن الوفد ولم تكن جريدة (البلاغ) قد خرجت على الزعامة.

عبر تلك الأحداث.. كانت السيدة زينب الوكيل قد عرفت طريقها إلى الأمجاد كما تراها وتتمناها.. وعرفت أن الهالات التى كانت ترسمها الصحف من حول الوزراء لا وجود لها فى الحقيقة.. وأن أى وزير يسعده أن يعرف أن (لرفعة الهانم) رغبة .. وأن يسارع إلى قضائها.. حتى ترضى.. وحتى يرضى..

وانطلق آل الوكيل إلى (جلائل الأعمال) فى مختلف الوزارات والشركات .. وحدثت الأخطاء والرجل لا يعرف منها شيئا.. والشارع يلغط بها.. والخصوم يبالغون فى تصويرها.. وان كانت فى حقيقتها لم تجاوز بعض الاستثناءات فى التعيينات والترقيات.. مما أسماه الخصوم (المحسوبيات).

ولكنها -على تفاهتها- أساءت إلى سمعة الوزارة الوفدية.. فلما أقيلت فى آخر يوم من سنة ١٩٣٧ لم يدر بخلد النحاس باشا أن لهذه الأخطاء أى وزن.. بل لعلهم أقنعوه بأن من حق الوفدى المخلص أن يكافأ على اخلاصه لقاء ما يلقاه من اضطهاد فى العهود الأخرى.. بعد أن أرسى سعد زغلول هذا الأساس عندما أعلن حكومته يجب أن تكون زغلولية لحما ودما.

هدنة و صراع:

وأعقبت اقالة الوزارة الوفدية هدنة طويلة فلم يعد الوفد إلى الحكم إلا فى ٤ فبراير سنة ١٩٤٢ بعد أن جرب الدستوريون والسعديون كل وسائل التزييف واقصوا عن البرلمان كل الوفديين باستثناء اثنى عشر نائبا- يتزعمهم عبد الحميد عبد الحق- خاضوا العراك ضد المجلس المزيف بجرأة وبراعة وتوالت الأحداث بسرعة مخيفة.. ولم تجد كل التجارب التى أجراها القصر والمحتل.. ووثب على ماهر إلى الحكم وأعلنت الحرب العالمية وأبعد على ماهر وجاء حسين سرى.. وهدد روميل الاسكندرية وتعرضت بريطانيا للضياع.. ولم يكن لها الا النحاس .. فجىء به.. وأملى شروطه وتسلم الحكم.. وأعطى سلطات الحكم العرفى.. وطال فى هذه المرة حكمه.. بحكم الحرب وأحداثها.

ولم يقل التاريخ كلمته حتى الآن فى وزارة ٤ فبراير١٩٤٢ التى قيل أنها جاءت على أسنة الحراب.. وثار عليها الكثيرون.. بعضهم لأهداف حزبية .. وبعضهم باخلاص وحسن نية.. ورفض التاريخ وما يزال يرفض أن يقول كلمته.. لأن النحاس امتد به الأجل.. وكان مجرد وجوده على قيد الحياة ثقلا يحسب حسابه حتى وهو يمشى إلى التسعين ويرفض أى حديث فى السياسة.

إن التهمة التى وجهت إلى النحاس كانت تهمة ظالمة.. وإنما قامت الوزارة فى ظروف غلفت قيامها بقشرة من الحق.. وخدعت عن الحق الكثيرين .. دبابات تحيط بالقصر.. انذار بخلع فاروق عن العرش إذا لم يشكل النحاس الوزارة.. توسلات من الزعماء للنحاس أن يشكل منهم وزارة ائتلافية وأن يرفض الانذار البريطانى وأن يدافع عن كرامة العرش بوصفه رمزا لكرامة البلد إلى آخر ما قيل يومها.

كلام معقول فى ظاهره.. ولكن الأمر فى حقيقته كان على النقيض تماما.

كانت الحقيقة أن هؤلاء الزعماء - وعلى رأسهم أحمد ماهر- هم الذين أبعدوا الوفد عن الحكم أربعة أعوام بغير الحق وحاربوا الشعب عبرها حربا لارحمة فيها.. وزيفوا الانتخابات تزييفا جرد الأحرار منهم من كل التراث الثورى الذى خلفوه وراءهم.. والتقى المتخاصمون منهم على وضع غير طبقى ليتعاونوا بأرخص الوسائل على أن ينجحوا فيما فشل فيه صدقى باشا بكل وسائله ..

وكان القصر معهم وأمامهم ووراءهم فى كل ما ارتكبوه ضد الوفد والشعب.. ولم يكن الملك فى تصرفاته مصريا ولا وطنيا .. فإذا نشبت الحرب العالمية بعد ذلك كله وتحرج موقف انجلترا ذلك الحرج.. ورأت أن الشعب الغاضب عليها لا يمكن أن يهدأ إلا إذا ردت إليه حقوقه وتسلم مقاليد الحكم زعيمه.. فاقترحت لتأمين ظهرها عودة النحاس..

ثم علمت أن الملك يلعب دوره فى الخفاء ليشكل أحمد حسنين وزارة للقصر.. فهددت الملك بعزله إذا لم يشكل النحاس وزارته فذلك حق من حقوق انجلترا كدولة تحارب.. وليس ذنبا للنحاس أن تطلب انجلترا رد حقوقه إليه .. وإنما الذى يحاسب عليه النحاس الموقف الذى يختاره.

ولم يكن النحاس غرا إلى الحد الذى يخدع فيه بالزى الوطنى الذي ارتداه يومها أحمد ماهر وزملاؤه.. فيمد يده إليهم بعد أن أذاقوا الشعب كأس الذل مترعة أربعة أعوام متوالية.. فيقدم اليهم كراسى الحكم فى لحظة تاريخية يستطيع الشعب فيها أن يسترد حقوقا سلبت منه طوال ذلك الزمن.

ولم يكن النحاس غرا حتى يناصب بريطانيا العداء وهى تطالب بعودته إلى الحكم فيعرض مصر كلها للضياع وتضطر إلي حكم مصر حكما عسكريا تأمينا لظهرها كما تحكم المستعمرات التابعة للتاج.

والذى صنعه النحاس هو الذى كان ينبغى أن يصنع.. لقد رفض الانذار البريطاني ورفض أن يشكل وزارته بناء على طلب انجلترا.. وإنما هو يشكلها كالعادة باسم الشعب الذي تمثله.. ويشكلها وفدية لحما ودما.. ويشكلها على أساس من الانتخاب الحر الذى يثبت أن الشعب ما يزال يؤيد الوفد.. ويشكلها فى الدرجة الأولى ليكون الحامى لمصر من بطش دولة تحارب.. ولا تتردد أمام كارثة روميل فى هدم مصر كلها من الشلال إلى البحر إذا كان فى هدمها انقاذ لانجلترا وبعد أن ثبت أن الملك وعلى ماهر وغيرهما يؤمنون بفوز هتلر.

وجاءت الأحداث موافقة لرأى النحاس، واستطاع أن يجتاز الحرب كلها بسلام. والدليل على أن انجلترا إنما قبلت حكومة النحاس كارهة.. أن الحرب العالمية ما كادت تطل على نهايتها وما كاد بوادر النصر المحقق للحلفاء تلوح على الأفق حتى تخلصت انجلترا منه.. وأذنت للملك أن يفاجئه بالاقالة فى ٨ اكتوبر سنة ١٩٤٤ والنحاس فى مصيفه الرسمى ببولكلى وأن يكلف بالوزارة خصمه اللدود الذي ثار عليه فى أوائل فبراير سنة ١٩٤٢ أحمد ماهر باشا.

بين الهدم والبناء :

كان النحاس يخوض تلك المعارك .. في الحكم وخارج الحكم فى كل المراحل .. وكان بيت النحاس – على غفلة منه– يخوض معارك أخرى .. كان نفوذ السيدة زينب الوكيل قد استشرى .. وكان أشقاؤها وأعوانهم قد بدأوا يمارسون نشاطهم على كل مستويات الأسواق..

وكانت البلاد تحت الحكم العرفى وكانت الصحافة ووسائل الاعلام تحت الرقابة.. وكان تجار الحروب يحومون حول هؤلاء .. وملأت الشائعات كل مكان وترامت إلى كل الآذان.. وأذن واحدة ظلت وحدها لا تسمع شيئا مما يقال .. هى أذن النحاس.. فإذا قرعها صراخ عال من شاك أو مستغيث وبطريق المصادفة (أما بطريق البرق أو البريد أو من النوع الذى يضل الطريق) وصرخ الرجل فى أحد السكرتارية: «ايه ده»؟» فالفرقة كلها ترد على الفور «دسيسة ياباشا».

فإذا عاد إلى البيت مهتاجا.. تلقفته الفرقة العاطفية الأخرى لتثبت له أن كل ما ترامى إليه كذب ومن صنع القلة والمعارضين ومن صنع الحساد والحاقدين.. ومن ذيول (الكتاب الأسود) وواضعيه .. وانتهى هذا كله باقالة النحاس فى آخر سنة ١٩٣٧.

وعاد إلى الحياة :

ماتت وزارة النحاس وظن بعض الناس أن لا قيامة للرجل بعد ذلك الموت.. ولكن النحاس كزعيم لم يلبث أن عاد إلى الحياة واسترد كل ما فقد.. من الأرض.. وهى ظاهرة يحسن أن تسترعى انتباهك لها.. ظاهرة تكرر حدوثها.. على طول طريقه .. وعلى طول حياته.. كل وزارة وفدية كانت تقوم على أكتاف الشعب ويستقبلها الملايين بمظاهرات رائعة تكاد تدنو من الجنون ..

ثم لا تلبث هذه الوزارة - أى وزارة نحاسية أن تمشى إلي الشيخوخة بفعل التخريب من داخلها حتى تستقيل أو تقال.. فإذا عاد الرجل إلى الشارع يقاتل ويبرىء من المخربين الذين كانوا يتوارون عن العيون بعد زوال الحكم.. عاد إليه ايمانه.. واستعاد كل شعبه وفجر كل طاقاته.. ونسى الشعب كل ما قيل عن عائلة الوكيل أو غير الوكيل.. ولم يعد أمامه إلا «النحاس .. النحاس».

وهذا ما حدث بعد أن أقيل.. ووثب إلى الحكم أحمد ماهر.

وكانت «أخبار اليوم» قد صدرت للاجهاز عليه.. وبدأت تنشر ما أسمته أسرار الخلاف بين القصر والوفد.. وكانت جريدة فنانة وبارعة.. وكانت أدواتها من القصر والأحزاب بغير حدود .. وكانت حملاتها ضاربة وهادفة.. وكانت ترفع راية التشهير بالوفد غير مبالية بأى قانون.. وكان الصف طويلا خلف حامل الراية.. صف الخفافيش من كل الخصوم يزحفون إلى دار الجريدة تحت ستار الظلام، ويتوارون النهار يعدون الوثائق ويزيفونها.. ويفبركون «الأخبار» ويجيدون سبكها.

وأغتيل أحمد ماهر وجاء النقراشى وسقط النقراشى وجاء إسماعيل صدقى وعاد النقراشى إلى الحكم واغتيل النقراشى.. وجاء إبراهيم عبد الهادى واستقال إبراهيم عبد الهادى.. وجاء حسين سرى إلي الحكم وأجرى الانتخابات وفاز الوفد وعاد النحاس من سنة ١٩٤٤ إلى سنة ١٩٥٠- أمد طويل لم يبق فى جعبة الخصوم سهم لم يسدد إلى الوفد - أمد طويل يئس صناع التخريب من الفوفديين من عودة الوفد إلى الحكم فانضم فريق إلى الخصوم ولكن الباقين لانوا بدورهم ونفضوا من الحزبية أيديهم وبقى النحاس وحده فى الميدان.. النحاس وصحفه - وكانت «البلاغ» قد عادت إلى حظيرته - وشىء آخر أبقى من النحاس وأقوى من الصحف.. الشعب.. شعب الشارع.. ظل معه فى كل مكان يوجد فيه أو يتجه إليه.. استجاب له وخاض كل المعارك من جديد تحت رايته حتى أرغم الملك إلى إجراء الانتخابات وعاد النحاس.

ولم يعد النحاس الشيخ إلى الحكم ليستريح فى كرسيه ناعم البال هذه المرة وليرتع من خلفه المخربون.. كالعادة فى كل مرة. وإنما عاد الشيخ شابا هذه المرة.. عاد ليرج المحافل الدولية بالغاء المعاهدة من جانب واحد.. عاد ليرخص للشعب والفدائيين فى مهاجمة الانجليز فى القناة.. عاد ليسحب عمال مصر من معسكرات بريطانيا فيقف نبض الحياة فيها.. وعاد ليمنع الغذاء اليومى عن جنود الاحتلال فاستغاثوا بالبحر والجو حتى يجدوا الغذاء.. وعاد ليأمر رجال البوليس فى الاسماعيلية أن يدافعوا عن كرامتهم حتى آخر طلقة معهم.

وأطل التاريخ الحديث بوجهه السافر على مصر الجديدة لأول مرة بعد ثورتها القديمة فى سنة ١٩١٩

وجن جنون الخصوم.. وتآمروا بليل. وأحرقوا العاصمة. وأقالوا النحاس.

أقيل بعد الحريق وهو فى أوج الزعامة.. وكان هذا آخر عهده بالحكم.. وبعد أن قامت الثورة فى ٢٣ يوليو من نفس العام وحلت الأحزاب.. نفض النحاس يده من السياسة بعد أن أدى الرسالة.. وتسلم غيره الراية.

وظل محل الإجلال كل السنوات التى عاشها بعد الثورة.. لم يستطع أحد أن يوجه إليه اتهاما.. ولا ارتضى حاكم أن يمس كرامته.. كان الجميع يعرفون أن كرامة مصر ماثلة فيه.. وأنه عاش لها بكل جلاله وبكل كفاحه وبكل قطرة من دمه بل وبكل أخطائه فى سبيلها.. وعلى طريقها

كل سياسى سئل .. وكل من اتهم حوكم.. حتى حرمه كانت موضع المساءلة.. وكانت تثور وتهدر محتمية بانتمائها إليه.. وكرم ذلك الانتماء .. وكفوا عنها المساءلة.

أحداث خطيرة

فى حياة النحاس

حادث فصل عربته عن القطار أيام صدقى ومحاصرته فى طنطا .. وحادث أمجاده يوم عهد صدقى باشا إلى ستة آلاف من الجيش المصرى بقيادة اللواء عبد العظيم على باشا باغتيال النحاس وهو يزور المنصورة ويقتحمها اقتحاما.. وأصيب يومها سينوت حنا بك الجالس إلى جواره...

وفى سجل الشهداء.. أسماء الخالدين الذين استشهدوا فى ساحات كفاحهم.

ولكن النحاس مختلف عنهم جميعا.. فلم يمت مثلهم شهيدا.. وإنما عاش العمر كله شهيدا.. حتى الأمانة.. وهى أخص صفاته سددوا إليها طعناتهم.. فلفقوا قضية الوثائق أو قضية سيف الدين وما تقاضاه كمحام من الأتعاب فيها وقدم إلى القضاء .. وأصدر القضاء حكمه ببراءة النحاس.. وسقط خصومه من فوق كراسي الحكم.. واتهموه باغتيال أموال من وقف عبدالعال الذى عين ناظرا عليه.. وبرأه القضاء.

وأطل النحاس على التسعين وهو فى أتم عافية.. وفى مثل تلك السن زحف الوهن الجسدى والعقلى إلى لطفى السيد ولم يزحف أبدا إلى الرجل المؤمن مصطفى النحاس.

سر الشباب:

وتساءل الكثيرون عن سر الشباب الذى احتفظ به الزعيم الشيخ إلى آخر يوم من حياته.. والمقطوع بصحته أن النحاس التزم العفة والاستقامة طوال أيام حياته.. وكان حريصا على سلامة بدنه فكان يتردد دائما على أطبائه ليطمئن

إلى هذه السلامة.. وكان حريصا على الغذاء الصحى وظل فى سنواته العشر الأخيرة حريصا على غدائه- بالدال- لا بالذال مكونا من دجاجة مسلوقة وحساء وفاكهة ولا يزيد..

ولم يعرف فى حياته مكيفا أو منبها ولا دخن لفافة.. وكان من هواة رياضة المشى الطويل يوميا.. وظلت هذه العادة تلازمه إلى آخر أيام حياته.. وكان ينام فى وقت مبكر ليصحو قبل صلاة الفجر.. شتاء وصيفا.. ولعل أهم سر فى شبابه أن القلق لم يسيطر عليه يوما ولم يستهلك جهازه العصبى حتى وهو يثور على الخصوم.

ثم يأتى المساء ويصلى العشاء.. ويقول (عليه توكلنا) وينام ملء جفنيه مؤمنا بأن الله ناصره وحاميه.. وقد يكون لحب الجماهير أثر فى الاحتفاظ بذلك الشباب ولم يحدث بعد سعد أن سمع أحد من الهتاف باسمه قدر الذى سمعه مصطفى النحاس.. ولا شك أن هتاف الجماهير كان يجدد فيه الخلايا .. وكان يبعث فيه الشباب.

وللأمانة .. كان النحاس الزعيم الأكبر.. بعد سعد.

ولم يستطع أحد أن يزاحمه على الزعامة.

ولم يكن فى وسع زعيم محترف أن يزاحم الزعيم المؤمن.

وكان خليفة لسعد ولم يكن سعدا.

ومضى إلى بارئه مرضيا عنه .

ومشى وراءه إلى مثواه الأخير قرابة مليون من البشر.

ولعل هناك ملايين ودوا لو ودعوه.. ولم يكن لهم نصيب.

أحمد ماهر والنقراشى

لعل أقرب أوجه للشبه بين «ماهر والنقراشى» فى الوطنية والسياسة والصداقة هى أوجه الشبه بين «العقاد والمازنى» فى الشعر والأدب والفكر وما كان بين الكاتبين من فوارق بين العمالقة والأقزام أدت إلى «التكامل» فى الانتاج وفى الاخاء.. على أن ماكان بينهما من تكامل قد انفرط عقده ورث على الزمن.. أما ما كان بين «ماهر والنقراش» فقد بدأ بالموت الذى لم يقع.. وظل على قوته حتى الموت.. الذى وقع، وورث أحدهما الآخر فى كل شىء.. بدءا من تضامنهما فى اغتيال أعداء الوطن.. وانتهاء إلى اغتيال كل منهما فى مأمنه.. وفى المكان الذى التصق به وتفوق فيه.. فاغتيل النقراشى رجل الأمن الحديدى فى وزارة الداخلية معقل الأمن.. واغتيل أحمد ماهر أقدر رئيس برلمانى فى دار البرلمان.

واعجبــا !!

ولعل أعجب ما فى أوجه الشبه بينهما.. ما خفى عن الناس واستتر.. وليس من تبدى للناس أو ظهر.

تبدى للناس أن بين الاثنين فارقا طبقيا لا يستهان به.. فقيل أن أحمد ماهر باشا أحد أبناء محمد ماهر باشا وكيل وزارة الحربية فى عهد الخديوى عباس الثانى أى باشا وابن باشا وأن محمود فهمى النقراشى باشا سكندرى المولد فقير الأسرة .. وفات أصحاب هذا القول أن المال يجىء ويذهب.. وهو من أى الوجوه يكتسب .. ولكن الشبه الخطير ما كان له جذور فى الأرومة وما خضع لقوانين الوراثة.. فالصديقان ينحدران عن أصل شركسى وقيل عن النقراشى أن أحد أجداده كان من الدروز فجمع بين الدرزية والشركسية.. وهذا الالتقاء عند الشركسية يفسر لنا الكثير من طباع الصلابة والاصرار والاعتداد فى كل من الصديقين.

ومن غرائب الصدف أيضا أن يتقارب الصديقان في السن فيولد أحد ماهر سنة ١٨٨٥ ويولد النقراشى فى سنة ١٨٩٠ ثم يختزل القدر هذا الفرق الزمنى فى المولد فيلقى ماهر مصرعه فى سنة ١٩٤٥ قبل أن يلقى صديقه مصرعه بأربع سنوات.. ليلغى كل فارق بين الصديقين عند المصرع.

يبين من هذه «المصادفات» أن أيا من الصديقين لم يكن رمية من غير رام.. وإنما صنعته الأقدار بيديها صنعها لأخيه.. وهيأته لرسالة يكمل بها رسالة أخيه. زجت بهما فى غمار البداية المزدانة بالدم.. ورسمت لهما مأساة النهاية المضرجة بالدم.

ومن البداية إلى النهاية طريق طويل.. بدأت باللقاء بين الاثنين عضوين فى هيئة التدريس بمدرسة التجارة العليا حتى أعلنت ثورة سعد.. ثم ثنت بانضواء الاثنين معا تحت راية سعد.. واجتازت بهما كل الأطوار والمراحل التى اجتازتها البلد.. حتى وضعت الأقدار نهاية لماهر فى العام الذى وضعت الحرب العالمية الثانية أوزارها فيه.. إيذانا بمولد عالم جديد.. فتجيء نهاية النقراشى فى العام الذى لعبت فيه الخيانة دورها لتقوم على أرض فلسطين دولة إسرائيل ولتكون الحجر الأساسى فى الكفاح المرير الذى كتب علينا أن نخوض غماره، معلمان اذن على طريق التاريخ المصرى الحديث هما أحمد ماهر ومحمود فهمى النقراشى.

قبل البدء بالعمل :

وقبل أن نساير الصديقين فى النشاط الذى اشتركا فيه.. يحسن أن نقول أن أحمد ماهر لم يكن فلاحا مصريا ضاق صدره بمظالم المماليك والأتراك ومن خلفهم على عرش مصر من خديويين وسلاطين.. كما كان سعد أو كما كان النحاس.. ولم يكن من أسرة ساحلية فقيرة وطموحة.. يترامى الأفق أمامها

بعيدا عبر البحر العريض.. وتضيق الأفاق أمامها فوق الأرض وفى صميم الحياة كما كان النقراشي..

وإنما كان ماهر ابنا لرجل من رجال الدولة، والطموح فى أبنائه اذن طموح نابع من مواهبهم ومن قدرات فيهم لا عن حاجة لقوت ولا غضب على الوضع..

وقد سلك كل ابن من أبناء محمد ماهر باشا طريق التعليم السليم ورقى صعدا كل درج السلم فظفر أحمد ماهر بليسانس الحقوق فى سنة ١٩٠٨ واشتغل بالمحاماة عامين ثم سافر فى سنة ١٩١٠ إلى فرنسا حيث حصل على الدكتوراه فى القانون والاقتصاد من جامعة مونبليه وعاد فى سنة ١٩١٣ أستاذا فى مدرسة التجارة حيث التقى بالنقراشي.. والتقى التفكير بالتفكير والثورة بالثورة.. وظلا تحت وطأة الحرب يبحثان فى صمت عن الثوار بين الشباب ويرقبان فى حذر تطور الأحداث.

وجاءت الثورة:

وشبت الثورة وكانت فرصة العمر وانتهزاها.. بيد أن أوجه الشبه بين الاثنين لم تكن كاملة.. فرأى الاثنان.. أن يجعلا من أوجه الخلاف حياة متكاملة.

كان النقراشي مدرسا صارما وجادا.. وكان مفطورا على النظام موهوبا فى التنظيم. وكان أحمد ماهر محاضرا مرنا.. ينتقل بين العبوس والمرح وفقا لمقتضى الحال.. ولم يكن أحد منهما موهوبا فى الخطابة كما كان مكرم عبيد -وسعد-

ولكن الصديقين كانا موهوبين فى التفكير المرتب .. فوقع اختيارهما على «ماتحت الأرض» مسرحا لنشاطهما.. وعلى «بعد النظر والدهاء» حارسا على هذا النشاط.. وعلى «أدوات الارهاب» تعد فى الخفاء.. لمحاربة الأعداء.

ووضع سعد عينيه على هذه المواهب فيهما.. وأدرك مدي الحاجة إليهما . فجند الاثنين معا.. ووزع الأدوار عليهما.. فعهد إلي النقراشي بكل ما يتطلب الدقة والتنظيم والكتمان والاقدام.. وعهد إلى أحمد ماهر بكل ما يتطلبه الموقف من مخاطر وأهوال وذكاء عندما يدعو داعي الثورة إلى المخاطرة والأهوال والذكاء.

اضراب الموظفين والطلبة :

وكان أول دور خطير قام به النقراشي ووفق - حيث كان التوفيق فيه حلما من الأحلام- حمل الموظفين على الاضراب التاريخي المشهور والاعداد له اعدادا بارعا غير مسبوق.

وانتقل الاعداد لاضراب الطلبة فى سنة ١٩٢٢ فنجح نجاحا مقطوع النظير واحتل النقراشي مكانه فى قلب سعد.

تحت الأرض :

وحدث الانقسام فى الوفد وعرف السعديون بالتطرف وكان الصديقان عنوانا عليه.. وعرف العدليون بالاعتدال.. وكانوا كلهم أعلاما على هذا الاعتدال.. وماج الشارع بالنضال الدموى بين الشعب والانجليز.. واتخذ ماهر والنقراشي مكانهما «تحت الأرض» يديران شبكات الاغتيال على مستوى الأفراد.. لكل انجليزى ذى شأن يقع فى أيديهما.. ولكل سياسى من المعتدلين يخون قضية البلد فى تقديرهما.

وتعددت جمعيات الاغتيال السرية، وتعددت أسماؤها من «جمعية الانتقام» إلى «اليد السوداء» إلى غيرهما.. واستطاع الحاكمون أن يعرفوا شيئا عن نشاط الصديقين.. وامتدت إليهما أصابع الاتهام.. ولكن أحدا لم يستطع أن يقيم دليلا على الاتهام .. فاعتقل الاثنان أكثر من مرة.. وأخلى سبيلهما فى كل مرة

.. ونسبوا إليهما جرائم لم يرتكباها.. ولم تنسب إليهما الجرائم التى ارتكباها.. ولعل أحدا لم ينس- من المعاصرين- اعتقالهما أثر مصرع حسن عبد الرازق باشا وإسماعيل بك زهدى أمام مبنى جريدة «السياسة» سنة ١٩٢٢ وأخلى سبيلهما.

وظل الصديقان يعملان فى الخفاء.. وظل نفوذهما فى الوفد يزداد.. حتى ألف سعد وزارته الأولى فى سنة ١٩٢٤ وفوجىء الناس بسعد يعين النقراشى وكيلا لمحافظة القاهرة.. يسيطر فيها على شبكة الجواسيس التى ظلت تطارده من بداية الثورة.. فماذا كان نصيب أحمد ماهر من سعد؟

كان أحمد ماهر قد خاض غمار الانتخابات وانتخب عضوا فى مجلس النواب.. وظهرت مواهبه البرلمانية.. تعززها ثقافة قانونية وثقافة اقتصادية .. وبراعة فيه كمحاضر جامعى يصلح لاقناع النواب بنفس القوة التى كان يقنع بها الطلاب.. فلما ذهب سعد إلى لندن لمفاوضة رمزى مكدونالد.. وعاد إلى مصر .. مصرا على تصعيد النضال.. عين أحمد ماهر وزيرا للمعارف ليشرف من هذا المنصب على ثورة الطلاب كما يشرف النقراشى على الأمن من المحافظة.

وكان سعد مطمئنا إلى أن «تحت الأرض» من هو أغنى وأقدر.. شبكة ارهابية يقودها (عبدالرحمن فهمى) ولا يعرف تاريخ مصر نظيرا لها.. ولم تكن مقطوعة الصلة بالصديقين.. بل لعل من عجائب الصدف أن يكون عبد الرحمن فهمى عما لأحمد ماهر

وفى دار المحافظة ظهرت حقيقة النقراشى.. وجد مرؤوسيه من الضباط بريطانيين، كما وجد الباقين من المصريين الضباط موالين لهؤلاء الأعداء.. وأصدر النقراشى إلى المديرين فى الأقاليم وإلى كبار المسئولين فى القاهرة تعليمات صارمة بقطع الصلة بينهم وبين أولئك الأعداء.. وأوعز إلى الثوار

باحراق مجلة «الكشكول» التى كانت تهاجم سعدا هجوما بذيئا.. وجريدة «الأخبار» التى خرجت يومها على سعد، وأصدر لحكمدار القاهرة -الانجليزى- أمرا بعدم التعرض لأفراد الشعب.

وعرف الانجليز والقصر حقيقة النقراشى وبدأوا يتربصون به..

أما أحمد ماهر فقد اختفى وراء شواغله باصلاح نظام التعليم .. وأحدث فى وزارته نشاطا يستوقف النظر.. وبهذا التستر استطاع أن يتصل بالثوار فى الخفاء حتى لقد قيل أن المحامى الوفدى - شفيق منصور- الذى أعدم مع رفاقه فى مقتل السردار كان وقت وقوع الحادثة فى مكتب أحمد ماهر يشرف منه على مسرح الجريمة وقد ألقى القبض على النقراشى - بعد مقتل السردار فى ٧ نوفمبر ١٩٢٤ وأخلى سبيله بعد التحقيق الطويل معه فى يناير سنة ١٩٢٥.

محاكمة الصديقين :

وفى مايو سنة ١٩٢٥ كان قد تجمع لدى السلطات ما يكفي لمحاكمة الصديقين على جرائم سياسية نسبت اليهما فاعتقل الصديقان وبدأت مراحل التحقيق والمحاكمة التى اهتزت لها البلاد زمنا.

وفى هذه القضية ظهرت مكانة الصديقين فى قلب سعد.

واعتقد كل مصرى أن حكم الاعدام عليهما معد ومكتوب وأن المحاكمة ليست إلا إجراء شكليا، وهال الموقف سعدا.. فطرح عنه شيخوخته وأمراضه.. وارتد محاميا شابا لا يعرف غير المحاماة مهنة .. وعكف على دراسة التحقيقات بكل ما أوتى من عبقرية وعلى وضع أسس الدفاع وظل يسهر الليالى الطوال فى اعداد المذكرات بالاشتراك مع مصطفى النحاس الذي يرأس هيئة الدفاع.

ولقد تحولت قضية مصر أو كادت فى تلك الفترة إلى قضية ماهر والنقراشى. وفى مايو سنة ١٩٢٦ صدر الحكم الذى أحدث دويا فى أرجاء العالم بعد أن تناقلته وكالات الأنباء بالتهول.. فهز مشاعر الجماهير على مستوى الشرق كله.. وكان سبب الدوى العالمى أن (كيرشو) الانجليزى رئيس الدائرة خرج على أصول القضاء وأذاع سر المداولات.. ليبرىء نفسه أمام مواطنيه المستعمرين..

فكانت فضيحة قضائية رددت صداها جنبات القضاء فى أرجاء الدنيا عندما قال كيرشو أنه أصدر حكمه بالادانة ولكن القاضيين المصريين وقفا ضده وقررا البراءة فكان لزاما عليه أن ينطق بحكم البراءة أمام أغلبية العضوين المصريين.

وفاة سعد :

وجاءت الانتخابات الائتلافية ونجح أحمد ماهر فيها وأصبح ملحوظ المكانة فى أخطر لجان المجلس وفى أغسطس سنة ١٩٢٧ سافر إلى الخارج ليمثل مصر فى المؤتمر البرلمانى الدولى وهناك فوجىء بوفاة سعد فعاد إلى مصر وبهذه العودة انتهت المرحلة الأولى لحياة الارهابيين[1] الثائرين وبدأ مرحلة جديدة.

وعبر تلك المرحلة لم يكن هناك شك فى أن الثائرين الكبيرين وهبا مصر وزعيمها كل ما أوتى الاثنان من شجاعة وقدرات ووضع كل منهما رأسه فوق

(١) قال تعالى : ﴿ وأعدو لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لاتعلونهم الله يعلمهم ﴾ ، فالمقاومة ضد الاحتلال مشروعة كما يحدث فى العراق وفلسطين وهذه المشروعية دينية وعرفية وقانونية خلاف ما يروج له أعداء العرب وأعداء الإسلام - الولايات المتحدة وإسرائيل فإن كانت المقاومة ضد الاحتلال إرهاب فهو إرهاب مشروع أو فلتسمى مقاومة ضد المحتل أو دفاعا عن النفس.

كفه ولم يتردد أبدا.. ولم ينكص على عقبيه يوما.. ولم يستهدف منصبا أو غنيمة وتلك صفحة مشرقة وناصعة البياض فى حياة الصديقين العظيمين وكان موت سعد.. مع الأسف بداية لنقاط سوداء وجدت طريقها إلى هذه الصفحة.

بداية الصراع :

وكما يحدث دائما.. أو فى الأغلب الأعم - عندما يموت الفرد المعلم.. ويترك التركة الكبيرة.. من غير وصية مكتوبة.. ومن غير قانون للمواريث يحدد أنصبة الورثة تتوارى البراءة.. وتزول المخاوف.. وتصحو المطامع.. كما يحدث فى الأغلب الأعم.. عندما يموت الفرد العلم.. حدث فى مصر عند وفاة سعد.. وتعددت الآراء.. وحاول بعض الأعضاء أن «يتكتكوا» على استحياء.

وقال قائل منهم ما قيل عن أهل الكهف وعددهم قال قائلا . «فتح الله بركات ابن أخت سعد.. والوارث الشرعى والداهية نو الناب» وقال قائل : «الزعامة -كالنبوة- لا تورث» وقال قائل «أقرب الناس إلى سعد.. وأحبهم إليه هو الذى يخلفه».

وقال مكرم عبيد ان كان المقياس هو القرابة إلى القلب والقرابة إلى الوطن.. والعفة فى الخلق.. والماضى المطهر.. وانعدام المطامع.. والمركز التالى للزعامة فعلا فهو السكرتير العام للوفد مصطفى النحاس.. وكان مكرم جريئا.. وسدد الضربة والحديد ساخن وكان له مطمع.. ولكن كان له منطق وأخذت الهمهمات والهمسات طريقها إلى اللغط فوق أرض الحياد.

وكان طبيعيا أن يكون الأمر هكذا وأن تكون البلبلة سيدة الموقف.. ففى حياة سعد كما فى حياة كل مفرد علم- لم يكن لأحد أن يفكر فى خلافة سعد.. كان جلال الزعامة يقف سدا.. أمام مثل هذا التفكير.. وكان مثل هذا التفكير.. كفرا لا شك فيه بوحدانية الزعيم.. استحالة العثور على أى «عظيم» يمكن أن يملأ الفرا غ الذى تحدثه وفاة الزعيم.

الأحجار كلها فوق الرقعة.. والأنظار تنتقل فى صمت بين هذه الأحجار.. ثم تنفض حياء.. ولا تفضى برأى.

فتح الله ابن أخت سعد كما قلت .. وقد تجاسر عضو فذكر هذه القرابة.. وصرخ فيه مكرم غير المسلم.«إلي دينكم احتكم.. كان على ابن أبى طالب ابن عم الرسول.. وأول من أسلم.. واستخلف أبو بكر.. دعونا من صلات القربى والدم».. وتجاسر ثان وذكر أحمد ماهر.. وله سجل حافل ومزدان بالدم.. الدم الذي يهرق فى سبيل الوطن.. لا الذى يورث عن الأم.. «انتخبوه رئيسا للوفد وانتخبوا النقراشى سكرتيرا عاما وتنتهى».

كان أحمد ماهر خارج القطر عند الوفاة كما قلت .. ولو أنه كان هنا.. لتغير وجه التاريخ كما قيل.. ولكن وجه التاريخ لم يتغير.. وفى سبمبر – ووفاة سعد فى ٢٣ أغسطس انتخب النحاس زعيما وانتخب مكرم سكرتيرا عاما.. وبطل كل سحر من غير حاجة إلي عصا موسى.

وكان وقع الانتخاب على الصديقين شديدا ومريرا.

وبدأت الأحقاد تعرف طريقها إلى الصديقين.. أو إلي قلبيهما.. بعد ثمانية أعوام من الطهر الوطنى.. ومن الفدائية البريئة.. ومن الكفاح البكر.

وقال أحمد ماهر لأحد أنصاره المقربين – والعهدة فى الرواية على المقرب– أنه لم يضق أبدا بزعامة النحاس.. وهو أصلح لرياسة الوفد من أى عضو فى الوفد.. ولكن المصيبة أن ينتخب مكرم سكرتيرا للوفد.

وقال أحمد ماهر – والعهدة على نفس المقرب – لو أنه «النحاس» انتخب رئيسا للوفد مكان سعد.. وانتخب النقراشى سكرتيرا للوفد مكان النحاس.. لكان الوفد أقوى وأطهر.. فالنحاس رجل مخلص وطيب.. والنقراشى رجل مدبر ومنظم.. وفيه ذكاء ودهاء يحرص على ألا يبدو على السطح منهما أى أعراض..

وكان فى روع النحاس أن ينتفع بهذه المواهب فى الكفاح. أما أن يثب إلى سكرتارية الوفد انتهازى كمكرم.. عمل طوال مدة الحرب سكرتيرا خاصا لكل مستشار قضائى انجليزى.. ورفض سعد أن يعينه وزيرا حتى مات.. وأن يتخطى مكرم رجالا وأبطالا قامت قيادة الثورة على أكتافهم.. فمأساة.

مأساة أحدثت تغييرا حتى فى نظرهما إلى النحاس نفسه.. بعد أن رأياه يعتز بمكرم. ويدفع به إلى خطر الصدارة.

وكما حدث للفدائيين فى فلسطين فى سنة ١٩٧٠ (أو بعد مذابح سبتمبر) فتحول كفاحهم وسلاحهم إلي تأمين ظهورهم من جيش عربى يحيط بهم ويعاونهم بعد أن كان الكفاح والسلاح موجهين إلى العدو الحقيقى فى إسرائيل.. حدث للصديقين وتحول الكفاح والصلاح فى يديهما من محاربة القصر والمستعمر.. إلى محاولة ابعاد مكرم عن النحاس إن أمكن.. أو ابعاد الاثنين عن الوفد إذا لم يكن بد.

وكان كثير من أعضاء الوفد يؤيدون اتجاه الصديقين ولا يعلنون هذا التأييد.

وكان فتح الله بركات على رأس الغاضبين كوارث شرعى اغتصب منه ميراثه.

ولكن كل هذه الدوامات الحاقدة كانت تحدث تحت سطح الماء .. ومن بين هذه الدوامات أفلتت سفينة الوفد الجديدة تمخر العباب باسم الله مجريها ومرساها فى نظر الريان.. وباسم الله مجريها.. وباسم الهدف البعيد مرسى السفينة فى نظر الريان المساعد.. أو على التحديد «مكرم عبيد».

أمانة الصندوق :

على أن الأمر لم يخلص كله لمكرم.. كان الوفد قد اختار النقراشى أمينا

للصندوق وكان فتح الله بركات يشغل هذه الأمانة واعتذر عنها بعد أن أفلتت منه الزعامة.. ولم يعد من الكرامة قبول الأمانة.

وقد تعنى أمانة الصندوق لونا من التبعية أو الخضوع للسكرتير العام للوفد.. ولم يكن معقولا أن يكون مكرم رئيسا للنقراشي.. ولكن النقراشي رضى عن أمانة الصندوق ليتحكم عن طريقها فى التنظيم كله.. أن النقراشي على الرغم من الجفوة فيه أخو دهاء؟

لقد صح تقديره .. ولجأ عن طريق الصندوق إلى بسط نفوذه على «النادى السعدى» حيث يجتمع الشباب من الطلاب.. وغير الطلاب واعتصم مكرم ببيت الأمة واعتصم النقراشي بالنادى السعدى.. ونافق كل منهما الآخر.. وداراه.. ورسم على شفتيه ابتسامة وديعة فيها توكل العارف بالله.

وفى «النادى السعدى» استطاع النقراشي أن يشكل من الشباب تنظيمات وخلايا وطلائع.. بل استطاع أن ينسج فى هدوء على منوال النازية فى ألمانيا والفاشية فى ايطاليا وأن يؤلف من شبابه ميليشيا «القمصان الزرق» تنصب خيامها فى العراء.. وتتلقى تدريبات عسكرية.. وتحمل الأسلحة الصغيرة فى غدوها ورواحها.. وكانت ظاهرها موجهة ضد العدو إذا حان حين العدوان.. وموجهة ضد أى تشكيلات أخرى تناصب الوفد العداء.. وكانت «مصر الفتاة» قد شكلت قمصانها الخضراء - ودب الذعر فى قلب مكرم .. ولكنه تظاهر بتأييد القمصان .. ونشط فى الخفاء لتوسيع شقة الخلاف بين النحاس والصديقين لكى ينفصلا عن الوفد فتدول دولة القمصان من غير أى قتال أو طعان.

ونجح مكرم .. حيث فشل الصديقان.

نجح مكرم وهو يحكم التدبير ويلبس ثوب الغيرة على الزعيم..

وفشل الصديقان بسبب الغلطة التى وقعا فيها يومئذ.. كما وقع مكرم نفسه فيها.. عند فصله من الوفد.. غلطة التطلع إلى كرسى الزعامة بعد أن ثبت.. واكتمل للزعامة بناؤها العضوى من الشعب ومن الزعيم.

ولو أن الصديقين استهدنا مكرم وحده.. والتصقا بالزعامة التصاق اخلاص مجرد.. لنجحا فى التفريق بين النحاس ومكرم.

كان الموقف قابلا للتفجير فى أى وقت.. بين الصديقين ماهر والنقراشى والصديقين النحاس ومكرم ولكن أحداثا وطنية كبرى .. أرجأت هذا التفجير.

أحداث السنوات الأربع أو الخمس التى استغرقتها التجارب الانجليزية والمصرية فى محاولة الاجهاز على الوفد بيد إسماعيل صدقى وحتى نهاية التصفية والخيبة أيام عبد الفتاح يحيى.. هذه السنوات العجاف اقتضت التكتل بين صفوف الوفد لمواجهة المؤامرة العاتية.. فكانت «هدنة» لابد منها ظلت مرعية الجانب حتى قامت «الجبهة الوطنية لمفاوضة الانجليز» وانتهت إلى عقد معاهدة سنة ١٩٣٦ فى قاعة لوكارنو فى لندن وإلى الغاء الامتيازات الأجنبية فى مؤتمر مونترو بسويسرا .. ووقعها جميع الزعماء.

وانتهت الهدنة :

انتهت الهدنة بصورة عجيبة .. بهجوم مفاجىء من أحمد ماهر فى مجلس النواب المصرى على المعاهدة التى اشترك فيها وبدأ يظهر عيوبها بل بدأ يغذى الغاضبين عليها من شباب الأحزاب والكتاب بالبيانات والمعلومات وكان أحمد ماهر وقتها رئيسا لمجلس النواب.

كان الطريق – طريق التفريق – قد انفتح أمام مكرم.

كان فريق من أعضاء الوفد قد انفصل عن الوفد ولم يعد أمامه الا الخطيران ماهر والنقراشى.. وكان النقراشى وزيرا للمواصلات فاشتد النزاع

بينه وبين مكرم داخل الحكومة واستطاع مكرم أن يقنع النحاس بخطأ تردى فيه فأجرى تعديلا وزاريا فى أغسطس سنة ١٩٣٧ أخرج بمقتضاه النقراشى من الوزارة مقابل منصب رفيع فى قنال السويس يمثل الحكومة فى الهيئة مقابل مرتب خرافى يتقاضاه النقراشى الفقير.

ولكن النقراشى الفقير هزأ بالمنصب وسخر من الإغراء ورفض العرض وأعلن انضمامه إلى المعارضة فانتهز مكرم الفرصة واقنع النحاس بفصل النقراشى من الوفد ففصل فى سبتمبر وتم لمكرم التخلص من أحد الصديقين.

وسيطر ماهر على أعصابه فلم يستقل من الوفد ولم يشأ النحاس أن يقيله حتى لا يقال أن النحاس يبتر من جسم الوفد أنصار سعد .. عضوا بعد عضو.

وكان مخطط :

مخطط وضعه الصديقان الذكيان .. وخانهما الذكاء.. أو اتضح أن الذكاء «التحتى» شيء والذكاء «الفوقى» شيء آخر.

رأى ماهر أن يظل عضوا فى الوفد.. عليما بكل تحركات العدو.. وثيق الصلات بالأعضاء .. رجاء استمالتهم عضوا بعد عضو.. وترك للنقراشى أن يستأجر مكتبا له يستقبل فيه أعضاء الهيئة الوفدية – رجاء استمالته لهم عضوا بعد عضو.. واستكمالا للمخطط.. حتى إذا تم للصديقين ما أراداه.. وانحازت إليهما أغلبية الهيئة والنواب .. اجتمعوا وقرروا خلع النحاس من الزعامة وفصل مكرم من الوفد وانتخاب ماهر رئيسا والنقراشى سكرتيرا للوفد.

ولكن جهود الصديقين ذهبت مع الريح.. ولم يقتنصا غير أعضاء قليلين.

وتوالت الأحداث :

«وتوالت الأحداث».. فالخيبة أثارت شركسية ماهر فازداد تحديه للزعامة

.. فازداد مكرم دفاعا عن الزعيم.. وكلما حاول أحد المخلصين للوفد أو للبلد أن يضيق شقة الخلاف سارع مكرم بتوسيع هذه الشقة.

وكانت النتيجة غريبة وسريعة.

انتهز خصوم المتخاصمين الفرصة.. فنسفوا الفريقين معا.. وفوجىء النحاس باقالة وزارته.. وبتشكيل وزارة محمد محمود باشا زعيم الأحرار الدستوريين.

وأشد غرابة :

وأشد غرابة من الاقالة .. ومن أعمدة البيت التى تهاوت بين يدى شمشون على البيت ومن فيه.. أشد غرابة أن يرى خصوم الوفد من قصر ومن محتل أن الوقت قد حان لتصفية الوفد من ثواره القدامى وارهابية النظام.. فاستغلوا كل صفات المشاكسة فى الصديقين الثائرين.. وصفوا نهائيا بينها وبين روح (سعد أو الثورة).. وفوجىء الناس بكارثة وطنية غير مسبوقة.. فوجئوا بأحمد ماهر الثائر العظيم يقبل فى ٢٤ يونيو سنة ١٩٣٨ تعيينه وزيرا للمالية تحت رياسة زعيم الأحرار الدستوريين.. وفوجئوا به يتلقى (الرضاء السامى) من يد (المليك المفدى) رتبة الباشوية فى نوفمبر سنة ١٩٣٩ وفوجئوا بانتخابه رئيسا لمجلس النواب المؤلف وليجدد انتخابه لهذه الرياسة فى العام الذى يليه.

وتحول كل شىء .. ودخل الصديقان بالجهاد الوطنى فى مسار جديد.

وانتهت بهذا التحول مرحلة أخرى فى حياة الصديقين.. وبدأت مرحلة جديدة .

فى المرحلة الجديدة :

وليس هناك شك فى أن تحالف الصديقين مع أحزاب الأقلية قد أضر

بحزب الأغلبية وأقصاه عن الحكم بضع سنين حتى عاد إليه على أسنة حراب الانجليز كما يحلو لخصومه أن يصفوا حكومة الوفد فى فبراير سنة ١٩٤٢.

ولا أشك أبدا فى أن الضرر الذى لحق بحزب الأغلبية باقالة حكومته - وهو ضرر مألوف ومسبوق- لا يقاس بالضرر الأكبر الذي حاق بالصديقين وتاريخهما وماضيهما ووطنيتهما سوقد انتقلا من أقصى اليسار إلى أقصى اليمين وتحالفا مع الشيطان لا ليكسبا حرب البقاء أو الفناء كما فعل تشرشل وإنما ليثأرا لنفسيهما من رجل أو رجلين.

وتوالت الأحداث أيضا وولى النحاس فى سنة ١٩٤٢ وفصل مكرم من الوفد واعتقل وأقيل النحاس مرة أخرى علي مقربة من نهاية الحرب ووثب أحمد ماهر إلى الحكم فى سنة ١٩٤٤ فأفرج عن عدوه القديم مكرم وعينه وزيرا للمالية لينضوى الاثنان ماهر ومكرم - وتصور - تحت راية السيد الجديد .. ومن هو سيد الاثنين فى هذه المرة ؟ الملك فاروق.

كيف حدث هذا ؟.

أنهما تنافسا فى استرضاء الملك - حتى لقد اختلفا على الأسلوب أمام الانتخابات فرفع مكرم شكواه إلى «مولاه» فأمر الملك أحمد ماهر بارضاء مكرم وصدع النقراشى وزير الداخلية (النظيف) بالأمر الكريم.. وجىء بمجلس نيابى لا تنخفض درجات التزييف فيه كثيرا عن درجة التزييف التى سجلها إسماعيل صديقى عندما جاء بمجلسه.

أى انقلاب فى مسار الكفاح وفى تاريخ الأحزاب؟

إن ذلك كله قد حدث.. وأن أحمد ماهر اغتيل وهو حاكم .. وانتهى تاريخه.

على أن التاريخ لا يرضى من الناقد أن يسجل المساوىء ويغفل المميزات.

إن هذه النهاية الممزقة - أو المرحلة الفاجعة - التى انتهى إليها الصديقان الثائران لا تعنى أن الصديقين جردا من كل مقومات الشخصية فى كل منهما.

لقد بقيت بعض الظلال تتراءى لنا بين الحين والحين.. وتطرحها علينا طبيعة التكوين فيهما.. ودنا الأمل فى صحوة جديدة.. أو غد أفضل.. كظلال من أحكام الوراثة.. وظلال من غلبة الصفات.. وظلال من املاء الكرامة.. وظلال من العناد ومن الشجاعة.. ففي مواقف كثيرة كانت شجاعة الصديقين تطل علينا من خلالها.. وكان المحبون يتلقون بهذه الومضات بالزهو ويقولون أن الرجلين لا يزالان رجلين.. وأن أخطاء الوفد هى التى حملتهما على ما صنعا.

إن أحمد ماهر لم يكن يسمح لخطيب من أنصاره يهاجم الوفد بتوجيه أية كلمة نابية إلى النحاس وكان ماهر يثور على الخطيب وينهره بعنف ولعله لم ينس كلما ذكر اسم النحاس أنه المحامى الذى خلص رقبته من حبل المشنقة سنة ١٩٢٥.

ومن مواقفه شجاعته يوم ثارت جامعة فؤاد (القاهرة) على حكومته فذهب وحده إليها ليواجه عشرات الآلاف من الطلاب الثائرين واقتحم عليهم معقلهم فى ثبات غير مسبوق من أى وزير وأجرى حوارا سافرا وصريحا فيما بينه وبينهم وأقنع الكثيرين من مخالفيه بوجهة نظره وعاد إلى مكتبه سليما لم يمسه سوء.

تناقضـــات :

وعلى الرغم من كل ما قلناه فى هذا الفصل فالحقيقة التى لا شك فيها أن شخصية ماهر وشخصية النقراشى تستعصيان على قواعد النقد وأصول المنطق وحصيلة التحليل.. وأن فيهما من المزايا والنقائض التى تعايشت مايهدم كل هذه القواعد وكل هذه الأصول.

لقد كان كل منهما حريصا على أن يكون شريفا وإن كان أحمد ماهر يقرن الشرف بالفهم والمرونة والنقراشى يغلفه بالجفوة والصلابة ومع هذا أو برغمه.. لا يستطيع أن نخفى أن أحمد ماهر كان يهوى المقامرة وسباق الخيل ولا ينكر هذه الهواية وهو أعرف الناس بوخامتها فى الرجل العمومى.. بل لم يكن يضيق بصحف السباق وهى تتحدث عنه فى الوقت الذي يتحدث الناس عن النحاس وكيف لم تفلت منه صلاة الفجر عبر عمره.

أما النقراشى فكان أشد غرابة فى سلوكه .. وكان سلوكه مرحليا .. فى مرحلته الثورية الأولى.. كان يتشبث بقيمه ويصر عليها اصرارا يكاد يجعل من هذه القيم.. قيما تجريدية لا علاقة لها إلا بذاتها حتى إذا عهد إليه فى المرحلة الثانية بالأمن كحاكم.. وبالتنظيم كحزبى.. بدأ يستسيغ ما لا يستساغ، ولكن عذره أن ما كان يراه البعض خطأ فيه أو تعصبا أو تهورا.. كان فى ميزانه هو صوابا وواجبا وعدلا وحزما.

ولكن المرحلة الثالثة التى انتقل إليها النقراشى أدارت رؤوس محبيه .. وأعنى بها الانتخابات التى أجراها فى يناير سنة ١٩٤٠ فعجب الناس من رجل الأخلاق والنزاهة والصراط السوى.. كيف أجاز لنفسه أن يخوض ذلك الخضم الذي خاضه.. وأن يوصم ثانية بذلك التزييف الصارخ المكشوف.

ولقد اعتذر لأصدقائه يومها بأن الذى قام به لم يكن «جرائم انتخابية» ارتكبها كحاكم.. ولكنها كانت «عمليات جراحية» أجراها كطبيب لمريض لا حياة له إلا باجرائها أو لبلد لا نجاة له إلا بالاجهاز على زعامة النحاس.. والا بمجلس نيابى يقصيه عن الحكم خمس سنوات يلفظ النحاس خلالها أنفاس الزعامة.

والقدر كما ترى يرقبه كل محايد.. وكل عاقل.. ولم يكن النحاس.. حتى بمقاييس النقراشى – هو علة البلد– وإنما كانت العلة هى جيش الاحتلال.. وهى

القصر والملك.. كانت العلة عدوا من الخارج وعدوا فى الداخل.. ولم يقل أحد أن التخلص من أى زعيم يخلص مصر من المحتل أو من أى العدوين.

ولقد صح تقدير النقراشى فى اقصاء الوفد عن الحكم بضع سنين .. وهو نجاح سبق لصدقى وأنصاره أن أحرزوا مثله.. ومع هذا كله ساء تقدير النقراشى فى القضاء على الوفد واستطاع النحاس أن يسترد ما فقد من الأرض وعاد إلى الحكم شابا ثوريا أو كالشاب الثورى.. يعلن للعالم أنه ألغى المعاهدة.. ويرعى حروب الفدائيين.. ولم تقم للسعديين قائمة.. واغتيل النقراشى ولم يكن الذى اغتاله وفديا.. واغتيل أحمد ماهر ولم يكن الذى اغتاله من الوفديين.

وتناقض على أرض فلسطين:

وتناقض آخر فى سلوك النقراشى يثير الحيرة.. لقد سافر إلى مجلس الأمن لتحريك قضية مصر وكان ثوريا وكان شجاعا وكان رائعا.. وواجه من فوق منبرها انجلترا وممثلها وكان أول وزير مصرى فى التاريخ الحديث يقول للانجليز على مسمع من العالم ما لم يقله مسئول قبله.. ولم يكن يعبر عنهم الا بكلمة «القراصنة» ويعود إلى مصر عودة الغزاة الفاتحين فلا يتخذ أى إجراء ثورى غير أن يأمر بعدم التعامل معهم ويعلن الحرب ويرسل جيشه إلى أرض فلسطين فى ١٥ مايو سنة ١٩٤٨ لتطهيرها من رجس اليهود.

وكان المفروض فيه أن يرتفع إلى مستوى الموقف الرهيب ويقاتل بشرف ووعى.. ولكن الذى حدث أنه أرسل جيشه الكبير إلى الميدان بأسلحة فاسدة وسمح لرجال الملك أن يتجروا بها وأن يغرروا به وأن يستوردوا «الموت» لجنودنا.. وأن يظل هو ستارا يختفى وراءه أولئك المفسدون..

ولقد حماهم فعلا ليضمن رضا الملك عنه ولم يطالبه بمحاكمة أحد منهم..

ولم يصادر أى مال لهم.. وان كان أحد لا يستطيع أن يقول أن يده هو قد امتدت إلي قرش واحد.. وظل الرجل يحتمل هذا الوزر حتى اغتيل.. وكان فى ميزان التاريخ أكبر مسئول عما حاق بالوطن العربى بعدها من عار لا يزال قائما.. وعما حاق بشعب فلسطين من تشريد ما يزال يزداد.

كان الرجل طاهر الذيل كرب أسرة.. وكان نظيف اليد كحاكم .. تزوج من سيدة فضلى ذات أولاد فلم يقل أحد أنه تاثر بهذا الزواج فى عمله.. ولم يسمح لقرش غير مرتبه أن يتسلل إلى جيبه أو بيته.. ومع هذا فقدأثرى فى عهده كثيرون ممن انتموا إلى حزبه أو آزروه فى سياسته.. حتى أن فريقا منهم كان يتخذ من مكتبه سوقا لعقد الصفقات من حيث لا يدرى الرجل.. وحتى قيل الكثير بالحق أو الباطل عن السيدات والفتيات الأجنبيات أو اليهوديات.. هذه تطالب الأذن لها بالخروج من مصر.. وتلك تطلب الافراج عن زوج لها معتقل.. إن النقراشى لم يكن له علم بشىء من ذلك السوء الذى كان يجرى. لقد كان بريئا منه ولكنه فى الحق مسئول عنه.. وكان يثق بمعاونيه ثقة عمياء تحجب الرؤية.

لقد قال عنه سيرمايلز لامبسون أنه (ذكى وقدير وشجاع وجسور وشديد الدهاء) فالى أى هذه الصفات نرد تلك الأخطاء ؟

متناقضات أخيه :

هذه بعض المتناقضات فيه .. فما هى التناقضات فى أخيه أحمد ماهر؟.. لقد كان النقراشى أقرب إلى العبوس والجد والصرامة والمشية العسكرية والصدر العريض. وكان أحمد ماهر أشبه بالبطة الرشيقة.. قصير القامة موفور النشاط.. يتقدمه كرش كبير.. لا يعوقه.. باسم الثغر دائبا إلا أن يكون غاضبا.. جذابا كزعيم لجماعة لا لأمة.

قال عنه سير مايلز لامبسون أنه شقيق على ماهر باشا ومحمود ماهر بك الطبيب الشرعي وأن الأسرة كلها مشوبة وأن أحمد ماهو هو أسوأ أفرادها.

والسفير غير صادق أو غير وزان للرجال، وإذا كانت الأسرة مشوبة بالحق فان أحمد ماهر من خير أفراد هذه الأسرة. أو على الأقل أقلهم سوءا.. إلا أن يكون السفير قد قصد بالسوء عداوة ماهر لانجلترا.. وهو فى هذه الحالة أشد سوءا مما قال السفير.

كان أحمد ماهر كرجل عام .. مجموعة من القدرات ومجموعة من المواهب.. وكان شجاعا وذكيا ومشهورا ولكنه كان أيضا على المستوى الشخصي رقيقا دمثا عطوفا كريما.

ولقد تقابلت بعض هذه القدرات مع بعض تلك الصفات.. فأسلمته فى النهاية إلى الرصاص من يد شاب طائش فخسرت البلد بمصرع الرجل خسارة لا تعوض.

موقفان تاريخيان:

ولقد كان للرجل موقفان تاريخيان لا يسع الناقد أن يتغاضى عن أى موقف منهما :

الأول : موقفه فى ٤ فبراير سنة ١٩٤٢ والآخر موقفه من المطالبة بانضمام مصر إلى الحلفاء واعلانها الحرب رسميا على الأعداء بعد هزيمة هتلر حتى تضمن لنفسها مقعدا فى هيئة الأمم.

وقد تجمع الشجاعة بين الموقفين والرجل كان شجاعا كما قلت .. ولكن الصدق حالف أحد الموقفين ولم يحالف الآخر.. وكان تناقض.

حادث ٤ فبراير:

فى ذلك التاريخ - ونصر الحلفاء يبدو ولا أمل فيه .. وروميل يكاد يدق أبواب الاسكندرية - دعا أحمد حسنين رئيس الديوان بأمر الملك جميع الزعماء إلي اجتماع فى القصر للنظر فى الانذار البريطانى الموجه إلى الملك باسناد رياسة الوزارة إلي زعيم الأغلبية حتى يهدأ البلد ويحمى ظهر المحاربين.

وفى ذلك الاجتماع حضر أحمد ماهر وهو يلف وجهه بالصوف .. وكان مصابا بالحمى وباحتقان وخفتت الأصوات وجبن الزعماء عن مواجهة النحاس بما لديهم من الآراء بعد أن رماهم بالتآمر على الأمة أربع سنوات وأصر على أن تكون الوزارة وفدية لحما ودما .. أو لا وزارة .. فى ذلك الجو ارتفع صوت أحمد ماهر فى هدير مماثل يتهم النحاس بالأنانية ويسأله كيف يرضى أن يرتفع إلى الحكم على أسنة الحراب ودبابات انجلترا تحيط يومها بالقصر وتهدد رب العرش بخلعه عن العرش.

ونسى أحمد ماهر أن أحزاب الأقلية - وعلى رأسها حزبه - ارتفعت إلى الحكم برغم أنف الشعب على أسنة التزوير.. فى حماية القصر والانجليز معا.. وقد قالها له النحاس وقال أكثر منها فى ثورة عارمة وتبادل الزغلوليان القديمان أقسى الاتهامات وخرج أحمد ماهر من الاجتماع يصرخ فى الصحفيين المصريين والأجانب «اشهدوا أننا نعود إلى الوراء عشرين عاما».

ولم يشهد أحد بهذا التقييم من جانبه للموقف.

لقد كان الصحفيون يعرفون أن أحزاب الأقلية ائتمرت بالوفد فى ٣١ ديسمبر سنة ١٩٣٧ وأقصته عن الحكم بغير الحق أكثر من سنوات أربع.. ولم يدر بخلدهم أن أحمد حسنين كان يعد العدة فى الخفاء لتأليف وزارة من الشباب لحكم مصر تحت رياسته..

وكان أحمد حسنين هو ومليكه يتوقعان انتصار هتلر، وكان رومَيل عند العلمين.. وكانت مصر فى مهب الريح.. وأحست انجلترا أن الملك يلعب بالنار وأن لا سبيل إلى استقرار الأوضاع إلا بتأليف وزارة شعبية تجرى انتخابات برلمانية وتستقر فى الحكم طوال مدة الحرب.. وكان السفير قد أعد ورقة التنازل عن العرش ليوقعها فاروق إذا رفض هذا المطلب تماما كالورقة التى قدمها له على ماهر ووقعها بعد ذلك التاريخ بعشر سنين.. وحمل السفير مع الورقة ملفا مصورا يحتوى فضائح لفاروق يندى لها الجبين وهدد السفير بنشرها «للملك الصالح» الذى كان قد أطلق لحيته وأدار المسبحة بين أصابعه تضليلا للجماهير

وكان تشكيل النحاس للوزارة انقاذا للموقف كله وبكل أبعاده .. أنقذ البلد وأنقذ العرش.. وأنقذ الملك.. ورضى أن يدفع ثمنا لهذا كله بعض سمعته فيقال عن وزارته أنها «وزارة الدبابات» وقد ظلت هذه التسمية تطارده عشر سنين. حتى لقد قيل أنها كانت على رأس الأسباب التى أغضبت شباب الضباط فقام تشكيلهم لينقذوا البلد من الملك ومن الأحزاب.

الموقف الثانى :

أما الموقف الثانى لأحمد ماهر فقد حدث وهو رئيس للوزارة فى سنة ١٩٤٥.

كانت مصر كلها تغلى ضد انجلترا .. بعد أن نزلت الهزيمة بهتلر.. ولم يبق فى الميدان إلا اليابان.. فى طريقها إلى الهزيمة.

ونادى أحمد ماهر بوجوب اعلان الحرب إلى جانب الحلفاء على الأعداء.

كان الرجل صادق الايمان بصواب رأيه.

والمطلب شكلى لا أكثر لم يكن يعوزه إلا (ورقة التمغة) كما يقولون، وكان هذا الاعلان من جانبنا أقرب إلى خشبة المسرح منه إلى ميدان الحرب.. ولكن فوائده فى تقدير أحمد ماهر كانت كبيرة.

والمطلب (على ما فيه من الربح بغير أية خسارة كما كان يراه أحمد ماهر) كان مثيرا لأعصاب الشعب الذى كان يومها مشحونا بالكراهية للانجليز.

ولكن أحمد ماهر لم يبال بمشاعر الجماهير.

وفى ذلك الجو المشحون بالكراهية فقد أحد الشبان أعصابه.. وتمثلت له الخيانة فى تلك الخطوة.. وكان مجلس النواب يومها يناقش الموقف ويقر الخطوة.. فقد أحد الشبان أعصابه ودخل إلى البهو الفرعونى فى المجلس وتقدم ليصافح رئيس الوزراء ومد الرئيس يده ببراءة إلى الشاب ولكن يد الشاب امتدت فجأة بمسدس وأفرغ رصاصاته فى الرئيس.

حياة كلها موت :

وهكذا بدأ ما بين أحمد ماهر ومحمود فهمى النقراشى بالموت ثائرين تحت راية سعد وانتهى كل منهما إلى الموت.. فى معقله .. ورصاص مسدس.. وبيد شاب من شباب مصر.

ومهما تكن الأخطاء التى تورطا فيها.. فان اثنين لا يختلفان على أن ماهر والنقراشى مصريان ووطنيا وعظيمان.

على ماهـــر

مد الله للرجل فى الأجل.. ولعب فى يوليو سنة ١٩٥٢ على مسرح السياسة أخطر دور لعبه عبقرى سياسى.. فاقنع «مولاه الملك المعظم» بالتنازل عن «العرش المفدى» وبالتوقيع «باسمه الكريم» على وثيقة التنازل المخيفة.. وأوهمه أن طفله .. أحمد فؤاد الثانى .. سيخلفه.. وأن العرش باق فى أسرته أو فى سلالته.. بل أن جلالته شخصيا لابد عائد يوما إلى كرسيه وتاجه.. وإنما هى كرة خاسرة.. تعقبها رجعة.. رابحة..

وأنه -على ماهر- إنما قبل رياسة الوزارة ليجتاز بالعرش هذه العاصفة.. وأنه اختار مجلس وصاية على رأسه الأمير محمد عبد المنعم لتظل راية الملكية خفاقة عالية.. وأن كل ما يطلبه - على ماهر- من «مولاه الملك المعظم» أن يعجل بالرحيل إلى روما مع الطفل الكريم الذي سينادى به ملكا قبل الرحيل.. لصون حياة الوالد والولد، وهما أغلى ما يملك البلد.

وهكذا استطاع على ماهر أن يخلع الفاروق فى جولة واحدة .. وأن تردد جنبات التاريخ أصداء الضربة الماهرة.. وأن يثب الوزير ذو الناب إلى رياسة الوزراء حاكما بأمره باسم الثوار الشبان الجدد.. ليملى على التاريخ بقية أحلام خايلته من صدر شبابه.

أهدافه والخطأ فيها:

كان حلمه الذهبى على مرمى الامتار منه- أو هكذا لاح له- ولكن نظرته اللهفى العجلى إلى المرمى البعيد الذى يرنو إليه- مرمى اجهاض الثورة واستيعابه لها- قد أطارت النوم من عينيه فتبددت أحلامه كلها .. وبكل مراميها القريبةوالبعيدة.

كان يحسن تقدير خطأه.. وكان خطؤه انه لم يكن يحسن تقدير خطى الآخرين.

كان يحسن الظن بذكائه -وذكاؤه فعلا لا ينكر عليه- وكان خطؤه أنه لم يعمل أى حساب لأى ذكاء آخر.. أو لم يدخل فى حسابه أن غيره قد يكون أشطر.

ساء تقدير الرجل .. فلم يوفق فى جنى الثمر.

وتاريخ على ماهر حافل يمثل هذه المعارك.. ذات الاستهلاك البارع الباسم بحسن التمهيد لها وتسديد الضربة والحديد ساخن ويثب إلى النصر وثبة القائد المدرب ويمسك بالدفة.. ويركب الموجة.. ويمخر العباب فى ثقة واعتداد.. فإذا استوى بالسفينة فوق هذا العباب.. نسى أن يرقب الريح.. وترفع عن قراءة البوصلة.. وعن استشارة شيوخ البحار.. فاذا السفينة تجنح .. وإذا السباح العالمى يغرق على مقربة من الشاطئ.

وأيا كان الرأى فى الرجل .. فقد ترك وراءه ماضيا حافلا بالذكاء وبالدهاء وبالكر والفر.. وبالجرأة والوثوب.. وبسمات الأبطال تحت الأضواء.. وبحياة الظلام فى السراديب.. وبكل ما تعنيه كلمة «التناقض» وهكذا استطاع أن يقدم لوطنه «خدمات» لا تنسى.. وأن يسبب له «متاعب» لا تنسى هى الأخرى.. الرجل كان يستجيب لأصوات مبهمة فيه.. كانت تأتيه من داخله لا من خارجه.. تزين له «الفعلة».. فلا يتردد فى أن «يفعلها».. وكل امرىء ميسر لما خلق له.

ولنعد إذن إلى ماضيه.. نحاول أن نسلط الأضواء عليه.. رجاء أن يفيد منها أبناء هذا الجيل..

إن على ماهر كان شيئا كبيرا.. وكان فى وسع طاقاته وقدراته أن تقدم لبلاده خيرا مما قدم.. ولكنه قدره.. أو ولكنها «شخصيته» هو مفتاح هذه الشخصية؟

مفتاح شخصيته :

إن «اللهفة على الطموح إلى الرياسة» كان مفتاح هذه الشخصية.

«الطموح إلى الرياسة» لا «الطموح إلى الزعامة» .. لأن «الزعامة» تعطى و«الرياسة» تأخذ و«الزعامة» تقود وتؤثر .. وتمشى بالجماهير إلى أهداف الجماهير وتقنع الزعامة بحب هذه الجماهير وهتافها بحياتها.. فيزيدها الحب اقداما على الخطر وايثارا للهدف.. ليجنى غيرها الثمر.

أما «الرياسة» فكل هم المستعبد لها أن يبلغها وبأى الوسائل وبكل الحيل.. وبجهود فريق وعلى أشلاء فريق.. وقد يلتوى بالوطن كله عن الطريق المعبد.. قد يكون طالب الرياسة سيىء النية.. بل قد يكون منطويا على الرغبة فى أن يبنى لبلاده ما لا تستطيع الزعامة أن تبنيه لها.. وقد يكون أقدر على البناء من هذه الزعامة ولكن بشرط.. أن يكون رئيسا أولا.. لأن الرياسة هدف له فى ذاتها.. وكل شىء يجىء بعدها.

وعلى ماهر – ان صحت قوانين الوراثة – لابد أن يكون موصول الجذور بداء فى الأسرة.. اسمه «الصدارة».. فأبوه مصطفى باشا ماهر كان فى الصدارة من رجال الدولة وإن لم يترك لنا فى سجل الجهاد سطرا.. وأخوه أحمد ماهر كان يريد دائما أن يقود وقد قاد فعلا وقاد «خلايا» .. وقاد حزبا وقاد حكومة.. وحتى الأخ المغمور نسبيا محمود ماهر– أرضى نفسه عندما قعدت به عن السياسة همته.. بأن أمسى «كبيرا» للأطباء الشرعيين.

من أول الطريق :

إن على ماهر الذكى كان يدرك من صغره أن الطبيعة لم تحبه ببسطة فى الجسم يبتدى بها عملاقا.. ليمشى بها فى طريق العمالقة.. وكان يدرك أن عليه

هو أن يسد هذا النقص وأن يبنى لنفسه عملقة من لون آخر.. بسطة فى العلم وبسطة فى كل شىء يمكن أن تكتسب ولا توهب.

وعلى ماهر الشيخ وهو امتداد طبيعى لعلى ماهر الشاب - كان قصير القامة .. ضامر الجسم.. حديدى البصر.. عابس الوجه.. صارم القسمات سريع الحركة.. دائم التوهج.. بادى الثقة بنفسه .. مجيدا لصبغ شعره.. أنيقا فى زيه.

والقصة من أولها :

كان على ماهر طالبا فى المدرسة الخديوية ولم تكن الدراسة تعنيه بقدر عنايته بتأسيس «جمعية الهلال والنجمة»لتنمية ملكة الخطابة والبحوث عند الطلاب. وليكن «رئيسا» لها - والرياسة هى التى تعنيه هنا وهكذا استهل حياته الدراسيةبالرياسة.

وحاول الطالب أن يكون خطيبا.. ثم أدرك أن الخطابة موهبة لم يرثها.. وإذن فليكن باحثا.. وليبسط رياسته على «البحوث» .. والبحوث تتطلب ذكاء وهو ذكى.. وتتطلب الصبر عليها.. وقد أخذ نفسه بالصبر.. وتتطلب الغوص فى القاع.. وقد درب نفسه على هذا الغوص.. وتتطلب اقناع المدرسين والمشرفين بأن بحثه خير البحوث وقد استطاع أن يقنعهم وأن يؤثر فيهم وأن يعلو عليهم.

كان على ماهر عميد الحقوق ورئيس الديوان ورئيس الوزراء .. امتدادا لا شك فيه لعلى ماهر الطالب.. رئيس الجمعية المدرسية.. بعد أن غزل بيديه خيوطها ونسج بكائه بردتها.. واختار لها اسما يمت بالصلات إلى النجوم والأهلة.. رموز السلطان فى الدولة يومئذ.. ونفسه إذن تهفو إلى ماهو أبعد.

بوادر وبواكير :

نضج الصغير إذن قبل أوانه.

وأبوه باشا.. وذو منصب كبير فى الدولة.. ويملك مالا .. وله نفوذ.. كيف إذن لا يرى ابنه الأكبر.. هذه الدنيا العريضة.. وبين يديه وسائل الرؤية.

واستجاب له أبوه فقام الطالب الصغير برحلات إلى أوروبا.. وهناك هاله أن يرى دنيا غير دنيانا.. ومجتمعات حرة وواعية وحياة رخية وهانئة.. واتسعت الآفاق أمام الفتى.. وملأ كراساته بكل ما وقعت عليه عيناه.. وعاد ثائرا على الأوضاع يدفع فى لهفة بكل ما كتب إلى المطابع.. ويرده أبوه برفق عن هذا الشطط. ويقعنه بتهذيب ما كتب.. حتى يمكن أن يطبع.. وكان هم الفتى فى هذه الخطى على مستوى الأمة أن يقال عنه - ولا تنس المفتاح - انه أول من نادى باصلاح المجتمع.

وهذه النزعة - نزعة المصلح الاجتماعى الأول أو الأكبر - لم تفارقه قط لا فى الشباب ولا فى الرجولة.. ولا فى الكهولة.. ويكفى أن تذكر أنه منشىء وزارة الشئون الاجتماعية .. لتدرك أن النزعة أصيلة فيه وكنها على أصالتها فقدت كل مضمون لها عندما جرفتها نزعة الرياسة في مختلف المراحل مقرونة باللهفة التى تورث العجلة.. واصلاح المجتمع يرفض اللهفة ويتطلب الدراسة المتأنية.

المحاماة وقصة الشكوك :

ولقد اكتشف الكثيرون فى هذا الرجل الكبير - ومن خلال مناصبه الكبيرة - خلة فيه لا تليق به وهى كثرة الشكوك .. كان يشك فى كل شىء وفى كل شخص.. فحرم من الرضى وحرم من الطمأنينة.. وعاش حياة القلق.. وليته كان فنانا.. كلما تحرك جنين القلق فيه أعطانا من فنه وليدا.. ولكنه كان سياسيا يظل فى قلقه حتى يرأس الحكومة أو الديوان.. ويطارده هذا القلق حتى تفلت منه رياسة الحكومة ورياسة الديوان. فما مبعث هذه الشكوك فيه وهو ليس بالفنان ؟ مبعثها اشتغاله بالمحاماة بعد رحلة الطموح من الطفولة إلى الرياسة مقرونة باللهفة.

تخرج على ماهر بامتياز ملحوظ فاشتغل محاميا أمام المحاكم الأهلية والمختلطة وكانت المحاماة أمام القضاء المختلط.. حكرا على الأجانب.. وشق على ماهر طريقه فى المحاماة بقوة وكفاية.

وحدث - والرواية هنا على لسان الدكتور محمود عزمى صديقه والمعجب به - أن محاميا جاءه فى جلسة من الجلسات وأبلغه أن التفاهم تم بين موكليهما اللذين يتكون منهما طرفا الخصومة على التأجيل إلى ما بعد فصل الاجازات ورجا منه أن يتضامن معه فى طلب التأجيل من القاضى فقبل على ماهر الرجاء وتم التأجيل ثم تبين بعد ذلك أن شيئا مما قاله زميله لم يحدث فثار على ماهر واتجه إلى زميله يطلب إليه تعليلا لهذا التصرف فإذا زميله يقول له فى بساطة : «الذنب ذنبك».. لماذا صدقتنى؟.

ولاحظ على ماهر أن بعض زملائه ممن كانوا يخاصمونه فى بعض القضايا.. كانوا يطلبون التأجيل ويمدون أيديهم بأوراق يقولون أنها مستندات تؤيد مطلبهم ويجابون إلى المطلب.. ثم يثبت بعد التأجيل أن هذه الأوراق لم تكن إلا حيلة رخيصة خالية من الأمانة والصدق فتنبه على ماهر على هذا المناخ الذى تعيش فيه العدالة.

وحدث ذات جلسة أن تقدم المحامى الذى يخاصمه بأوراق كهذه يزعم أنها مستندات تؤيد مطلبه فأمسك على ماهر بيد الزميل فإذا الأوراق بيضاء لا شىء فيها ولكن القاضى كان قد خدع ونطق بقرار التأجيل وتمسك به.. فارتفع صوت على ماهر المحامى الشاب .. يجلجل فى القاعة وهو يعلن انسحابه احتجاجا.. «أعجب لمحام يكذب وأعجب لقاض يصادق على الكذب».. فارتاع القاضى ورفع الجلسة ثم أعادها وفتح باب المرافعة فى القضية من جديد عادلا عن قرار التأجيل.

مثل هذه الأحداث لم تكن فردية الوقع على المحامى الشاب كما كان ينبغى أن تكون وإنما أعتقد أنها أخلاق الشعب كله متجسمة فى طائفة من أرق طوائفه.. ووقر فى نفسه أن التحايل أصل فى أخلاق الناس.. ونما هذا الوهم فيه وسيطر عليه فأصبح يتشكك فى كل شىء وفى كل شخص كما قلت حتى لقد عجبت له وهو يرفع بعض أنصاره - المعدودين على أصابع اليد- إلى الدرجات العلا فى أقصر مدى فإذا ما نقل إليه عن بعضهم .. بعض ما يريبه فيهم .. ثار من غير تحقيق أو حقق وهو ثائر وفى لحظات فصار يقذف بهم من شاهق متأثرا بنارية العاطفة لا بعدالة القاضى.

أخلاقياته وتقلباته فى السياسة :

نرى فيه التناقض الصارخ بين الظاهر والباطن .. ونرى القدرات المتباينة فيه يقاتل بعضها بعضا.. وتنتهى بنا إلى الجودة مرة وإلى الرداءة مرات.

وحتى من واقع الأحداث المعروفة.. يحق لك أن تدهش.. وأن نسأل.. ما هى حقيقة هذا الرجل ؟.

نحن أمام شاب تخرج فى الحقوق واشتغل بالمحاماة .. ونبغ فى القانون وأصبح من علمائه وحق علينا توقيره.. وبلغ فى سلمه إلى الذروة فعين ناظرا لمدرسة الحقوق (أى عميدا بلغة العصر ثم توج نبوغه باختياره عضوا فى الوفد المصرى فأصبح من أعلام الثورة من غير أن يثور.. وانفتح أمامه طريق المجد مفروشا بالورود.. فهل انتفع النابغة بها أو جنى شيئا منها؟.

الذى حدث أن سعدا قربه إليه - وأولاه بعض الثقة - فلعب دورا كبيرا فى التوفيق بين سعد وعدلى مما مكن لسعد أن يبدأ مفاوضاته مع ملنر.. ولكن على ماهر لم يلبث أن انضم إلى الأحرار الدستوريين وكان الملك يكرهه بسبب ولائه لسعد.. فخفت الكراهية بسبب انضمامه إلى الأحرار.. ولكن حسن نشأت كان قد أعد العدة للتعاون مع على ماهر ..

وأنشأ نشأت حزبا للقصر الملكى هو «حزب الاتحاد» وكان كل أعضائه.. من لواءات الجيش السابقين والتافهين.. وإذ بعلى ماهر يختار وكيلا لهذا الحزب وفزع عارفوه من هذا الانحدار العجيب من قمة الشعب إلى سفح الملك ..

وعين وزيرا للمعارف فى وزارة زيور (مارس سنة ١٩٢٥ إلى مايو سنة ١٩٢٦) وكان يدرك أنها وزارة من (القش) فأراد أن يثبت وجوده تمهيدا للوثوب فأحدث فى وزارة المعارف ما يشبه الانقلاب وملأ فجاجها مشروعات جريئة ولكنها خطيرة أو غير ناضجة..

ولم تلبث الوزارة أن هزمت أمام الائتلاف فترك سياسة السطح إلى سياسة السراديب.. وعنى بتنمية ثروته كثمار لولائه فعين ناظرا على دائرة سيف الدين وناظرا على دائرة الأمير محمد على إبراهيم وعضوا لمجلس إدارة البنك الأهلى (ويستوقف النظر أن أخاه أحمد ماهر عين فيما بعد ناظرا على دائرة الأمير حليم).

وفجأة نجد على ماهر وزيرا للمالية فى يونيو سنة ١٩٢٨ (وزارة محمد محمود أو اليد الحديدية.. وزارة الرجل الذى انضم إليه ثم تخلى عنه وأثر حزب الاتحاد على حزبه.. ثم جرت الانتخابات الحرة على يد عدلى يكن سنة ١٩٢٩ وكان على ماهر قد أصبح فى ميزان الشعب جيفة تعاف.. فرشح على ماهر نفسه فأنزل به الناخبون هزيمة قاسية وأقيلت وزارة الوفد وولى الحكم صدقى فعين على ماهر وزيرا للحقانية (العدل) فى الوزارة الصدقية..

وكان صدقى يعرف أن على ماهر رجل دساس وبطل انتهازى.. فلم يجل بخاطره أن خلافا بينهما يمكن أن يقع تحت الأهواء ولكن على ماهر سدد ضربة شعبية لرئيسه رجاء أن يسترد بعض مجده القديم .. لا حبا فى ذلك المجد.. بل رصيد لمستقبل آت.. لرياسة فاتته وما يزال يصبو إليها ..

وكانت استقالته المدوية احتجاجا على تعذيب رجال البوليس والمباحث لأفراد الشعب الأبرياء.. وفزع الملك فؤاد لتصرفات وزير كان يكرهه ثم ضمه إليه وأخاه ثم أغدق عليه واستوزره فى كل حزب.. ثم جاء الآن يطعن نظاما كان الملك قد أقامه للقضاء على الوفد..

وجاءت وزارة عبد الفتاح يحيى باشا فعرض عليه منصب وزارى فيها لاسترداده ولكنه أدرك أن السفينة كلها - سفينة النظام الصدقى الملفق - أخذت تغرق فلم يشأ أن يكون بحارا فى سفينة تغرق.. فعرض عليه الملك منصب رئيس الديوان .. فاشترط أن يطرد الابراشى من القصر حتى يدخل هو..

ولكنه لاحظ أن الملك فؤاد يريد أن يتخلص من توفيق نسيم فى سنة ١٩٣٥ فتقرب إلى الملك من جديد فعينه رئيسا للديوان ليتخلص من نسيم.. وكان الشباب قد ثار والملك قد مرض.. وأصبح لزاما أن تقوم الجبهة الوطنية وأن يتمسك النحاس باجراء انتخابات حرة.. وصح ما توقعه وكلف على ماهر باجرائها وعين رئيسا للوزارة فى ٣٠ يناير سنة ١٩٣٦ وكان يعد العدة للبقاء فى الحكم برغم أغلبية الوفديين ولكن الأحداث حرمته فاستقال مكرها فى ٩ يناير سنة ١٩٣٦ بعد أن ملأ أيامه المائة بمشروعات لا يقوم بها إلا وزير مخلد.

من هذا العرض ترى نفسك أمام الحرباء كل يوم هى فى لون .. وبين أى لحظتين تخلع عنها ثوبا لتلبس ثوبا.. بدأ بالوفد المصرى .. عضوا فيه وخرج على سعد وانضم إلى الأحرار. وخرج على محمد محمود وانضم إلى حزب الاتحاد وأصبح وكيلا له بل رئيسا فعليا ثم انضم إلى وزارة زيور زميلا لصدقى، ثم عاد إلى محمد محمود عضوا فى وزارته، ثم رضى أن يكون عضوا فى وزارة صدقى ثم سدد إليه طعنة وترك السفينة فى مهب الريح إلى رياسة الديوان ورياسة الوزارة فى عام ..

وكان وطنيا متطرفا أيام سعد .. وكان وطنيا متطرفا فى استقالته من وزارة صدقى .. وكان صغيرا صغيرا فى انضمامه لحزب الملك.. وكان عدوا للملك وقريبا منه وأثيرا عنده.. وكان قادرا عبر كل تلك الأحداث على القيام بكل تلك الأدوار.. وكأنه ممثل قادر على القيام بأدوار الملاك وأدوار الصعاليك أو أدوار الأبطال وأدوار الأنذال.

مثل هذا الرجل لا يقال عنه أنه صاحب مبدأ أو صاحب رأى .. أو صاحب خط يلتزمه.. وإنما يقال عنه أنه صاحب هدف يسترخص فى سبيل إدراكه كل القيم.

بل أن هناك ما هو أخطر.. كان ينضم إلى الوزارة عضوا فيها - والعضوية ليست هدفه - على أساس أن يعمل لاسقاطها رجاء أن يخلفها بوزارة يشكلها.. وظل ينجح فى الدس للوزارات واسقاطها، ولكنه لم ينجح فى أن يكون رئيسا إلا فى سنة ١٩٣٦ بحجة اجراء انتخابات تمهد للمعاهدة (وبنية البقاء فى الحكم) ولم ينجح فى البقاء والمعروف أن على ماهر هو الذي اسقط وزارة اليد الحديدية فى سنة ١٩٢٨ وهو الذى أضعف وزارة صدقى ودس لها حتى ذهبت.. وهو الذى أشار بعبد الفتاح يحيى ليجلو كما جاء فى أقصر مدى.. وهو الذى أسقط وزارة نسيم ليخلفها.

وتنبه الوفد :

وتنبه الوفد على الطرائق الماهرية فى وزارة الأيام المائة .. وقرر ألا يقع فى حبائله مرة أخرى.

ولكن على ماهر كان قد بدأ يتقرب بطرائقه إلى الملك الشاب فاروق الأول.. واتخذ منه الملك مستشارا خاصا من غير أى منصب رسمى يشغله.. وتاق الملك ليعينه رئيسا لديوانه ولكن النحاس عارض هذا التعيين بشدة فسكت الملك..

ولكن علي ماهر عاد يشجع الملك ليسدد بتعيينه ضربة إلى حكم الوفد فأقدم الملك على هذا التعيين فى اكتوبر سنة ١٩٣٧.

وثار النحاس فانتهز على ماهر هذه الفرصة وأوغر صدر الملك الشاب. وبدأ العداء بين الملك والوزراء ينتقل إلى رجل الشارع - وجرت أحداث فردية من جانب الشعب تأييدا للوفد ساعدت على ماهر على أن يبلغ أهدافه.

وأقيلت وزارة الوفد فى آخر يوم من تلك السنة أى بعد تعيين على ماهر رئيسا للديوان بشهرين وعشرة أيام ولكن الذى خلف النحاس لم يكن على ماهر.. وإنما كان محمد محمود ليجيء بمجلس مزيف قائم على الأحزاب التى تخاصم الوفد.

دور مضـاد :

كان لزاما أن تسقط وزارة محمد محمود.

ولكن سقوطها لاح يومها بعيدا لأنها جاءت بمجلسها النيابى المزيف. وتعاونت مع خصوم الوفد.. واستتب لها الحكم.. ولكن على ماهر بقدرة خارقة استطاع أن يتصل بالنحاس وأن ينسب أخطاء الماضى إلى غيره وأن يكتسب وده وأن يعاهده.. كرئيس للديوان - أن يرد إلى الزعامة حقوق شعبها واطمأن إليه النحاس وبقدرة خارقة استطاع على ماهر أن يقنع الفاروق بأن الوقت قد حان لتقوم فى مصر وزارة للقصر.. خطها السياسى هو خطه.. وأهدافها تستمد من أهدافه.

أحس محمد محمود بالدور الذى يلعبه على ماهر لحساب الملك والوفد فغضب واعتكف فى (وندسور) وصحت فيه الكبرياء فضرب بعرض الحائط كل التقاليد التى تربط بينه وبين القصر.. فرأى على ماهر أن تسديد الضربة إلي الرجل المتكبر وهو ينتظر الترضية فرصة للتخلص منه عن طريق الكبرياء..

فأوعز إلى سعيد ذو الفقار كبير الأمناء أن يزوره في الفندق كصديق يسأل عن الصحة ويلعب معه النرد كالعادة.. ثم يتسلل إليه ببعض الأسئلة المثيرة.

وأدى كبير الأمناء دوره بأمانة فكف محمد محمود عن اللعب.. وقال له : «سيأتيك جوابى على أسئلتك فور عودتك إلى القصر» وما كاد ذو الفقار يصل إلى مكتبه حتى تلقى استقالة محمد محمود موجهة إلى الملك عن طريقه لا عن طريق رئيس الديوان كما تقضى التقاليد . وكانت استقالته هى كل المطلوب.

وأن لعلى ماهر أن يحكم مرة أخرى .. وأن يستقر فى الحكم فى هذه المرة.. وهذه هى أحلامه.. وأدار الرجل ظهره للوفد بعد أن وعد النحاس باعادته إلى الحكم.. وكان على ماهر قادرا على إدارة الظهر لأى رجل ولأى حدث.

لم يحسب أى حساب للوفد.. ولكن فاته أن يحسب حسابا للقدر.

هدية القدر :

كان على ماهر يغدر بالزعيمين فى وقت واحد.. بمحمد محمود ومصطفى النحاس وكان القدر قد أدخر له المفاجأة الكبرى.. بعد ثلاثة أيام من توليه الحكم.. ووفود المنافقين من المهنئين يملأون دار الرياسة.. وأكواب الشربات تدار عليهم.. بعد ثلاثة أيام فقط وعلى وجه التحديد يوم ٣ سبتمبر سنة ١٩٣٩ أعلنت الحرب العالمية الثانية.

ووجم على ماهر للمفاجأة .. وأطبق شفتيه.. وزوى ما بين حاجبيه.. وانتصب الطربوش الأحمر القانى فوق شعره الأسود المصبوغ .. انتصابة النمر إذا هوجم.. واستجمع الرجل شجاعته - وكان يملك فعلا لونا خاصا به من ألوان الشجاعة - وصحت فيه كل مواهبه وقدراته .. وصحت فيه غريزة المقاتل الشرس.. ووقف عند هذا المفترق يترقب ويتحفز.. بعد أن أصبح أول حاكم عسكرى للبلد.. وبعد أن حسب أن كل السلطات مطويات بيمينه..

وكان قد اختار لمعظم المناصب الوزارية ثوارا قدامى.. يملأون الفراغ الذى يمكن أن يهاجم منه ويوهم الجماهير أنه أشد تطرفا فى معاداة الانجليز من الوفد. وكان من بينهم مصطفى الشوربجى الذي احتفظ بالثورية الكلامية هدارة برغم الشيخوخة.. وعين وزيرا للحقانية.. ومنهم عزيز المصرى وعين رئيسا لأركان حرب الجيش المصرى ورأى أن يتمسك فى سياسته بنصوص المعاهدة بينه وبين الانجليز.

وهال هذا التشكيل انجلترا بعد أن دخلت الحرب.. وشاع فى كل مكان أن على ماهر مؤمن بانتصار هتلر.. ولم يكن الرجل يخفي إعجابه بالزعيم النازى.. بل شاع أن على ماهر أقنع الملك الشاب بأن يلعب على الورقة الرابحة.. وأن الدم الايطالى الذى يجرى فى عروق فؤاد الذى سلف وفاروق الذى خلف.. عاون على اقناع الملك الشاب.

وكان المطلوب من أية وزارة مصرية أن تكون حليفة لانجلترا فى حربها ضد النازية والفاشية فبدأت تطلب إلى على ماهر أن يفرض الرقابة على الصحف فاستجاب لها ولكنه عين صديقه محمود عزمى مديرا لهذه الرقابة وأعلن أن الرقابة على يد على ماهر غير الرقابة التى تريدها انجلترا..

ولكن التعليمات الصارمة بدأت تنصب على رأس الرقيب من القيادة العليا انصبابا حمل عزمى على الاستقالة وتوالت الأحداث وأبلغت انجلترا الملك بعد انهيار فرنسا ودخول ايطاليا الحرب أن التعاون مع على ماهر لم يعد ممكنا. ورضى الملك مكرها على ابعاد على ماهر فقدم استقالته فى ١٣ يونيو سنة ١٩٤٠.

أحلام على ماهر قد تبددت.. وأرغم علي الاستقالة.. فاستقال وفى يقينه أنه قيد اسمه فى دفتر تشريفات الشعب.. وأن عليه أن يحتفظ بهذه البطولة عن طريق الشغب البرلمانى تحت القبة تحميه الحصانة البرلمانية.. فاذا انتصر هتلر

فالمستقبل واضح.. وإذا ضعف الانجليز واحتاجوا إليه وثب إلى الحكم مرة أخرى.. وإن طال المدى .. فاحتراف الشغب البرلمانى مهمة هينة.. ثم عليه أن يثير الجمعيات المتطرفة فى الوطنية والجمعيات الإسلامية ضد بريطانيا.. ولكنه لم يكن رجل ذلك الميدان.

على ماهر فى المعتقل:

وساء تقديره أيضا فى هذه المرة.. وأمر بالا يغادر «القصر الأخضر» بيته الريفى وفى تسميته «بالقصر» معنى يشير إلى نزعته.

وفى وزارة حسين سرى .. تسلل إلى مجلس الشيوخ ليمارس حقوقه كعضو فيه تحميه الحصانة واستطاع أن يضلل المباحث والبوليس ويصل فعلا إلى حرم المجلس ويظهر فى القاعة فجأة.. ووضع الشيوخ أيديهم على قلوبهم.

وكانت أزمة دستورية اهتز خلالها شارب الرئيس المداور محمد محمود خليل.. وكان الحصار مضروبا على مجلس الشيوخ.. ورجال الضبط والربط.. والمباحث والمخابرات يملأون فجاج الحديقة المحيطة بالمجلس.. وعلى ماهر فى ثورة عارمة يتمسك فى شجاعة بالحصانة البرلمانية.. ولم ينقذ الموقف غير تدخل شقيقه أحمد ماهر الذى أخذ من المسئولين كلمة.. بتأمين أخيه على أن يعود إلى «القصر الأخضر» حرا.. وهو يعلم أنه إن عاد إلى «القصر».. فلن يسمح له بمغادرته.

وسحبت القوات .. وصين فى الظاهر استقلال البرلمان.. وكانت البراعة يومها فى صون الشكل سليما.. ولا أهمية للموضوع. وقصته بعد تلك الأحداث معروفة.

لقد اعتقل .. وظل طوال حكم الوفد ينتقل بين المعتقلات حتى انتهى إلى قصر قوت القلوب فى العياط حتى اقيلت وزارة الوفد فى ٨ اكتوبر سنة ١٩٤٤ وولى الحكم شقيقه أحمد ماهر فأعاد الحرية إلى شقيقه.

ولكن قدرات لا شك فيها عبر ذلك الكفاح تجلت لنا من خلاله:. قدرة الرجل على اصطناع المواقف الوطنية أو الثورية واندفاعه فيها إلى الصدر أو إلى القبر.. وقدرته على التراجع عند وقوفه على حافة القبر.. ثم قدرته – وهو شيخ– على ممارسة الأساليب الثورية والتخفى والهروب والتسلل .. تماما كأخيه أحمد مع الفارق فى الهدف .. فأحمد كان يمارس تلك الأساليب على مستوى الوطن.. كاسهامه فى إرهاب الانجليز أو اغتيالهم.. أما على ماهر فعلى مستوى شخصه ومجده ومطامعه.. ولعل رحلته إلى السودان وهو رئيس للوزراء .. يضرم نار الثورة فى الشعب السودانى ضد المستعمر.. لعل هذه الرحلة تصور قدرته على اصطناع المواقف الوطنية أو الثورية وما أسهل الاعتذار عنها بكلمة رقيقة أو بحركة مضادة.

مجمل الرأى فيه :

كان ضحية اللهفة أو العجلة فى تحقيق أهدافه.. وهى ترجمة أمينة لمفتاح شخصيته «اللهفة فى الطموح إلى الرياسة».

وكل نجاح أصابه أو فشل تورط فيه.. إنما كان بسبب الأدوات التى استخدمها لتحقيق هذا الطموح.. أو بسبب سبيل سلكه وكان الخطأ فى اختيار السبيل.. أو بسبب هوى فى نفسه زين له هذه الأدوات أو ذلك السبيل.. وعيبه الجذرى أنه كان دائما .. «يتبع هواه».

لقد قيل – وتواتر القول – أن الرجل كان يحب الجمال.. وكان يحب الحسان وكان يفعل الممكن والمستحيل.. فى هذا السبيل.. ولكنه كان حريصا دائما على ألا يعرف عنه هذا الضعف، وكان حريصا أن يظل بادى الكبرياء وعلى أن يظل موفور الوقار.. ولعل طموح الرجل إلى الرياسة يستهدف – فيما يستهدف على الأقل – اشباع الشهوات .. والرياسة دائما أقصر طريق لاشباع الشهوة –.

كان الرجل حريصا على الأناقة.. حرصا يستنفد منه الجهد والوقت.. ومن ألوان هذا الحرص.. إن حرصه على الأناقة قد يكون نابعا من رغبته فى أن يضيف بها بعدا من أبعاد الاكتمال بعد أن حرمته الطبيعة من البسطة فى الجسم والروعة فى التكوين.

ضل السبيل :

إن على ماهر كان يستطيع أن يكون خيرا مما كان لو لم يختر سبيله بما يطابق هواه .. لقد كانت مواهبه وقدراته فى حاجة إلى حزب كبير يفيد منها ويتفاعل معها.. وإلى صحافة راشدة أو بارعة تجلو أبعاد هذه المواهب وتنشر على طريق الجماهير ظلالها .. وإلى أنصار يؤمنون بها ويبشرون بصدقها .. ولكن الرجل لم يفعل شيئا من هذا كله.. لقد قضى العمر رئيسا بغير مرؤوسين.. وزعيما بغير حزب.. وشيخا بغير مريدين..

وكان يحب أن يستقطب بعض الصحفيين.. وينتقى منهم بعض القادرين.. ويسخو عليهم.. وهو سلوك ساذج.. ينتهى بانتهاء السخاء خلال الحكم.. صحيح أنه لوح للصحافة بحبه لها ورغبته فى النهوض بها .. وفى قيام نقابة لها معترف من الدولة بها.. ولكن حتى هذه المحاولة لم يعجل بها - وهو العجول- وتريث فيها حتى اختطف الأضواء منه حسين سرى فحققها.

ولعل قصته مع الصحفى الكبير صاحب المجلة التى باعها بعدئذ لإحدى الدور الصحفية تثبت سذاجة السبيل الذى سلكه على ماهر مع الصحفيين.. فقد قدر أن تقريبه كسب كبير فقربه واصطفاه.. وأغدق عليه.. وذات يوم سأله عن الحال.. فأشار الصحفى بلباقة إلى ضيق مالى خانق يمر به.. فأرسل على ماهر إليه فى نفس اليوم (مظروفا) به عشرة آلاف من الجنيهات.. مع مدير الأمن العام.. (مع تحية الرئيس)..

وفى نفس اليوم - أو الذى يليه - استقالت وزارة على ماهر.. فما كان من الصحفى الكبير- وكانت افتتاحية العدد تسبيحا بعلى ماهر- ما كان من الصحفى إلا أن أوقف طبع (الملزمة الأولى) التى تتصدرها (الافتتاحية).. وكتب مقالا جديدا ضمنه فضيحة عائلية - أو هكذا أسماها- عن خلاف بين على ماهر والسيدة حرمه..

وكانت هذه هى حصيلة الاختيار غير الموفق.. أو حصيلة السبيل الساذج ان صحت هذه الواقعة.

وعلى ماهر البرلمانى:

«كان رئيسا للوزراء وأول حاكم عسكرى فى مصر وأعنف خصم للمعارضة الوفدية فكانت له مواقف لا تنسى من المغفور له الأستاذ يوسف الجندى زعيم المعارضة دلت على أن الرجل يجيد التكتيك البرلمانى فحين لاحظ أن المغفور له الأستاذ الجندى كان من قوة الحملات بحيث إذا تركت له حرية شنها غدا خطرا على أى خصم سياسى وأن عظمة يوسف كبرلمانى كانت تقوم قبل كل شيء على سيادته على أعصابه على ماهر فكر فى أن يفقد زعيم المعارضة هذه السيادة.. فكان يلجأ إلى مقاطعته دائما غير مبال بنصوص اللائحة ولا رجاء الرياسة.

وكانت المقاطعات أدنى إلى الثورة منها إلى الحجة، فما يكاد يوسف يسوق عبارة حتى يهب على ماهر صارخا فيه ومتهجما على المعارضة بعبارات تثير يوسف وتقطع عليه سلسلة تفكيره حتى لقد ضاق يوسف بالمقاطعات ذرعا فجلس مرة خلف المنبر معلنا أنه لم يعد يستطيع الكلام إزاء هذه الطريقة..

وبعد جهد استطاع الرئيس أن يأخذ موثقا على «على ماهر» بعدم المقاطعة وبدأ يوسف من جديد فلما قارب التوفيق هب على ماهر باشا يمارس

المقاطعة ويبدأ يوسف من جديد فلما قارب التوفيق هب على ماهر مرة أخرى فأطار من يوسف ما كان قد أعده لكسب المعركة.

«وعلى ماهر ليس خطيبا ولا يحسن الارتجال مطلقا إلا إذا تكلم باللغة الدارجة وكان ثائرا .. فانه حينئذ يتدفق كالسيل ويهدر هديرا غير مراع مسئوليته كحاكم فإذا ثار معه وزير حقانيته يومئذ مصطفى الشوربجى بك فحدث ولا تخف من مواقف تعيد إلى الأذهان مواقف آخر حدثنا عنها تاريخ الثورة الفرنسية بل حتى يخيل إليك أن الجلسة لا يمكن أن تنقضى بغير ضحايا وصرعى.

«أما حين دخل القاعة شيخا –بعد استقالته من الوزارة– فقد حرص على أن يدخل صامتا وإن كان صمته يجاوز الكلام بلاغة فكان لا يدخل الا حين يعرف أن الأنظار متطلعة إليه وأن الأنصار حافون من حواليه.. آنئذ كان على ماهر يقصد إلى آخر الصفوف فى مشية الزعيم المعتد أو السيد الواثق فإذا أخذ مكانه بين الأنصار وأخذ يصغى إلى أحدهم أو يرد على أحدهم تعمد إيماءات وحركات لافتة للأنظار وحافظة عليه ما يريد لنفسه من هالة وهيبة ووقار». تاريخ حافل بالمعارك.. وحافل ،الدهاء .. وحافل بالوثوب.. وحافل.. بالتناقضات .. وحافل بالانتصارات .. وحافل بالهزائم.

ومضى الرجل إلى التاريخ .. ليدخله من الباب الذى ارادته الأقدار.. لا من الباب الذى أراده لنفسه.. ولا من الباب الذى كان ينبغى له أن يدخل منه.

رحم الله الرجل الكبير الذى كان فى الأغلب الأعم يصيب فى البدايات ويخطىء عند الخواتيم !.

طه حسين

الحلم الذى تحقق

كان «طه» يسير وحيداً على حافة الترعة فى طريقه إلى كتاب القرية حيث يتعلم كل الأطفال الذين فى سنه ويحفظون القرآن.

ولكن «طه» كان مختلفاً عن بقية الأطفال.. كان أكثر منهم ذكاء. وذاكرته قوية. ولسانه طليق.. ولكن كان هناك شيء ينقصه عن كل هؤلاء الأطفال .. كان أعمى.

فى هذا اليوم كان «طه» سعيداً فوق العادة. وبرغم أن أخاه الأكبر تعود أن يوصله كل يوم إلى الكتاب إلا أن «طه» أصر أن يذهب وحده اليوم. «طه» يعرف طريقه باللمس.. وبالشم. وبالسمع. أيضا. يحفظ موقع كل حفرة. ومكان كل حجر. ويشم رائحة الماء.. وراءحة الحقول.. ورائحة البيوت.. ويسمع أصوات الريح.. والطيور.. والناس ومن كل هذا يعرف أين هو.. وإلى أين يتجه.

ولكن .. لماذا كان «طه» سعيداً فى هذا اليوم بالذات ؟

لقد أتم حفظ القرآن الكريم كله. سورة سورة . وآيه آية. من أول صفحة حتى آخر صفحة. ويستطيع الآن.. أن يتذكر موضع أى آية من الآيات.. ويتلوها تلاوة سليمة.. بل وبصوت جميل منغم أيضا.

والآن.. ما أن يصل طه إلى الكتاب حتى يجلس أمام سيدنا الشيخ ويقول له إنه مستعد للامتحان. وسوف يحاول سيدنا أن يحاوره سيجعله يتلو آيات من أول الكتاب .. وآيات من آخره. سوف يحاول أن يجعله يقرأ البدايات الأولى لكل السور.. ولكن مهما فعل «سيدنا» فإن «طه» يحفظ القرآن جيداً.. ولن يجد سيدنا مفرا من أن يجعله «عريفا» أى رئيسا لكل الأطفال فى الكتاب.. وسوف يزف البشرى إلى أبيه ويقول له :

- أبشر ياعم حسين .. ابنك «طه» قد حفظ القرآن.. لقد حمل نور الله فى صدره.. مبروك.

وتخيل «طه» وجه أبيه وهو يتهلل من الفرح وهو يشعر بالفخر لأن «طه» قد رفع رأسه عالياً وسط البلد كلها.

وصل «طه» إلى الكتاب.. سمع صياح الأطفال وصوت سيدنا وهو يأمرهم بالسكوت.. ودخل «طه» كان يعرف المكان الذى يجلس فيه سيدنا .. سار حتى وقف أمامه وقبل أن يخبره أنه مستعد لأداء الامتحان فوجىء بصوت الشيخ وهو يقول له :

- هيه «يا طه» .. هل أحضرت النقود؟.

وفوجىء «طه» بالسؤال. ولابد أن علامات الحيرة بدت واضحة على وجهه فقد قال سيدنا فى غلظة :

- طبعا.. واضح من وجهك أن أباك لم يرسل معك قرشا واحداً. هكذا الحال منذ شهرين كاملين.. شهرين «ياطه» دون أن يدفع أبوك ثمن تعليمك. فى الكتاب وأجرة تحفيظك للقرآن.

وارتبك «طه».. ولم يدر ماذا يقول .. فهو لم يحمل أبداً نقوداً للشيخ. كان أبوه يقابل سيدنا فى البلد ولابد أنه كان يعطيه أجره فى هذه الأثناء.. ولكنه الآن لا يدرى ماذا حدث.. قال فى ارتباك :

- أنا ياسيدنا.. أنا .. جئت لكى أخبرك إننى أتممت حفظ القرآن.

ولكن الشيخ بدلا من أن يهدأ ازدادت ثورة غضبه. وأخذ يصيح :

- ماذا .. أتممت القرآن.. هذا ما كان ينقصنى.. أتممت القرآن ياسيدى.. هيه.. يعنى بالعربى أنا انتهت مهمتى قبل أن أقبض الثمن.. هه. تريد

أن تصبح عريفا للكتاب وأشهر غلام فى القرية وأنا لم أقبض منكم مليما «ياطه» .. اتق الله «يا طه».

قال «طه» فى توسل :

- يا سيدنا أنا لا أفهم فى أمر النقود.. أنت دائما تدبر أمورك مع أبى.. كل ما أريده فقط هو أن تمتحنى فى حفظ القرآن حتى أتأكد من حفظى له.

ولكن سيدنا واصل الصياح :

- كلا.. كلا «ياطه» .. لن أجرى لك الامتحان.. ولن تصير عريفاً . لن يحدث ذلك قبل أن يدفع أبوك لى أجرى.. هيا.. اذهب من أمامى.

وسار «طه» مبتعداً من أمام الشيخ .. ومن الكتاب كله.. كان الأطفال كلهم يحدقون فيما يجرى وقد كفوا عن الضجة واللعب. وسار «طه» حزينا.. كسير القلب. ذهبت كل أحلامه.. رفضها سيدنا بدون أى تفاهم.. ضاعت الليالى التى سهر فيها يراجع السور.. آية.. آية.. كان أبوه يقول له دائما إنه إذا نجح في حفظ القرآن فسوف يقيم له احتفالا يحضره كل أهل البلد.. والآن.. من الذى سيصدق أنه حفظ القرآن..؟

عاد «طه» من الطريق نفسه. على حافة الترعة دون أن يشم شيئاً.. سار بين الحقول وتحت الأشجار دون أن يسمع شيئا.. لم يكن يحس فقط. إلا بالهزيمة. حتى أنه شعر أنه إذا سئل مرة أخرى عن آيات القرآن فلن يستطيع الإجابة.

وصل إلى البيت فاستقبلته أمه بدهشة :

- ماذا بك « ياطه» .. لماذا عدت من الكتاب مبكراً يا ولدى.

قال «طه» باختصار وهو يتجه إلى الغرفة التى ينام بها.

- إننى مريض.

وسارت الأم خلفه.. قاست درجة حرارته. ووضعت يدها على صدره ولكنه طلب منها أن تتركه وحده.. وتركته الأم ولكنها ظلت تروح وتجىء أمام الحجرة فى قلق حتى عاد أبوه.. وعدنما أخبرته بما حدث اتجه على الفور إلى حيث يجلس «طه» منزويا فى الركن.. ولم يحتمل «طه» فانفجر فى البكاء حين سأله أبوه عما حدث وقص عليه ما فعله الشيخ به.. وكيف صاح به وسط زملائه.. وأخذ الأب يربت عليه ويهدئه.. وقال :

- سيدنا مخطئ «يا طه».. لم يكن يجب أن يعاملك بهذه الطريقة وأنت حافظ كتاب الله.. إيه.. ماذا أقول لك.. موسم القطن هذا العام كان خاسراً.. والقرية كلها تعانى من هذه الضائقة.. وسيدنا أول من يعلم ذلك.. على العموم سوف يعوضها الله.. وسوف أدفع لسيدنا حسابه كاملا.. أما أنت فقد عملت ما عليك.. المهم أن القرآن دخل صدرك.. إنه نور «يا طه».. نور لن يغادر قلبك أبداً.. هيا .. انهض.. وشم الهواء خارج المنزل.. وسوف أذهب أنا لمقابلة سيدنا.

وخففت هذه الكلمات من أحزان «طه» . وخرج إلى الفناء الخارجى أمام البيت وهناك فوجىء أن هناك زواراً له.. إنهم زملاؤه فى الكتاب جاءوا للسؤال عنه.. وجلس طه.. وجلسوا حوله.. وأخذوا يضحكون معه. ويقلدون سيدنا بصوته الأجش.. وبحركاته. وفجأة قال واحد منهم :

- ولماذا يكون سيدا فقط هو الحكم على حفظك للقرآن.. إن كل واحد منا يحفظ جزءا من القرآن حفظا جيداً وسوف نقوم نحن بامتحانك كل واحد فى الجزء الذي يحفظه.. كلنا جميعا سوف نمتحنك.. هيا.

وصاح بقية الأطفال يشجعون «طه» :

- أجل .. فكرة رائعة.. هيا.. هيا يا«طه».

وتردد «طه» قليلا ثم اقتنع بالفكرة. وبدأ يتلو القرآن بصوت جميل عذب. وتعالت أصوات الاستحسان من الزملاء. ثم بدأ يسمع أصوات أناس آخرين.. كان هناك صوت أمه.. وأخته.. وأخيه الأكبر.. ثم بعد ذلك بدأ يسمع أصوات أناس من القرية.. أحس كأن الساحة كلها قد امتلأت بالناس.. وهم يرددون أصوات الاستحسان خلف كل آية يتلوها. كل أهل القرية قد التفوا حوله.. كلهم يقيمون له الامتحان بعد أن جذبهم صوته الجميل.. هذا هو الامتحان الحقيقى.. وأوشكت الدموع أن تظفر من عينيه وهو يسمع أصواتهم تعلو :

– الله يا شيخ «طه» الله .. الله ينور عليك.

ولم ينس الطفل «طه حسين» هذا اليوم أبداً.. لم ينس مقدار الحزن والفرح. والشقاء والسعادة.. لقد تعلم منذ هذا اليوم طعم الأحلام الجميلة.. وغادر قريته ليواصل تعليمه فى القاهرة. بين أروقة الأزهر.. ثم سافر إلى باريس حيث نال أعلى الشهادات العلمية. ولم ينس هذا اليوم.. وألف العديد من الكتب الهامة. وأصبح عميداً للآداب العربى .. ولم ينس هذا اليوم حتى أصبح وزيراً للتعليم فى مصر واستطاع أن يحقق حلمه أخيراً.. لقد جعل التعليم مجاناً.. من حق كل الناس مثل الماء والهواء.. وكان يقول دائماً.. إن التعليم هو الخطوة الأولى نحو الحرية.

جمال عبد النا صر

من الذى يعشق الفقراء ؟

الفتاة الصغيرة التى تبيع «السكر النبات» واقفة على رأس الشارع. رآها «جمال» كما تعود أن يراها كل يوم وهو فى طريقه إلى المدرسة. واقفة برغم البرد الشديد.. وجهها شاحب. وثيابها ممزقة. ولم يكن أمام «جمال» إلا أن يتقدم ويخرج كل ما فى جيبه من قروش صغيرة ويعطيها لها. ثم يمضي مسرعاً. أخذت الفتاة تنادى عليه لكى يأخذ ما يقابلها ولكنه واصل سيره للمدرسة.

كانت مدرسته هى «مدرسة النحاسين» فى ذلك الحى القديم الذي يجمع الصناع المهرة. فقراء ولكنهم طيبين. كان «جمال» يحس بينهم أنه وسط أهله خاصة وأنه كان يعيش بعيداً عن أبيه وأمه. كان الأب يعمل موزعا للبريد. ينتقل فى كل فترة إلى بلد جديد. حتى أن «جمال» ولد فى الاسكندرية. ونشأ فى أسيوط وعندما بلغ الثامنة كان عليه أن يستقر فى مكان واحد يكمل فيه تعليمه. لذلك أرسله الأب إلى القاهرة ليعيش مع عمه «خليل» ويلتحق بالمدرسة.

سار «جمال» وسط شوارع الحى القديم المليء بالآثار الإسلامية. مساجد وقصور وخانات. تتناثر بينها دكاكين الحرفيين والصناع. وكان «جمال» يسأل نفسه دائماً.. لماذا يعيش هؤلاء الناس الذين يملكون كل هذا التاريخ وسط هذا الفقر؟.

كان «جمال» قد ذهب مع عمه خليل إلى الأحياء الأخرى من المدينة.. شاهد الأحياء الفاخرة.. وقصور الملك.. وثكنات جيش الاحتلال البريطانى.. وأدرك أن هؤلاء الفقراء برغم أنهم أصحاب البلد الحقيقيين هم غرباء فى بلدهم.. غرباء مثله تماماً

عندما وصل «جمال» إلى المدرسة شاهد الناظر الإنجليزى واقفاً فى مكان عال. كان وجهه أحمر من شدة الغضب وهو يتأمل صفوف التلاميذ ويصيح

– مظاهرات نو.. مفهوم.. مسيرات .. نو.. مفهوم.

ثم اتجه كل الطلبة إلى الفصول وسأل «جمال» أحد زملائه :

– ماذا حدث..؟

قال الطالب فى همس : طلاب المدارس الثانوية خرجوا في مظاهرة للمطالبة بجلاء الإنجليز والناظر خائف من أن تفعل مدرستنا مثلهم.

وتمنى «جمال» أن يكون فى المدرسة الثانوية حتى يخرج معهم.

كانت الحصة الأولى فى التاريخ .. و«جمال» يعشق التاريخ. ويحب محمود أفندى مدرس هذه المادة.. وعندما دخل المدرس وكتب على السبورة بالخط العريض «صلاح الدين الأيوبى» أحس «جمال» بالسعادة لأنه قرأ هذا الدرس فى المنزل.. ولكن شرح محمود أفندى كان مختلفاً تماما عن كلمات الكتاب الباردة.. كان «صلاح الدين» على لسانه فارساً ينبض بالحياة.. يصيح بصيحة الجهاد فتتجمع الجيوش من خلفه من كل بلاد العرب ثم يخرج لمواجهة الصليبيين..

يرسم الخطط ويسير الجيوش ويقتحم القلاع ويحرر مدن فلسطين مدينة وراء أخرى حتى يدخل القدس فتدق الأجراس وترتفع أصوات التكبير من على المآذن. كان «جمال» يتابع المدرس. ويسمع بأذنه وقع حوافر جواد «صلاح الدين» . وصليل سيوف معاركه. وفجأة وسط هذه المعمعة فتح باب الفصل ودخل الناظر الإنجليزى غاضباً وصرخ فى صوت عال :

– « صلاح الدين» .. نو..

ورد عليه محمود أفندى فى عنف

- هذا تاريخنا ومجد أمتنا

واشتبكا فى حوار صاخب.. وأخذ الناظر الإنجليزى يهدده بالرفد والطرد ولكن محمود أفندى لم يتراجع.. وانتهى اليوم الدراسى مبكراً.. لم تكن المدرسة فقط هى التى تعانى الاضطرابات .. ولكن مدينة القاهرة كلها فى تلك الأيام من عام ١٩٢٥ كانت مدينة مضطربة. فالمظاهرات لم تكن تنقطع من الشوارع.. مظاهرات يشترك فيها العمال والطلبة والموظفون كلها تريد شيئا واحداً هو «الحرية».

خرج «جمال» من المدرسة.. كانت هناك مظاهرة للمدارس الثانوية قادمة من الاتجاه الآخر.. والطلبة يرفعون زميلا لهم فوق الأكتاف وهو يصيح بصوت قوى :

- الاستقلال التام أو الموت الزؤام.

ولم يفهم «جمال» ماذا تعنى كلمة «الزؤام» ولكن الكلمات كانت تمس أعماقه. تجعله ينتفض. أخذ يصرخ معهم بصوت عال. وسأل واحداً من المشاركين :

- إلى أين تسير هذه المظاهرة؟.

قال الشاب فى سرعة : إلى دار المندوب السامى البريطانى. يجب أن يعرف أن الشعب كله ضد الاحتلال. ولكن المظاهرة لم تتقدم خطوة أبعد من ذلك.. ففى نهاية الشارع ظهرت فرقة من الجنود الإنجليز.. كانوا يسدون الشارع تقريبا وهم يحملون فى أيديهم البنادق.. تأمل «جمال» وجوههم وأسلحتهم. وفى لحظة أدرك «جمال» لماذا منع الناظر تدريس «صلاح الدين».. كان هؤلاء الإنجليز هم الصليبيون الجدد.. والناظر خائف من أن يظهر «صلاح الدين» من جديد ليجمع الجيوش ويقتحم القلاع ويحرر كل الأرض.

وبدون إنذار بدأ الجنود يطلقون النار على المتظاهرين . دوى صوت الطلقات كالرعد. وتحولت المظاهرة السلمية إلى مصيدة للموت. كان الطلبة عزلا لا يملكون شيئا. والرصاص القاتل لا يرحم لذا أخذوا يجرون فى فزع إلى الشوارع الجانبية. وتوقف «جمال» مذهولا.. كان توقع أن يظهر «صلاح الدين» فى هذه اللحظة وينقض على الجنود بجواده. ولكن بدلا من ذلك دفعه طالب كبير السن إلى أحد الشوارع الجانبية وهو يصيح :

- لماذا تقف هكذا.. ألا ترى الموت؟

كان الرصاص قد أصبح كالمطر. والناس يجرون من الفزع إلى أى مكان.. ولم يتوقف الأمر عند هؤلاء الجنود.. كانت هناك عربات مسرعة تحمل جنوداً آخرين وهم يطلقون الرصاص فى الهواء. كانوا يريدون إفزاع المدينة كلها.. وأخذ الناس يرشدون الطلبة إلى الشوارع الضيقة التى لا تدخلها السيارات.. ولكن سيارات الإنجليز كانت موجودة دائما عند المخارج الرئيسية.. لقد وضعوا قبضتهم حول المدينة من كل ناحية.

ولكن «جمال» وصل إلى رأس الشارع الذى يسكن فيه أخيراً.. كان عليه فقط أن يجتاز الطريق. وشاهد من وقفته البنت الصغيرة بائعة السكر النبات. يبدو أنها لم تبع شيئاً منذ الصباح. وقبل أن يعبر «جمال» الشارع أقبلت سيارة إنجليزية مسرعة. كان جنودها يطلقون الرصاص ويصدرون أصواتا عالية.. وفوجيء «جمال» بالفتاة الصغيرة وهى تسقط على الأرض. والسيارة تمضى دون أن تأبه بها. وجرى «جمال» نحو الفتاة بسرعة فى حين جرى آخرون خلف السيارة فى محاولة يائسة للحاق بها.

نظر إلى وجهها الصغير الشاحب. كان هناك خيط من الدم ينسال من جبهتها على حين تناثرت حولها قطع «السكر النبات» صرخ واحد من الناس :

– لا حول ولا قوة إلا بالله اطلبوا الإسعاف.

وأمسك «عبدالناصر» يدها فأدارت الفتاة وجهها نحوه. تذكرت ذلك التلميذ الذى كان يحرص كل يوم على أن يشترى منها قطعة من السكر. وهذا الصباح بالذات أعطاها كل نقوده دون أن يأخذ شيئا. كانت تتألم ولكنها ابتسمت فى وجهه وأغمضت عينيها.

كان «جمال» يبكى فى صمت. والناس من حوله يضربون كفا بكف. وأسرع بعضهم ليحملها ويجرى بها إلى أقرب مستشفى. لم ينسها «جمال كان عمره وقتها ثمان من السنوات. ولكنه لم ينسها. لم ينس أن جنود الاحتلال هم السبب فى قتلها. وأن مصر فى حاجة لمن يخلصها من هذا الاحتلال. العالم العربى كله فى حاجة إلى «صلاح الدين» من جديد. لقد كبر «جمال». ودخل المدرسة العسكرية وأصبح ضابطا فى الجيش المصرى. واشترك فى حرب فلسطين. ورأى كيف ضاعت فلسطين على أيدى عملاء الاستعمار. لقد قتلوا الفتاة الصغيرة مرة أخرى على أرض فلسطين.

وقام «جمال عبد الناصر» هو وبعض من رفاقه بثورة ٢٣ يوليو عام ١٩٥٢ وكان هدفه الأول هو التخلص من الاستعمار. وكان حلمه أن تتحول الشعوب العربية إلى شعب واحد. وكان أمله أن يوفر للفقراء الذين عاش بينهم وخرج من وسطهم كل أهداف الحياة الكريمة. وكان «عبدالناصر» حتى اللحظة الأخيرة من حياته هو بحق.. عدو الاستعمار وزعيم الفقراء.



الفصل الثاني

القــادة الغــرب

صلاح الدين الأيوبى

لن أحنى رأسى أبداً[1]

كان «يوسف» يسير فى مؤخرة القافلة المتجهة إلى حلب. كان فى الحادية عشرة من عمره، لذلك فقد خرج فى صحبته أحد الخدم ليقوده عبر هذه الرحلة الطويلة من مدينة «تكريت» فى العراق إلى حلب فى الشام.

وفجأة لاحظ «يوسف» أن القافلة تسير بحذر شديد فقد سكت «الحادى» عن الغناء ووضع الرجال الكمامات الجلدية على أفواه الجمال. ونزل الفرسان من فوق الخيول وساروا ببطء وقال «يوسف» للخادم فى دهشة :

- ماذا حدث ؟

همس الخادم : إننا فى أخطر مراحل الطريق . انظر إلى هذه الكثبان الرملية. إن قطاع الطرق قد يختبئون وراءها . وقد يهاجموننا فى أى وقت.

وصمت «يوسف». وبدأ يتطلع هو أيضاً حوله فى خوف . كانت الهضاب الرملية صامتة أيضاً. كان هناك جو من الرعب يسود كل شىء. وهمس «يوسف» :

- كنت أحسب أن خالى «أسد الدين شيركوه» قد قضى على قطاع الطرق.

قال الخادم : خالك قائد شجاع بل هو أفضل قواد السلطان «نور الدين» سلطان الشام. ولكنه مشغول بمحاربة الإفرنج الذين يحتلون بقعة كبيرة من فلسطين والشام. لذا فالحرب بينهم لا تهدأ أبداً.

---

(١) عظماء فى طفولتهم - د. محمد المنسى قنديل - اقرأ - دار المعارف .

وظلت القافلة تسير بالهدوء نفسه. لم يبق إلا عدة تلال رملية ويزول الخطر وهمس «يوسف».

- سوف أطلب من خالى أن يجعلنى جندياً.. سوف أحارب الإفرنج وقطاع الطرق معاً. لابد أن يحس الناس بالأمان سواء كانوا داخل المدن أو خارجها. وفجأة صرخ صوت من فوق التلال.. كانت لكنته غريبة :

- توقفوا جميعاً.

وهمس الجميع فى خوف .. قطاع الطرق.. قطاع الطرق.

ولكن خرجت من خلف التلال عشرات من الفرسان المسلحين. وقفوا جميعاً فى طريق القافلة وهم يشهرون سيوفهم ورماحهم وأخذ قائدهم يواصل الصياح.. وهمس الخادم فى خوف :

- إنهم ليسوا قطاع الطرق.. انهم الإفرنج وهم أسوأ من قطاع الطرق.

كانت وجوههم حمراء وشعورهم ولحاهم شقراء. وكانوا يرتدون ملابس بيضاء مرسوم عليها الصليب بلون أحمر قرمزى. وهتف رئيسهم بلغة عربية منكسرة

- قفوا جميعاً. أنتم فى أرض صليبية وعليكم أن تدفعوا الجزية وسوف نصادر نصف بضاعة القافلة.

وتقدم رئيس القافلة. وقف أمام القائد وهو يقول :

- إننا فى أرض السلطان «نور الدين». وعليكم أن تدفعوا الجزية وضحك القائد ساخراً وهو يقول :

- مادامت هذه أرض السلطان.. فدع السلطان يحميك.

ورفع سيفه فى حركة غادرة ثم هوى به على كتف شيخ القافلة. وانقض

الشيخ من الألم وهو يهوى على الأرض جريحاً.. نازف الدماء.. وتعالت صيحات الاحتجاج.. وحاول بعض رجال القافلة التقدم فى اتجاه الفرسان.. ولكنهم جميعاً رفعوا الرماح وضعوها فى مواجهة صدور الناس.. كان من الصعب على قافلة مسالمة أن تقاوم مثل هؤلاء المسلحين وعاد قائدهم يصيح :

– سوف نصادر البضاعة كلها. ومن يقاوم سوف نقتله دون تردد. وعلى كل واحد أن يدفع عشرة دنانير كاملة.. سوف نصنع لكم بوابة مصنوعة من الرماح يمر منها كل واحد منكم ورأسه محنية إلى أسفل.. وتدفعون الدنانير.

وقال «يوسف» فى حنق : إنهم فعلا أسوأ من قطاع الطرق.. فهم لا يسرقوننا فقط.. ولكن يحاولون إذلالنا.

وهمس الخادم فى خوف : اسكت يا سيدى «يوسف» إنهم لا يرحمون.

كان الإفرنج بالفعل يريدون إذلال أناس القافلة يريدون أن يؤكدوا سيطرتهم على هذه الأرض وعلى ناسها. غرسوا رمحين فى الرمال. ثم ربطوا الرمح الثالث بينهما بالعرض وكان على كل واحد أن يمر من تحته. وأن يحنى رأسه ويقوس جسده كأنه يقدم أيات الخشوع لفرسان الصليب. أو بالأحرى الذين يتسترون تحت الصليب ويجعلون منه شعاراً لاغتصاب أرض الآخرين.

كان «يوسف» يشعر بالغيظ ويتخيل وجه خاله «أسد الدين شيركوه» وهو يقص عليه ما حدث. كان يعرف أن خاله والسلطان «نور الدين» فى حرب لا تهدأ مع هؤلاء الصليبيين يخوضون ضدهم الموقعة وراء الأخرى.. ولكن السلطان وحده لم يكن يقدر على هزيمتهم. كانوا كثيرين، جاءوا من كل بلدان أوربا.. ولكن المسلمين كانوا متفرقين.. فى الشرق كانت بقايا العباسيين.. وفى مصر كان الفاطميون وفى المغرب والأندلس كانت هناك دول كثيرة لا تعد ولا تحصى.. لكل واحدة سلطان مختلف وله رأى مختلف يحاربون بعضهم البعض أكثر مما يحاربون العدو المشترك.

وظل «يوسف» يتأمل رجال القافلة وهم ينحنون ويدفعون الدنانير والفرنجة يضحكون فى سخرية من ذلهم وفى كل مرة ينزلون الرمح أكثر وأكثر لكى يزيدوا فى إذلال الجميع. وكان منظر شيخ القافلة الجريح. كافيا بأن يجعل الجميع يستسلمون. ووقف «يوسف» متسمراً فى مكانه.

كان الخادم يعرف أن الإفرنج لو عرفوا أن «يوسف» هذا هو ابن أخت «أسد الدين شيركوه» القائد الذى دوخهم طويلا فسوف يأسرونه ويطالبون بفدية ضخمة. لذا فقد أراد الخادم أن يدفع الدنانير التى يطلبها الفرنجة بسرعة وينجوان.. وصاح فيهما القائد :

– هية .. أنتما هناك .. هيا.. انحنيا وادفعا الجزية.

وهتف الخادم : هيا يا سيدى «يوسف». ننجو بجلودنا قبل أن يعرفوا من أنت.

ولكنه فوجىء «بيوسف» وهو يقول له : كلا .. لن أنحنى أمام هذا الفارس. إنه عدوى ولن أنحنى أمام عدوى أبداً.

والتفت الفارس الصليبى بحدة إلى «يوسف» ورمقه بنظرة مخيفة فارتعد الخادم وهو يقول : سوف يتقدم يا سيدى.. هيا .. هيا «يا يوسف».

ولكن «يوسف» صاح : كلا.

وهمز الفارس جواده وأقبل مندفعا نحو «يوسف» كأنه سوف يدهسه بالحصان . وجرى الخادم وهو يرتعش. ولكن «يوسف» ظل واقفا لم يتحرك من مكانه. واضطر الفارس أن يوقف جواده أمام الصبى مباشرة وهو يصرخ فيه :

– لماذا تعصى أوامرى ؟.. سوف أقتلك فى الحال.

ورفع السيف إلى أقصى ما يستطيع ولكن يوسف لم يهتز. ظل يحدق فيه بثبات. وأنزل الفارس سيفه وقال مدهوشا:

– أنت لست خائفا منى .. إننى .. إننى لم أر غلاماً مثلك من قبل.. كان يجب أن أقتلك فى الحال.. لو أن غلمان المسلمين مثلك هكذا لما استطعنا البقاء فى هذه البلاد.. ولكننى.. لا أستطيع أن أقتل صبياً لا يحمل حتى سكيناً.

واستجمع الخادم شجاعته وهرع نحو الفارس وهو يقول :

– اصفح عنه ياسيدى إنه غلام صغير لا يقصد ما يفعله.

وقال الفارس محاولا أن يسترد قوته أو كرامته التى فقدها:

– سوف يدفع وحده عشرين ديناراً.

وقبل أن يتكلم «يوسف» أسرع الخادم يقول :

– ها هى .. ها هى يا سيدى.

والتقط الفارس الدنانير بعنف وعاد مسرعاً إلي فرسانه.. كان «يوسف» واقفا فى مكانه. وبدأ رجال القافلة ينهضون. ويقفون خلفه. كأنهم يحمونه، أو كأنهم يستمدون منه الشجاعة.. وهتف الفارس :

– هيا ننصرف.. قبل أن يتعلم رجال القافلة من هذا الصبى كيف يقاوموننا.

وأسرع الفرسان هاربين.. و«يوسف» يقف والناس من خلفه. لقد تحققت نبوءة هذا الفارس الصليبى وعلم الغلام الناس كيف يقاومون الصليبيين وكيف يطردونهم من بلادهم.. لقد أصبح فارسا شجاعاً هو «صلاح الدين الأيوبى» الذى غير اسمه إلى «صلاح الدين» بعد أن أصبح سلطانا على مصر.. ووحد كلمة المسلمين وخاض ضد الصليبيين خمسا وعشرين موقعة كانت أكبرها وأشهرها «معركة حطين» التى استولى بعدها على بيت المقدس وجعل فرسان الصليب يدفعون الجزية ويخرجون ورءوسهم محنية من بوابات المدينة.

عبد العزيز بن سعود

عبور الربع الخالى

صاح الأمير «عبد الرحمن» فى الرجال :

- انتبهوا يا رجال.. نحن الآن فى منطقة «الربع الخالى». محاطون بالرمال المتحركة من كل جانب.. فالزموا الحذر وسيروا ورائى.

كانوا مجموعة صغيرة من الرجال والجمال تسير على وجه الصحراء الواسعة.. كأنها نقاط سوداء صغيرة تسير فوق الرمل الأصفر.. وكان الأمير «عبد الرحمن بن سعود» هو الذى يقودهم لأنه الوحيد الذى يعرف طرق هذه البقعة الوعرة ومسالكها.

وفوق جمل صغير.. كان ابنه الأمير «عبد العزيز» يجلس على جانب من الجمل.. وأخته الصغيرة «نوره» في الجانب الآخر من الجمل.. كل منهما يعدل الآخر.. والجمل الصغير يسير ببطء على الرمال الناعمة. وكانت الريح تدور بين الكثبان وتصدر صوتاً غريباً.. وكأنه صوت بكاء. كان «عبد العزيز» فى العاشرة من عمره. وبرغم ذلك كان يعرف ما حدث .. يعرف أن أباه ورجاله قد انهزموا .. وأنهم قد طردوا من مدينة الرياض التى كانوا يحكمونها .. وأنهم جميعا الآن وسط رمال الربع الخالى الموحشة يبحثون عن مأوى جديد. وقد اختار الأب هذا الطريق الوعر الملء بالموت حتى لا يستطيع أحد من الأعداء أن يتبعه.

كان الأب.. الأمير «عبد الرحمن» .. رجلا صلباً.. قوياً.. أشبه بالنخل العالى.. ولكن وجهه كان حزينا.. ولم يكن «عبد العزيز» يعرف كيف يمكن أن ينهزم مثل هذا الأب القوى لقد فقد «عبد العزيز» البيت الذى كان يحبه.. والحديقة التى كان يلعب فيها مع أخته «نوره» . وبئر الماء الذى كان يصيح فى صوت عال وينتظر حتى يسمع الصدى. ولكن الذى أحزن «عبدالعزيز» أكثر من كل هذا هو وجه أبيه الحزين.

وأفاق «عبد العزيز» على صوت «نورة» وهى تسأله فى صوت منخفض يغلب عليه النعاس :

– «عبدالعزيز» أين نذهب يا أخى إننى لا أرى سوى الصحراء؟

وبلع «عبد العزيز» ريقه وحاول التغلب على أحزانه حتى لا تشعر به أخته الصغيرة :

– إن أبى يقودنا إلى مدينة جميلة.. أرضها خضراء .. وبيوتها بيضاء.. وأشجارها مليئة بالزهر الأحمر.. والطيور تملأ سماءها طوال اليوم.

وابتسمت «نورة» فى سعادة وأغمضت عينيها وأخذت تحلم بهذه المدينة الجميلة.

وجاء المساء أخيرا.. وتوقف الركب وجلس الرجال جميعاً وأوقدوا ناراً. كان معهم بعض الأطعمة.. وكانت الرحلة طويلة لا يدرى أحد متى تنتهى.. وظلت «نورة» نائمة. وجلس الأمير «عبدالرحمن» وأمامه «عبدالعزيز» وحدهما بعيداً عن الرجال. وظلا صامتين قليلا ثم قال الأب :

– غداً سوف تكبر وتصبح أميراً.. ولكن عليك أولا أن تعرف ماذا حدث بالضبط؟

قال «عبد العزيز» : أعرف أننا انهزمنا وطردنا من «الرياض».

وأومأ الأب برأسه وهو يقول :

– أجل . أنا واثق من ذكائك برغم صغر سنك. هزمنا أعداؤنا من قبيلة رشيد استولوا على قلعة «المسماق» وبذلك استطاعوا أن يستولوا على المدينة كلها.

قال «عبد العزيز» فى دهشة :

– ولكن كيف هزمونا يا أبى.. لقد كنا من أقوى القبائل ؟

قال الأمير «عبدالرحمن» وقد بدت نبرات الحزن فى صوته

– إنهم العثمانيون يا ولدى.. هم الذين دعموا آل رشيد.. إنهم يعرفون أن «آل سعود» يرفضون وجودهم فى جزيرة العرب.. بل يرفضون أى أجنبى آخر.. ولهذا تعاونوا مع «آل الرشيد» ضدنا.

بلع «عبد العزيز» ريقه وهو يقول .. والآن . ماذا سنفعل؟

قال «عبد الرحمن» : سوف نبحث عن مأوى في المدن الواقعة على شاطئ الخليج.. ربما فى قطر.. أو الإمارات أو الكويت.. وعندما نسترد قوتنا سوف نعود إلى الرياض من جديد

وقال «عبد العزيز» كأنه يحلم . نسترد «المسماق». ونسترد الرياض.

قال الأب فى ثقة : أجل يا ولدى.

وواصلت القافلة سيرها فى الصباح . وبدا كأن الصحراء بلا نهاية. وأن شاطئ الخليج لن يأتى أبداً. وقالت «نورة» :

– إننى مريضة . لا أستطيع أن أبقى على الجمل كل هذه المسافة

كان وجهها أحمر من أثر الحمى.. وأنزلها الأب وحملها بين ذراعيه . وظل يسير بها وقالت له فى صوت ضعيف .

– متى نصل إلى مدينتك الجميلة يا أبى ..؟

قال الأب : وأنت وأخوك يا ابنتى سوف تصنعان معاً أجمل المدن.

وسكتت «نورة» قليلا ثم قالت .

– هل أنت أمير كل هذه الصحراء يا أبى ؟

قال الأب : أجل يا ابنتى.. أنا أمير هذه الصحراء.. وسوف أبقى أميرها برغم أنف العثمانيين.. وواصلوا السير. وكان الطعام الذى معهم يتناقص باستمرار. واكتفى الجميع بوجبة واحدة كل يوم.

وأخيرا اختفت الكثبان الرملية. وبدت الصخور والسلاسل الجبلية ومن بعيد بدت واحات متفرقة تعلوها أشجار النخل تعلن عن وجود مدن جديدة.

وقال الأمير «عبدالرحمن» : هذه نهاية الربع الخالى. نحن الآن فى المنطقة الشرقية من الجزيرة.. هنا تنتهى حدود بلدنا وتبدأ حدود بلد آخر.

ثم نظر خلفه فى حزن وأدرك «عبدالعزيز» أن أباه فى هذه اللحظة يفكر فى الرياض «المدينة» التى أصبحت غاية فى البعد الآن. وتعالت أصوات أناس قادمين.. وفكر «عبدالعزيز». هل هم من قبيلة رشيد..؟

ولكن القادمين كانوا أناسا عاديين جاءوا من الواحات التى تحيط بالمنطقة. لعلهم شاهدوا قافلة الأمير من فوق النخل فأقبلوا مسرعين وقفوا أمام الأمير وهم يقولون :

– إلى أين تتركنا يا أمير «عبد الرحمن».. نحن شعبك وناسك؟

وبدا التأثر على وجه الأمير وهو يقول :

– لن تطول غيبتى.. وسوف يقود ابنى «عبدالعزيز» جيوش النصر إن شاء الله.

وتقدمت جماعة أخرى .. صاحوا:

– نحن جوعى يا أمير«عبد الرحمن».

وبدون تردد أشار «عبدالرحمن» إلى أحد أتباعه وهو يقول له :

– هيا .. أعطه نصف ما معنا من طعام.

وهتف التابع وهو يقول فى حرج : ولكن يا أمير.. ليس معنا إلا القليل من الطعام.

ونهره الأمير قائلا:

– هيا .. أعطهم ما يحتاجون إليه.. فالأمير هو الأمير فى كل مكان وتحت أى ظرف.. ونظر إلى «عبدالعزيز» كأنه كان يعنيه بهذه الكلمات. ولم ينسها «عبدالعزيز» . لم ينس أنه أمير حتى فى أشد أيام المنفى قسوة. وظل يجلس الأيام الطويلة فوق ربوة عالية يتطلع إلى بعيد حيث تقع الرياض وتقع قلعة «المسماق».. كان يعرف أنه لن يحقق كلمات أبيه إلا إذا استولى على هذه القلعة. ساعتها يستطيع أن يفرض سيطرته ويعلن إمارته. ويطعم الجوعى. وينتقم من آل رشيد الذين طردوهم من بيتهم.

وبعد عشر سنوات فقط كان «عبدالعزيز» مازال يتذكر كل شيء. كان فى العشرين من عمره فى عنفوان شبابه وكان يستعد لعبور الربع الخالى للمرة الثانية ولكن فى عكس الاتجاه فى طريقه إلى الرياض.. وفى شهر رمضان حقق«عبدالعزيز» أحلام أبيه.. فقد هبط مع بعض أتباعه على المدينة واستولى على «المسماق». ولم يتوقف حلمه عند حدود الرياض فقط ولكنه امتد لكل الصحراء وإلى بلاد الشام.. وقاد الثورة العربية الشاملة ضد الاحتلال العثمانى.. وأصبح «عبدالعزيز» هو الملك «عبد العزيز» الأب الأكبر للمملكة السعودية التى دخلت بفضله إلى عصر جديد.

عبد الحميد بن باديس

لن أتعلم فى هذه المدرسة

توقف المدرس الفرنسى عن الشرح كان غاضبا محمر الوجه وصاح وهو يشير بأصبعه :

- أنت .. أيها الطالب فى الصف الأخير.. قف.

واستدارت عيون بقية الطلبة فى الفصل ليشاهدوا ذلك الطالب الذى أثار غضب المدرس.

ونهض «عبدالحميد» واقفا. كان نحيفا. أسمر الوجه. واسع العينين. وصاح المدرس مرة أخرى:

- ماذا تخفي داخل ثيابك؟

لم يقل «عبد الحميد» شيئا أدرك بقية الطلاب أنه مذنب وعاجز عن الدفاع عن نفسه.. وقال المدرس :

- تقدم إلى هنا.

سار «عبدالحميد» إلى حيث يقف المدرس.. رمقه الباقون فى إشفاق. كانوا يعرفون أن هذا «المسيو» لا يرحم أى تلميذ يقع تحت يديه. وقف «عبدالحميد» أمامه. وأخذ المدرس يفتش ثيابه بسرعة وعصبية.

ثم هتف فى انتصار وهو يخرج كتاباً من بين طيات ثيابه.

- آه.. أنت تخفى كتاباً.

وأخذ يقلب فى صفحات الكتاب فى سرعة ثم تغير وجهه وأصبح أكثر غضباً وأخذ يردد :

- إنه القرآن.. القرآن.. كنت أتوقع هذا.. أتوقعه.

ونظر إلى بقية التلاميذ الذين كانوا يراقبون ما يحدث بعيون خائفة. لوح «المسيو» بالكتاب عالياً وقال فى صوت هادر:

- أترون مدى الجريمة التى ارتكبها زميلكم. مثل هذه الكتب ممنوعة فى المدرسة.. إنها جريمة.. وفوجىء الجميع «بعبد الحميد» وهو يرد فى هدوء :

- إننى مسلم ومن الطبيعى أن أحمل القرآن فى صدرى وبين ثيابى.

وزاد هذا من ثورة «المسيو» الذى هتف :

- سوف أرسلك إلى ناظر المدرسة. يجب أن يتم فصلك فى الحال.. هيا أمامى.

سار «عبد الحميد».. كانت المدرسة كبيرة أكبر المدارس فى مدينة «قسنطينة» الجزائرية. تضم خليطا من الطلبة الجزائريين وأبناء الجنود الفرنسيين. ولكن أساتذتها جميعاً كانوا من الفرنسيين ولم يكن يدرس فيها شىء إلا باللغة الفرنسية.

فى حجرة الناظر أعاد «المسيو» شرح الواقعة فصرخ الناظر فى رعب :

- القرآن .. كيف تخالف أوامرى.. إن كل الكتب العربية محرم دخولها إلى المدرسة.

وهذا الكتاب هو أخطرها جميعاً سوف تقف فى فناء المدرسة ووجهك إلى الحائط طوال اليوم وفى الغد يجب أن تحضر ولى أمرك.

وفى فناء المدرسة تلقى «عبدالحميد» هذه العقوبة القاسية. كانوا يريدونه أن يبكى أو يعتذر أو يتراجع ولكنه لم يفعل. رفع يديه وواجه الحائط وظل صامتا. أخفى إحساسه الشديد بالظلم فى داخله.

لقد كان يحمل القرآن دائما كما أوصاه أبوه. لم يتركه يوماً واحداً. وهذا اليوم كان يعدل من وضع ملابسه عندما لاحظه المدرس. كان «عبدالحميد» حزينا لأن القرآن لم يعد معه لأنه راقد فى هذه اللحظة على مكتب الناظر. وكان حزينا لذلك أكثر من حزنه على العقوبة.

تهامس الطلبة الجزائريون فى اشفاق وهم يشاهدونه. وضحك الطلبة الفرنسيون فى شماتة. وكان المشرف حازماً فلم يسمح لأحد بالاقتراب منه أو التخفيف عنه بأى كلمة. وعندما انتهى اليوم المدرسى أخيراً. أحس «عبدالحميد» بجسده كله متصلبا وبذراعيه مخدرتين وسار فى بطء إلى البيت.

كان جزائريا يسير فوق أرض جزائرية ولكنه أحس أنه غريب فى بلد غريبة. وصل إلى البيت. كان أبوه الشيخ «باديس» بوجهه الطيب ولحيته البيضاء المسترسلة جالسا فأخذ يقص عليه ما حدث له اليوم. وعندما وصل إلى لحظات العقاب الأخيرة انفجر فى البكاء وهو يقول فى صوت منقطع :

– إننى لا أحب هذه المدرسة يا أبى.. لا أريد أن أذهب إلى أولئك الفرنسيين.

قال الأب : هذا هو المؤسف يا بنى.. إنهم فى كل مكان ينتشرون على وجه الجزائر كالطاعون . سوف أذهب معك غداً إلى المدرسة لأقابل هذا الناظر.

وقضى «عبد الحميد» ليلة طويلة وهو يتساءل.. لماذا يتحدثون فى المدرسة بلغة غريبة عن اللغة التى يتحدث بها الناس فى الشارع أو التى يتحدث بها أهله. لماذا يرفضون أن يقول على نفسه جزائرى ويصرون على أنه مواطن فرنسى برغم أنه لا يعرف فرنسا ولم يرها أبداً فى حياته. ولم ير منها غير هؤلاء الجنود المسلحين الذين يجوبون الشوارع وهؤلاء المدرسين الذين يحاصرونه بالأوامر.

فى الصباح سار «عبدالحميد» مع أبيه إلى المدرسة. لم يقف فى الطابور.

لم يردد نشيد «المارسليز» ولم يؤد التحية لعلم فرنسا. توجها إلى مكتب الناظر الذى كان ما يزال غاضبا. وفور أن شاهد الأب أشار إلى كتاب القرآن الذى كان ما يزال موجوداً على مكتبه وهو يهتف :

– هذا هو جسم الجريمة التى وجدناه فى ثياب ابنك.

قال الأب : هذا ليس جسم جريمة. إنه كتاب الله القرآن الكريم. وابنى كمسلم يجب أن يحمله وأن يعتز به وأنا الذى أمرته بذلك.

وذهل الناظر من الرد. كان يتوقع أن يتراجع الأب وأن يؤنب ابنه وأن يعد الناظر وعداً جازماً بأن هذا الأمر لن يتكرر مرة أخرى. وبدأ الناظر ينظر إلي الأب إلي هيئته وثيابه ثم هتف وهو يهز رأسه:

– آه .. فهمت .. أنت رجل دين.. أليس كذلك ؟.

قال الأب : أجل .. أنا شيخ جامع القسنطينة.

صاح الناظر وهو يخرج من خلف مكتبه : فهمت .. أنت الشيخ «باديس» الذى يحرض الناس علينا ويؤلبهم ضدنا. أجل أنت تقول إن فرنسا تحتل هذه الأرض وتصر على أن اسمها «الجزائر» برغم أن هذه أرض فرنسية وراء البحار.. أليس كذلك؟.

قال الأب : يمكنكم أن تقولوا عن الشمس أيضا أنها أرض فرنسية فى منتصف السماء.. ولكن هذا لن يغير من حقيقتها.. الشمس هى الشمس.. والجزائر هى الجزائر.

صالح الناظر : سوف تأسف من أجل ذلك. لأن ابنك مفصول ولن يدخل أى مدرسة فرنسية بعد الآن.. مفهوم .. لن يدخل أى مدرسة .

قال الأب: لم آت لأعيده للمدرسة ياسيدى الناظر. لقد جئت لأقول له أمامك إنه على حق وأنا الكفيل بأن أعد مستقبله. والآن أرجو أن ترد لابنى كتابه.

تناول «عبد الحميد» الكتاب باعتزاز. وضعه بين طيات ثيابه مرة أخرى. أحس بالدفء والاطمئنان. وأمسك يد أبيه. وغادرا المدرسة معاً. مرفوعى الرأس. كانت المدينة تمتد أمامهما.. البيوت والمساجد والرجال فى ملابسهم البيضاء والنساء المحجبات.. مدينة عربية وليست فرنسية. مدينتهم أرضهم وقال «عبد الحميد» :

– والآن .. ماذا سنفعل يا أبى ؟.

قال الأب وكأنه يحلم بالمستقبل : يجب عليك أن تتعلم العربية وأن تحفظ القرآن جيداً. من أجل ذلك سوف تسافر أولا إلى مسجد «الزيتونة» فى تونس حتى تتعلم العربية بطريقة صحيحة ثم تذهب بعد ذلك إلى الأزهر الشريف فى مصر.. حيث تتعلم وتتثقف الثقافة العربية والدينية الأصيلة. هذه هى الخطوة الأولى لمقاومة الاستعمار الفرنسى يا ولدى.. يجب ألا نجعله يصل إلى عقولنا.

بدأت رحلة التعلم إلى تونس. ثم إلى مصر. وعاد إلى الجزائر مثقفاً عربياً متديناً. يدعو إلى النهضة القومية عن طريق فهم اللغة العربية وفهم الدين الإسلامى فهما عصريا. كان يدرك أن مقاومة الاحتلال الفرنسى للجزائر يجب أن تبدأ مع البذور الأولى.

مع الصبية الصغار الذين يتعلمون حروف الهجاء . فالاستعمار لم يكن للأرض فقط ولكنه كان يريد أن يصل إلى كل العقول. وأنشأ «عبدالحميد بن باديس» سلسلة من المدارس كلها تعلم اللغة العربية وكلها تحفظ القرآن الكريم وتدرس تعاليم الإسلام. ومن هؤلاء التلاميذ الصغار خرج أبطال حرب التحرير الذين حاربوا جيش الاحتلال وحرروا الجزائر وأعادوا لها وجهها العربى.

عبد الكريم الخطابى

الهروب إلى الجبال

انتشر الجنود الأسبان فى كل مكان. شاهرين البنادق والسيوف. وأصاب هذا المشهد سكان مدينة «مليلة» المغربية بالرعب فأخذوا يسارعون بالاختباء. وتهامسوا لبعضهم :

- لابد وأن الجنود فى طريقهم للقبض على مجرم خطير.

ولكن الجنود اتجهوا نحو بيت صغير فى أحد الحوارى وأحاطوا به. وتقدم قائدهم وركل الباب ركلة خلعته من مكانه. ثم دخل ودخل الجنود خلفه مستعدين لإطلاق النار على الفور.

كان هناك صبى فى العاشرة يستذكر دروسه. وخادم نائم. ولكن القائد صرخ فى الصبى :

- أنت هو «عبدالكريم الخطابى»؟

حرك الصبى رأسه بالإيجاب فهتف القائد فى انتصار:

- بأمر الحكومة الأسبانية أنت مقبوض عليك.

وقال الصبى فى هدوء : لماذا؟.

وأحس القائد بالغيظ لأن الغلام برغم كل ما فعله مازال هادئاً فعاد يصرخ:

- ألا تعرف لماذا . لأن والدك الأمير الخطابى قد أعلن التمرد علينا .

لأنه يشن الحرب ضدنا الآن فى بلاد الريف ويطالب بخروج أسبانيا من كل المغرب. وقال عبد الكريم بالهدوء نفسه : إن كان أبى قد فعل هذا فهو على حق.

وصرخ القائد فى جنوده أن ينقضوا على الغلام فانقضوا عليه. أحاطوا جسده الصغير بالقيود الحديدية. وساروا به فى شوارع «مليلة» الضيقة. وقال الناس فى حزن وهم يتأملونه :

- إنه «سى عبدالكريم». ابن أمير الريف. قبضوا على ابن الأمير.

وفى القلعة ألقوا «بعبد الكريم» في زنزانة ضيقة وهتف به القائد :

- سوف تبقى هنا دون طعام ولا شراب حتى يرضخ أبوك ويتراجع عن قتالنا.

كان «عبدالكريم» يعرف جيدا أن أباه لن يرضخ. إنه يعيش فوق الجبال. له كبرياء النسور وصلابة الصخور. لقد تعلم مثل بقية أهالى الجبال - أن الحرية تساوى الحياة. وعندما غزا الجيش الأسبانى المدن المغربية لم يستطع الوصول إلي منطقة الريف الوعرة. وكان يجب عليهم أن يعرفوا أن الجهاد من أجل طردهم سوف يبدأ من هذا المكان.

كان الأمير الخطابى يحب ابنه «عبدالكريم» يعده ليكون أميراً من بعده. لذا فقد أرسله إلى مدينة «مليلة» كى يدرس ويتعلم ويتفقه فى الدين. ولكن ها هم الأسبان ينتهزون الفرصة ويقبضون عليه لكى يساوموا عليه مع والده.

مرت ثلاثة أيام و«عبد الكريم» داخل الزنزانة. كان يحس بألم شديد من قسوة الجوع. وكان ريقه جافا وجسده خائراًحتى أنه لم يكن قادراً على الوقوف عندما فتح الباب ودخل القائد. نظر إليه فى تشفى وهو يقول :

- هل تأدبت. أرجو أن يعرف أبوك ماذا يحدث لك هيا اكتب له أن يكف عن القتال.. لو فعلت فسوف نعطيك طعاماً ساخناً (دجاج وأرز. سوف تشرب عصير الفواكه.

كان «سى عبد الكريم» أضعف من أن يستطيع الكلام ولكنه هز رأسه علامة على الرفض. كان يفضل الموت قبل أن يطلب من أبيه أن يتراجع وضرب القائد الأرض بقدميه وهو يتمتم :

– أيها الصبى المجنون .. سوف تموت جوعاً.

واستدار ليخرج ويغلق الزنزانة من جديد . ولكن «سى عبد الكريم» سمع صوتا مغربيا يقول :

– سيدى القائد .. أنت تعرف كم أخدمكم بإخلاص.. وأنا أرى أن قتل مثل هذا الصبى لن يكون فى مصلحتنا أبداً.

رفع «عبدالكريم» رأسه . كان هنا رجل عجوز محنى الظهر. يقف أمام القائد. لحيته بيضاء ووجهه ملطخ بالسناج. وقال القائد مدهوشا :

– وكيف ذلك يا بلبال؟.

قال العجوز وهو يرمق «سى عبدالكريم» بنظرة سريعة :

– لو تركناه يموت فسوف نفقد الورقة الرابحة فى أيدينا التى تضغط بها على الأمير الخطابى.. بالإضافة إلى أن قتله سوف يجعل أباه يطالبنا بالثأر ولن يتراجع أبداً عن قتالنا. يجب أن يعيش الصبى ومدام فى قبضتنا فلابد أن الأب سوف يضعف ويلجأ للتفاوض.

وظل القائد مدهوشاً قليلا ثم قال :

– إنها أفكار طيبة يا بلبال. يبدو أن المغاربة يتمتعون بقدر من الذكاء.. أحضر له بعض الطعام.

وانصرف الاثنان. وبعد قليل عاد العجوز وحده. كان يحمل معه بعضاً من الطعام والما جلس أمام «سى عبدالكريم» ومد أصابعه المرتعدة يحاول أن يربت بها على رأسه ولكن «عبدالكريم» انتفض وأزاح يده. وابتسم الرجل وهو يقول :

– كل يا بنى .. كل كل الطعام.

ولكن «عبدالكريم» هز رأسه بالنفى. كان يريد أن يفسد خطته. لم يكن يريد أن يبقى على قيد الحياة حتى لا يرغم أباه على المصالحة. ولكن الرجل العجوز هتف به :

– كل يا بنى . يجب أن تكبر لأن أباك الأمير فى حاجة إلى الجنود حتى يستطيع أن يواصل القتال ضد الأسبان.

ونظر «عبدالكريم» إلى الرجل. كان في صوته بضع من الصدق. ولكن لماذا يتعاون مع الأسبان. لماذا يعمل معهم. وكأن الرجل كان يقرأ أفكاره فقد قال :

– سوف تكبر وتصبح أميراً. وتعرف أن الرجال يمكن أن يخدموا بلدهم فى أى مكان.

وانصرف الرجل. وظل «سى عبدالكريم» جالسا قليلا ينظر إلي الطعام. الرجل على حق. أبوه في حاجة إلى جنود يجب أن يكون بجانبه فى كل المعارك التى سيخوضها ضد الاستعمار الأسبانى .

ومد «عبدالكريم» يده وتناول أول لقمة. انتفض جسده كله. كأن الحياة تعود إليه. تذكر وجه أبيه وهو يوصيه أن يسافر إلي «مليلة».. وأن يجيد الدرس والتحصيل. قال له أدرس جيدا لتكون أميراً جيداً. وتناول «سى عبدالكريم» جرعة من الماء. تخيل قومه وهم يركبون الخيول ويرفعون السيوف ويصيحون فى صوت واحد «الله أكبر».. كلا.. لن يموت من الجوع داخل السجن الأسبانى. وإذا كان يجب أن يموت فليمت مع قومه فى ميدان القتال.

وفى منتصف الليل سمع «عبدالكريم» صوتاً غريباً.. باب الزنزانة يفتح ببطء. والرجل العجوز يتسلل داخلا. وقال الرجل فى همس

- «سى عبد الكريم» استيقظ . الحرس نائمون ويمكن أن تهرب الآن. هيا. لم يكن لدى «عبدالكريم» وقت يضيعه. استيقظ. سار خلف الرجل . سارا بجانب الجدران ببطء حتى لا يراهما أحد وصلا إلي السور. أشار الرجل إلى سلم صغير موضوع على السور وهو يقول :

- هيا. اصعد إلى هذا السلم واقفز إلى الخارج. غادر مدينة «مليلة» على الفور. اذهب للجبال. وبلغ تحياتى لأبيك الأمير.. هيا.

صعد «عبدالكريم» سريعا. وصل إلى أعلى السور. فى الجانب الآخر كانت هناك كومة من القش. وتحرك «عبدالكريم» حتى أصبح فوقها تماما ثم قفز في الفضاء وهوى على الأرض. وتمتم الرجل العجوز يشكر الله لكن «عبدالكريم» كان يشعر بألم فى ساقه. ولكن يجب ألا يبقى فى هذا المكان. يجب أن يبتعد عن «مليلة» وأن يعود للجبال إلى أبيه وقومه.

إن العزيمة تولد داخل الإنسان طاقات كبيرة. لقد استعان بكل الوسائل حتى هرب إلى الجبال. عاونه الناس البسطاء الذين كانت تهزهم بطولة والده. ولكن إصابة ساقه لم تفارقه. حتى بعد أن كبر وأصبح أميراً ظل يعرج عرجاً خفيفا ذكرى للحظة هروبه من سجن «مليلة» لقد رحل إلى الجبال فوجد أن أباه قد استشهد فى معاركه ضد الأسبان وكان عليه هو أن يصبح أميراً وأن يواصل القتال ضد الاستعمار الأسبانى ثم ضد الاستعمار الفرنسى. وكان اسمه كفيلا بإثارة الذعر فى نفوس الأعداء. وكان الفرنسيون يطلقون عليه فى غيظ.. «الأمير الأعرج» ولكن هذا الأمير الأعرج كان علامة على هؤلاء الرجال العظام الذين ظلوا يدافعون عن الأمة العربية ضد كل أعدائها.



الفصل الثالث

القــادة مــن النســـاء

الفصل الثالث :

القادة من النساء

تاتشر ، وجولدا مائير، وأنديرا غادى ...

المرأة عندما تتحول إلى رجل(١)

كان البعض من النساء يجد طريقه للسلطة من خلال الجسد والرغبة الجنسية ... إنها نوع من سلطة الغواني والراقصات ... وهى تعتمد على ضعف الرجل -أى رجل- أمام جمال الأنثى ومفاتنها، وعندها يصبح لزاما عليه أن يسلم جزءاً من سلطته أو كل سلطانه إلى المرأة التى لعبت بأوتار اللذة عنده ... ورجل السلطة عندئذ لا يهمه قيمة ما تنازل عنه فهو كالمخمور يشعر بأنه يملك الدنيا ويسيطر عليها والحقيقة أنه لا يستطيع حتى السيطرة على نفسه ... فالطرف الآخر يقوم عنه بكل شيء.

لكن على النقيض وفى المقابل نجد نساء حكمن وسيطرن من خلال ما تمتعن به من شخصية جبارة وسلوك «رجالى» لا صلة للأنوثة به.. من هؤلاء نجد «مارجريت تاتشر».. و«سيرمافوا باندرنيكا» و«جولدا مائير» و«كورازون أكينوا» و«فيوليتارى شامورو».. إن هؤلاء حكمن بقبضة حديدية وربما كن تأكيداً لعبارة قديمة قالها «سوفوكليس» : إذا جعلت المرأة مساوية للرجل فإنها تصبح أفضل منه».

«مارجريت تاتشر» رئيسة وزراء بريطانيا السابقة، وهى أول سيدة تصبح فى هذا المنصب خلال ٢٠٠٠ سنة من تاريخ هذه الدولة.. «مارجريت تاتشر» التى قالوا عنها إنها (المرأة الحديدية) وإنها «أفضل رجل فى حزب المحافظين»..

(١) السلطة والجنس - د. سامى محمود - الكتاب العالمى - الدار المصرية للنشر

هذه المرأة -الرجل- التى ظلت على كرسى رئاسة الوزراء لمدة ١١ عاما كانت حافلة بالأحداث على المستوى المحلى -فى بريطانيا- والعالمى.. هذه المرأة تستحق منا وقفة.. فهى نموذج للمرأة التى تحكم وتنجز أكثر مما يحكم أو ينجز أفضل وأقوى الرجال.

ولدت «مارجريت هيلا روبرتس تاتشر» عام ١٩٢٥ من أب كان يعمل بقالاً ويملك محلا أسفل منزل الأسرة، لكن بجانب عمله فى محل البقالة عمل بالسياسة وامتهن عدة مناصب منها محافظ منطقة «جرانتام».. كانت «تاتشر» تساعد أباها فى محل البقالة كل عطلة صيف وكانت كابتن فريق الرياضة بمدرستها، وفى أوقات الفراغ كانت تقرأ فى السياسة والشئون الدولية.. وهكذا ظهر منذ طفولتها ميلها إلى عالم الرجال، ولم يبعدها عن هذا العالم حبها للعزف على البيانو.

فى عام ١٩٥١ تزوجت من «دنيس تاتشر» كان ضابط مدفعية استقال ليعمل مديراً لعدة شركات، وقد أنجبت «تاتشر» من «دنيس» توأمين هما «مارك» و«كارول».. ولقد لعب الزوج دوراً كبيراً فى مستقبل «تاتشر» السياسى، فقد دفعها لدراسة الحقوق ومارست المحاماة وانضمت لحزب المحافظين حيث كانت خطيبة بارعة .. وفى عام ١٩٧٩ وصلت إلى منصب رئاسة وزراء بريطانيا.

عندما تولت منصب رئيس الوزراء عرف عنها قسوة وصلابة شديدة وصلت إلى حد الدكتاتورية.. وكان هذا راجعاً فى معظمه إلي تربيتها الصارمة وطفولتها القاسية. فقد كانت ظروف تنشئتها متواضعة للغاية. أبوها بقال وأمها خياطة، لم تشاهد فى منزل والدها الماء الساخن فى عز الشتاء ولم تعرف التدفئة المركزية.. لقد عاشت طفولتها حياة فقر وبؤس فانعكس هذا على أسلوب حكمها وتوجهاتها فى سياسة العالم.

لقد شهد العالم كله صرامة وتشدد هذه المرأة التى فاقت فى تصرفاتها أعند الرجال. لقد مارست السياسة كمن يمتطى جواداً عنيدا شرسا، دون تراجع أمام الحواجز، سواء فشلت أم انتصرت لا شىء يثنيها عن تنفيذ القرارات التى تتخذها، لاتتراجع رغم نصائح مستشاريها ومعاونيها حتى لو أدى ذلك إلى استقالة بعض الوزراء من حكومتها أو وفاة البعض من المضربين عن الطعام.. وقد سمع العالم كله بموقفها من حرب جزر الفوكلاند مع الأرجنتين وبموقفها من عمال المناجم المضربين.

عرف عن «مارجريت تاتشر» أنها من أكثر رؤساء حكومات بريطانيات فى هذا القرن الذين قاموا بتغيير وزرائهم بشكل فجائى ومتسارع.. وقد كان هذا الأمر ملحوظاً بشكل خاص فى وزارة الخارجية، فقد كانت لا تستطيع التعامل مع الوزير الذى يتمتع بشخصية مستقلة، ويكون مصير هذا الوزير -عادة- إما الإقالة أو الضغط عليه لتقديم استقالته.

فى حياتها الخاصة كانت صلبة فولاذية تماما كما هى فى الحكم .. لم يسمع البريطانيون يوما أن رئيسة الوزراء أقامت حفلة ساهرة أو صاخبة فى منزلها وكان معروفاً عنها أنها لا تحب الضجيج أو السهر.

أما زوجها «دنيس» فهو بالرغم من كونه غنيا ورغم أنه ساعدها كثيراً فى بداية مشوارها السياسى إلا أنه كان أمامها ضعيفاً يفرح عندما تأمره بشىء وكان معتاداً بالطبع على أوامرها ونواهيها

حدث أن كانت «تاتشر» تحتفل بذكرى مرور عشر سنوات على توليها منصب رئيس الوزراء – وهى الفترة التى وصفتها بأنها أجمل سنوات عمرها- وعندما سئل «دنيس» عما إذا كان سعيداً قال : «إننى لست واثقاً من ذلك» عندئذ لكزته «تاتشر» على الفور وقالت : «إنك بالطبع سعيد بذلك ياعزيزى».

وإذا كان السيد «دنيس» زوج رئيسة وزراء بريطانيا السابقة «مارجريت تاتشر» قد تحمل وصبر على حياة باردة كالثلج صلبة كالصخر دون أن يثير فى حياة «تاتشر» أو مستقبلها السياسى أى مشكلة يمكن لخصومها أن يستغلوها.. إذا كان زوج «تاتشر» قد فعل ذلك فإن زوجاً آخر كان سبباً فى تحطيم مستقبل زوجته السياسى.. هذا الزوج هو «هانس كوب» زوج رئيسة سويسرا السابقة «إليزابيث كوب» .. لكن ما هى القصة؟

«إليزابث كوب» من أسرة غنية ولدت فى ١٦ ديسمبر عام ١٩٣٦ وعندما كانت طفلة لم تظهر أى نبوغ دراسى لكنها شعرت بمدى الظلم الذى تتعرض له المرأة السويسرية من جراء عدم مساواتها مع الرجل فى الحقوق وربما كان هذا ما غير من مسار حياتها حتى تمكنت عندما أصبحت فى السلطة من إضافة تعديل إلى الدستور يحفظ للمرأة حقوقها.

التقيت «إليزابيث» مع المحامى الشهير «هانس كوب» الذى سرعان ما تزوجته وأنجبت منه ابنتها «بربجيت».. فى عام ١٩٨٤ أصبحت «الزابيث» عضواً فى حكومة سويسرا الاتحادية وهى حكومة تتكون من سبعة وزراء يتولى كل منهم رئاسة سويسرا عاماً واحداً.. وكانت «إليزابيث» وزيرة للعدل والشرطة وهذا جعلها مؤهلة لتولى رئاسة سويسرا.. لكن !.

لكن وفى واحدة من أكثر قضايا الرأى العام فى سويسرا برز اسم زوج الوزيرة «إليزابيث كوب» كمحام تخصص فى عمليات غسيل أموال المخدرات وتجارة السلاح وهذا جعله يتورط مع تجار من أمريكا اللاتينية والشرق الأوسط فى علاقات مشبوهة.

لقد أظهرت التحقيقات أن الأمر قد تحول إلى فضيحة.. فالوزيرة «إليزابيث كوب» .. وزيرة العدل والبوليس.. حذرت زوجها مما كان أمامها من ملفات وأوراق، وقد أدرك الزوج الموقف بسرعة فتمكن من إخفاء أوراق ووثائق هامة إلا

أن الصحافة كشفت مضمون هذه الوثائق ليقع الزوج وتقع الوزيرة بتهمة تسريب معلومات من خلال مركزها إلى زوجها المنحرف.

ومما أعطى لهذه الفضيحة أبعاداً جديدة أن الوزيرة كانت تردد الكثير عن الأموال النظيفة وغير النظيفة وتحويلات الأجانب المشبوهة.. كان ما تردده الوزيرة لايزيد عن أقوال للاستهلاك المحلى.. بينما هى مع زوجها متورطان فى لعبة غسيل الأموال.

وهكذا تحولت القضية إلى المحكمة.. ووقفت الوزيرة تدافع عن نفسها وعن مستقبلها السياسى، لكن أوراق القضية كانت تفوح بالكثير وجاء حكم المحكمة بسجن الزوج وغرامة الوزيرة مع عزلها من وظيفتها.

كان «هنرى كيسنجر» وزير الخارجية الأمريكى الأسبق يقول : «ماذا تنتظرون من رجل يفطر مع «تاتشر» ويتغدى من «مائير» ويشرب الشاى مع «أنديرا غاندى».. أليس من حقه تناول العشاء مع حسناء تعيد إليه توازنه الطبيعى»..؟! «كيسنجر» يقول بصراحة إنه يتعامل مع نساء «رجال» وإنه لا يشعر بأن أيا منهن امرأة، وهو يريد من الآخرين ألا يلوموه إذا جالس امرأة تشعره بأنوثتها.. إن عبارة «هنرى كيسنجر» تطرح سؤالا: هل تغير السلطة من طبيعة المرأة؟ أم أن هناك نساء بالذات يصلحن أكثر من غيرهن لتولى السلطة؟

ربما وجدنا إجابة على هذا السؤال عند سيدتين كان لهما تأثير على الساحة السياسية ولطالما قارنت بينهما الصحافة.. هما «جولدا مائير» و«أنديرا غاندى».

ولدت «جولدا مابوفيتز مائير» فى روسيا عام ١٩٨٨ وهاجرت إلى الولايات المتحدة وعمرها ثمانى سنوات لتعمل مدرسة، وعندما بلغت التاسعة عشرة تزوجت من «موريس ميرسون» وهو مهاجر روسى أيضاً.

كانت «جولدا» يهودية حتى النخاع، تؤمن بإقامة دولة إسرائيل الكبرى.. وعندما تجمع اليهود فى فلسطين أخذت زوجها إلى هناك دون رغبة منه، وتحملت ظروف قاسية من أجل بناء الوطن كما كانت تقول ..

كانت «جولدا» داهية، لديها القدرة على الإدارة مع استعمال القسوة، وكانت تدخن بشراهة حتى إن أظافرها قد اصفرت من التدخين، لم يكن يعنى لها العالم كله شيئاً، كل ما كان يهمها إسرائيل، وظلت إسرائيل فى دمها حتى ماتت عام ١٩٧٨.

تولت «جولدا» منصب وزيرة العمل ثم منصب وزيرة الخارجية قبل أن تصل إلى منصب رئاسة الوزراء خلفاً لرئيس الوزراء «ليفى أشكول» الذى كان قد توفى قبلاً.

لا يستطيع كائن من كان أن يعتبر هذه المرأة أنثى أو أنها تحمل أى صفة من صفات النساء، لقد كانت رجلاً فى دنيا المرأة.. كان وجهها المجعد ونظرتها القاسية وذقنها العريض لا يوحيان للمرء بأنه أمام امرأة.. لقد عبر أحد السياسيين الإسرائيليين عن هذه المرأة -الرجل- فقال : «دعونا نواجه الأمور بصراحة.. إن شكل «جولدا مائير» يؤكد أنها رجل حتى لو ثبت عكس ذلك».

كانت «أنديرا غاندى» رئيسة وزراء الهند السابقة تشبه فى حياتها - لا فى أعمالها- «جولدا مائير».. فكلتاهما وصلت إلى منصب رئاسة الوزراء وهى أرملة، وكل منهما كان لها طفلان.. كما أن كلا من «أنديرا» و«جولدا» عاشت طفولة فقيرة لم تعرف سوى البؤس.. لكن شتان بين زعامة كل منهما ومنهجها السياسى.

لقد قادت «أنديرا» شعبا يتألف من طوائف وشيع مختلفة: هندوس ومسلمين ووثنيين وبوذيين وسيخ، وكان قدرها أن تموت على يد اثنين من السيخ.. أما «جولدا مائير» فقد قادت شعباً استولى على أرض الغير بدعاوى

باطلة وتحولت فى سياستها إلى الرغبة فى تشريد هذا الشعب - الفلسطينيين- ومحو وجودهم ما استطاعت إلى ذلك سبيلاً.

ولد «أنديرا» فى ١٩١٧ فى بيت عرف الكفاح والعمل السياسى.. جدها «موتى لال» كان محامياً فقيراً ثم صار غنياً وعضوا فى حزب الكونجرس، أرسل الجد ابنه «جواهر لال» إلى كيمبردج فى بريطانيا ليدرس الحقوق، لكن الابن اختار السياسة وتبع المهاتما «غاندى»، واستطاع «نهرو» أن يحقق استقلال الهند عام ١٩٤٧ ليصبح أول رئيس وزراء.

أما «أنديرا» فقد عاشت طفولتها بجوار «غاندى» وآمنت بتعاليمه ومنهجه لتوحيد الهند واستقلالها، كما عاشت مع أبيها «نهرو» الذى تعرض للسجن.. وتعرضت هى الأخرى للسجن عام ١٩٤٢.. وعندما خرجت من السجن تزوجت من عضو البرلمان «فيروز غاندى».

تولت «أنديرا غاندى» رئاسة وزراء الهند عام ١٩٦٦ وفور توليها هذا المنصب واجهت مشكلة خطيرة وهى تزايد النسل فقامت بعمل حملة كبيرة تدعو فيها الرجال الذين يرضون بإجراء عملية تعقيم بأخذ راديو ترانزستور كهدية أو ترضية عن الخصوبة المفقودة.

كانت «أنديرا» أول رئيسة وزراء تتعرض للسجن مرتين وهى فى هذا المنصب.. وقد أدت مظاهرات الجماهير التى أحبتها إلى إطلاق سراحها وعودتها إلى منصبها.. أطلقوا عليها «رجل الهند القوى» وعندما سمعت بهذا اللقب ردت قائلة : «قد لا يكون هذا إهانة للرجال فى حكومتى لكنه بالتأكيد إهانة لى».

قالت «ماجريت تاشتر» عن «أنديرا غاندى» يكفى النظر إلى «أنديرا غاندى» التى انتصرت على باكستان - فى الحرب بين الهند وباكستان عام

١٩٧١- بينما انهزم والدها أمام الصين لنتأكد أن المرأة تملك مميزات فى الحكم لا يتمتع بها الرجال فى حالات عدة»..!!

وهكذا نجد أن المرأة من هذا النوع تتخلص من آخر بقايا الأنوثة فيها للتحول بالفعل إلى عالم الرجال، أنها لا تعد تهتم بالنواحى الجنسية التى تميز حياة المرأة.. فقط يبقى اهتمامها بالسلطة وبالعمل السياسى وهو الشىء الذى تعليه على كل نواحى حياتها حتى كونها أنثى وامرأة.

كورازون أكينو، وشامورو

المرأة ليست للمتعة فقط

وقد يكون غريبا حقا أن أكثر النساء اللاتى حكمن العالم تولين مناصبهن بعد أن ترملن وفقدن أزواجهن باستثناء «مارجريت تاتشر» التى ما عاد زوجها يذكر أنه زوج ومع امرأة.. لقد افتقدها- كما قال بحياء - عندما بدأت عملها السياسى.. وقد عرفنا من هذا الطراز «جولدا مائير» و«أنديرا غاندى».

لكن هناك -أيضا- من النساء من تحولن بعد اغتيال أزواجهن إلي حكم شعوبهم وقيادة الدولة ... نذكر من هؤلاء ... «كورازون أكينو» و«سيريمافو باندرانيكه» و«فيوليتادى شامورو».

كانت «ماريا كورازون كونخوانكو» التى ولدت عام ١٩٣٣ ست بيت بكل ما تعنى هذه الكلمة، فرغم أنها قد درست الحقوق إلا أنها عندما تزوجت من «بنينو أكينو» تفرغت لبيتها وزوجها وأولادها الخمسة.. حتى عندما دخل «أكينو» السجن لمدة سبع سنوات ونصف السنة بتهمة ملفقة بهدف التخلص منه، لم تغير «كورازون» من سلوكها كست بيت، لكنها تحولت مع ذلك إلى داعية لأفكار زوجها تنقلها لأتباعه من سجنه.. وعندما أفرج عن الزوج اغتيل غدراً فى المطار بتحريض من ديكتاتور الفلبين «فرديناند ماركوس».. وعلى الفور اغتيل قاتله «رونالدوجالمان».

انهدش الجميع لهذا الهدوء الذى تحلت به «كورازون» بعد مقتل زوجها وسارت فى مقدمة مليون فلبينى يشيعون جثمانه، وامام مقبرته أقسمت على الثأر وعلى مواصلة الطريق للقصاص من القتلة الذين يعتلون كرسى الرئاسة.

كان تحولا أثار كثيرا من التساؤلات.. كيف اكتسبت هذه المرأة الشجاعة والإرادة على مواجهة قوى غشيمة غادرة.. لقد خاضت الانتخابات ورغم كل

محاولات «ماركوس» للتزوير ورشوة الناخبين إلا أنها فازت وخرج المهزوم من الفلبين كلها.

عام ١٩٨٦ اعتبرتها مجلة «تايم» الأمريكية «رجل السنة» وذلك لتصميمها وشجاعتها على رأس ثورة ديموقراطية خطفت إعجاب العالم، وكانت «كورازون» هى الثالثة التى تحصل على هذا اللقب بعد «واليس سمبسون» الأمريكية المطلقة التى تنازل ملك بريطانيا «إدوارد الثامن» عن العرش ليتزوجها عام ١٩٣٦، وكانت الثانية ملكة بريطانيا «إليزابيث الثانية» عام ١٩٥٢.

«كورازون» -إذن- امرأة عاشت حتى سنة ١٩٨٣ تاريخ اغتيال زوجها كست بيت تطبخ وترعى أولادها وزوجها.. كانت حياتها حتى هذا التاريخ كغيرها من السيدات، لكن كل ذلك تبدل وتحول مائة وثمانين درجة لتغوص فى عالم السياسة وتواجه الديكتاتور وتنتصر.

لقد وصلت إلى رئاسة الجمهورية عام ١٩٨٦ وهو العام الذى اعتبرتها فيه مجلة «تايم» أنها رجل السنة.. لقد تخلصت من بقايا الأنوثة فيها وتحولت بالفعل إلى رجل وإذا لم تكن قد تحولت لما بلغت هدفها..

تقول «كورازون بعد انتصارها: «عندما أكون امرأة فإن النجاح يتطلب منى مضاعفة العمل».. حقا ما قالت وهذا يقضى على ما بقى فيها من أنوثة.

أما «سيريمافو باندرانايكه» فقد كانت أول رئيسة وزراء فى العصر الحديث.. وكانت «باندرانايكه» مثلها مثل «كورازون» مجرد ست بيت تقوم قانعة بكل ما تعمله المرأة لبيتها وزوجها وأولادها.. لكن ذلك تغير عند وفاة زوجها «باندا» رئيس وزراء سيلان عام ١٩٥٩ إثر مصرعه اغتيالاً.

لقد كان اغتيال «باندا» لسبب بسيط وغريب.. كان هذا على الأقل هو ما يبدو، فقد اغتاله راهب بوذى احتجاجاً على تفضيل «باندا» الأدوية الغربية على

الوصفات التى تحضر من الأعشاب.. لكن السبب الحقيقى يعود إلى الإنشقاق الذى حدث فى الجزيرة بين البوذيين الناطقين بالسنهالية والهندوس الناطقين بالتاملية وهو الصراع الذى مازال قائما حتى اليوم.

كان اغتيال الزوج «باندا» بمثابة نقطة تحول «باندرانايكه»، حيث تحولت عن مهام ست البيت القانعة بدور المرأة العادية إلى العمل السياسى، فرشحت نفسا عن حزب الحرية وفازت بمقعد رئيس الوزراء بعد عام واحد من اغتيال زوجها.

وبالمثل كان تحول «فيوليتا باريوس دى شامورو» إلى السياسة بعد اغتيال زوجها «بيدرو جواكين شامورو» عام ١٩٧٨ بيد أحد أعوان ديكتاتور نيكاراجوا «ساموزو».

لقد ولدت «شامورو» عام ١٩٢٩ فى مدينة «ريفاس» من أسرة غنية وعندما بلغت مبلغ المرأة تزوجت من السياسى «بيدرو شامورو» صديق شقيقها.. وكان «بيدرو» صاحب جريدة «لابرنسا» التى تحولت صفحاتها إلى مقالات نارية تنتقد حكم «اموزو الديكتاتورى».

كانت السيدة «شامورو» مجرد زوجة تقف بجوار زوجها فى كفاحه، وكثيراً ما كانت تأخذ الطعام لزوجها خلال دخوله المتكرر إلى السجن.. وعندما تعرض الزوج للنفى فى كوستاريكا كانت كأى زوجة مخلصة تقف بجوار زوجها.

كان اغتيال «بيدرو» إيذاناً ليس فقط بتحول السيدة «شامورو» إلى العمل السياسى والكفاح ضد الطاغية ولكن إلى ثورة قام فيها ثوار الساندنيستا بقيادة «دانيال أورتيجا» من الإطاحة بـ «ساموزو» ودخول «مانجوا» عام ١٩٧٩.

لم ترض السيدة «شامورو» عن سياسة الساندنيستا فعارضتها وأكملت

مشوار زوجها بالمعارضة من خلال جريدته «لابرنسا» وواجهت أيضاً صراعاً داخل عائلتها أدى إلى انقسام فى توجهات أولادها الأربعة.

إلا أنها رغم كل ذلك تمكنت -بطباع الرجال- من الوصول إلى الحكم عام ١٩٩٠ وكانت فى الستين من عمرها تسير على عكازين.

تاتشر .. الكلام للرجال والفعل للنساء!

لقد أرادت المرأة أن تتجاوز غريزتها أو تتصور أنه عقدتها بأنها لا تزيد عن مجرد وعاء للرجل وحافظة للحياة بأن تكون مهيمنة على دنيا الرجل قابضة على الحياة وأنها لم تولد لتكون مطواعة كما تقول بذلك عالمة النفس «كارين هورنى».

كان الجنس لعبة المرأة الأولى وسلاحها الفعال فى قهر الرجل وجعله دمية تحركها بأناملها الناعمة الرقيقة كيفما شاءت.. وهى تدرك أن الرجل ضعيف أمام لذته وأن مقاومته هشة أمام ما تظهره له من مفاتن جسدها وما تتمتع به من جاذبية جنسية.

وهكذا حققت المرأة الكثير فى دنيا الحكم والسياسة من خلال المقايضة البسيطة.. الجنس مقابل السلطة.. وقد وجدت المرأة أن الكل على استعداد لإتمام الصفقة بداية من «كليوباترا» حتى «إيزابيلا بيرون».

بل إن البعض من النساء الطامحات إلى السلطة استطعن السيطرة على أزواجهن- رؤساء وملوك- وتحولن بالفعل إلى قابضات على أمور الدولة.. رأينا مثل هؤلاء فى مصر والصين وفرنسا وغيرها .. ولا يستطيع المرء ببساطة معرفة السبب الذى يجعل رئيساً «السادات» أو زعيما« ماوتسى تونج» ضعيفا أمام زوجته لا يستطيع أن يرفض لها طلباً مهما كان هذا الطلب يتعلق بأمور الدولة أو السياسة الخارجية.. هل يمكن أن يكون السبب جنسياً؟.. ربما .. فالرئيس فى نهاية الأمر بشر يملك ملامح ضعف البشر وكل ما يمس حياته الخاصة من تهافت على المتعة الجنسية قد يجعله ألعوبة فى يد زوجته تحركه بالصورة التى تراها دون أن يتمكن من المقاومة، فمهما أظهر من خشونة أو عناء خلال ساعات النهار فسوف يتحول إلى كائن وديع مطيع لا يرد لها طلباً عندما يضمه والزوجة الناعمة فراش واحد

كان الدكتور «عبد العزيز سليمان» رئيس جامعة عين شمس السابق والذى تعرض للتجريح والإهانة الشديدة التى كادت أن تؤدى به إلى السجن لأنه قال لـ «جيهان السادات» «لا».. كان الدكتور يقول عن «جيهان» : «أنها كانت تستطيع أن تقضى على أى وزير بفتيلة صغيرة لأنها تصلها الشائعات والدسائس، وهى تبلورها وتوصلها لـ «السادات» فى «حباية» قبل النوم !!..

حتى البعض من نساء السلطة اللاتى وصلن إلى كرسى الحكم دون أن نلمح رائحة الجنس فى طريق الوصول نرى أنهن يخضعن إلى واحد من اثنين. إما أن تكون المرأة منهن فى سلوكها ومظهرها «رجلاً» بكل ما تعنى هذه الكلمة.. وقد تعرضنا لـ «جولدا مائير» وهى من هذا النمط المسترجل.. أو قد تكون امرأة السلطة قد ودعت حياة السجن بل نفضت من يديها كل ما يربطها بدنيا الأنوثة، ورأينا أمثلة من هؤلاء وقد تحولن من ربات بيوت إلى ثائرات طامحات إلى السلطة بعد اغتيال أزواجهن.. وقد رأينا «كورازون أكينو» فى الفلبين و«دى شامورو» فى نيكاراجوا و«باندرانياكه» فى سيلان.. إنهن كمن استبدل الأنوثة المفقودة ببريق السلطة وصولجان الحكم.

لاشك أن المرأة تحكم العالم شئنا أم أبينا.. فهى ليست النصف الحلو بل النصف المسيطر.. والمرأة فى أغلب الأحيان هى رئيسة وزراء حكومة الظل فى كل دول العالم.

وقد سمعنا «إميليدا ماركوس» زوجة ديكتاتور الفلبين الراحل «فرديناند ماركوس» وهى ترد على انتقاد أحد المعارضين لها بأن تكون نائبة لزوجها «ماركوس» فى حكم الفلبين.. فقد قالت بسخرية .. ماذا يقول هذا الأبله وهل أحد يحكم الفلبين غيرى»!!.. بل إن «مارجريت تاتشر» رئيسة وزراء بريطانيا السابقة لخصت القصة كلها حين قالت: «الكلمة للرجال والفعل للنساء»!!



الفصل الرابع

قادة أوروبا

نابليون يصيب الهدف

جرى أطفال الجزيرة إلى الشاطئ الصخرى. كان «نابليون» يجرى معهم.. ولكن «شاربه» ذا الشعر الأحمر هتف به :

- إلى أين أنت ذاهب «يا نابليون».. أنت قصير القامة ولا تصلح لأن تكون جندياً.. ولكن «نابليون» نظر إليه فى غيظ وهو يهتف:

- بل سوف أصبح جندياً.. وسوف أكون أيضا قائدا عليك.

وواصلوا الجرى وبذل «نابليون» جهداً مضاعفاً حتى سبقهم جميعا إلى شاطئ الجزيرة.

كانت السفينة الكبيرة القادمة من فرنسا قد وصلت إلى شاطئ جزيرة كورسيكا. كانت تأتى فى هذا الميعاد من كل عام لكى تختار الأطفال الصالحين للتجنيد وتحملهم إلى فرنسا حيث يتعلمون الفنون العسكرية ويصبحون جنوداً فى خدمة الملك لويس الرابع عشر ملك فرنسا.

كانت الجزيرة فقيرة. ولم يكن البحر سخياً مع أهلها من الصيادين. كان يعطيهم أحيانا .. ويثور أحيانا فيغرق سفنهم القديمة.. لذلك فقد كان التجنيد فى الجيش فرصة لهؤلاء الأطفال من أجل راتب أفضل وحياة مريحة فى فرنسا. وكانت ثياب الجندية الملونة تملؤهم بالزهو والكبرياء.

وعندما وصل الأطفال وجدوا الجنود وقد اختاروا تلا مرتفعا بجانب الشاطئ. ونصبوا عدة خيام فوقها العلم الفرنسى. وكان بعض الآباء والصيادين يقفون يراقبون عملية الاختيار وكل أب منهم يتمنى أن يقع الاختيار على ابنه.

أمر الضابط الأطفال أن يقفوا فى صفين مستقيمين. ووقف «نابليون» فى الصف الثانى. وطلب الضابط من كل طفل أن يذكر اسمه. وتعالت الأصوات :

- سيمون .. راؤول.. فرانس.. شاريه نابليون . جان.

وأخذ الضابط يسير بمهل.. يتأملهم طول قامتهم . لون بشرتهم. هل صحتهم جيدة . هل يتحملون تدريب الجندية الشاق. وأخرج الضابط من الصف العديد من الأطفال . كانوا شاحبى الوجوه. يعانون من الضعف والهزال. ولكنه لم يخرج «نابليون» . يلاحظ أن قامته أقصر من الآخرين.. كان فى مستواهم.. وربما أعلى قليلا . وأمر الضابط أحد الجنود أن يسجل أسماء هؤلاء الأطفال الذين وقع عليهم الاختيار.. وفى هذه اللحظة تقدم «شاريه» بشعره الأحمر ولكز «نابليون» بقوة فألقاه على الأرض وضحك كل الأطفال. وهتف الضابط .

- سكوت .. كفى ضحكاً.

وصمت الأطفال على الفور واستدار الضابط فلمح «نابليون» الواقع على الأرض. أمره بالنهوض فى صوت صارم :

- انهض أيها الغلام. عندما تصبح جنديا لا يجب أن تقع بدون سبب.

وقال «نابليون» وهو ينظر ناحية «شاريه» فى غيظ :

- أسف.. لقد تعثرت يا سيدى

وانتظر الضابط حتى اعتدل الغلام. ولكن ما هذا؟ إن قامته أقصر من الآخرين لحد واضح.

كيف لم يلاحظ هذا فى البداية. لقد وقف فى الصف ونطق اسمه وكان فى مثل قامة الآخرين.. قال الضابط :

- لقد كنت طويل القامة .. ماذا حدث؟

وهتف «نابليون » بارتباك:

- لا شىء يا سيدى.. إننى طويل القامة بالفعل.

وضحك الأطفال. وفكر الضابط فى نفسه لابد أن هناك خدعة ما. ودخل الضابط بين الصفين فوجد حجراً عالياً كان « نابليون» يحاول الوقوف عليه.. وهتف الضابط :

- آه.. هذا هو السبب إذن!!

ونزل «نابليون» من فوق الحجر بارتباك.. وود فى هذه اللحظة لو يستطيع قتل «شاريه» . وقال :

- عفوا ياسيدى .. ولكننى متشوق لأن أكون جندياً.

قال الضابط فى حزم : لا يليق بالجندى أن يكون غشاشا مزورا.

قال «نابليون» : أرجوك يا سيدى. لا تجعل قامتى القصيرة تقف عائقا أمامى.. إننى أجيد العدو.. والمصارعة.. والملاكمة.. وأجيد الرماية بصفة خاصة.. إننى لا اخطئ الهدف أبداً ويمكن أن أكون جنديا ممتازا من جنود المدفعية.

قال الضابط : ولكن قامتك سوف تكون قصيرة يا بنى.

قال «نابليون» : سوف أنمو يا سيدى.

قال الضابط : عليك إذن أن تنتظر حتى العام القادم.

وشعر « نابليون» بالحزن. ولكنه لم يكن بالطفل الذى ييأس بسهولة. عاد يقول للضابط :

- سوف أقوم باختبار عملى أمامك يا سيدى لعلك تقتنع بمهارتى فى الرماية. انظر إلى أسفل التل.. هناك حيث يوجد القارب الذى نقل الجنود من السفينة إننى أستطيع أن أصيبه من هنا.

نظر الضابط إلى حيث يوجد القارب. كان بعيداً جداً. لا يظهر منه غيري العلم الذي يرفرف عليه.

وقال الضابط فى سخرية : مستحيل إنه بعيد جداً ولا أستطيع أن أراه إلا بصعوبة.

قال «نابليون» : يمكننى أن أصيبه بأحد الأحجار.. كلا .. سوف أصيب الدقة.. أجل.. الدقة على وجه التحديد.

وضحك الضابط . وضحك بقية الجنود والأطفال على إصرار «نابليون» . وأخرج الغلام مقلاعاً صغيراً من جيبه وربط فيه الحجر وأخذ يدور به فى الهواء عدة دورات ثم قذف به بأقصى قوته إلى أسفل التل.. ونظر الضابط فى أثره فلم يعرف إن كان قد أصاب القارب أم لا وعاد ينظر إلى «نابليون » فى إشفاق وهو يقول :

– اسمع أيها الفتى.. الجندية تختلف عن ألعاب الأطفال. نحن هناك لا نستعمل المقالع ولا الأحجار ولكن نستعمل السيوف والمدافع.. لماذا لا تذهب وتبحث عن مهنة أخرى غير الجندية. وأحنى «نابليون» رأسه. وجاهد حتى لا تنزل الدموع من عينيه. وترك الساحة. والجنود والأطفال الذين تم اختيارهم. وانسحب وحيداً . لقد فشل. ولن ينجح أبداً فى أن يكون جندياً.. لن يعود إلى القرية ولن يخبر أمه بهزيمته سوف يذهب إلى التلال البعيدة ويقذف البحر بالأحجار حى تهدأ حدة غضبه.

وجمع الجنود الخيام. وأنزلوا العلم. وطلبوا من الأطفال الذين وقع عليهم الاختيار أن يذهبوا ويحضروا أمتعتهم الشخصية استعدادا للسفر فى الصباح المبكر إلى فرنسا. ثم اصطف الجنود فى صف واحد وبدءوا يهبطون التل فى طريقهم إلى السفينة لقضاء الليلة فيها.. وكان الضابط هو أول من قفز إلى القارب.. ما هذا؟.. لقد وجد حجراً. أجل.. الحجر نفسه الذى ألقاه الطفل القصير القامة. مستحيل أن يصيب الهدف من هذه المسافة البعيدة..

لابد أنها المصادفة.. ولكن .. لقد قال الغلام أنه يمكنه أن يصيب دفة القارب.. اتجه الضابط إلى الدفة وتفحصها.. هناك علامة حديثة عليها. إنها العلامة التى أحدثها الحجر.. إنها ليست مصادفة. هذا الصبي بارع فى الرماية حقا وسوف يكون جنديا رائعا للمدفعية.. والتفت الجندى الذى كان يقف بجانبه وهو يقول له :

– أيها الجندى . عد إلى الجزيرة واحضر هذا الصبى القصير.. يجب أن يلحق هذا الرامى البارع بالجيش.

وفى صباح اليوم التالى توجه طابور الأطفال إلي السفينة. كان الصبى القصير يتقدمهم وعلى وجهه كل علامات السعادة. وأدي التحية فى فرح أمام الضابط الذى قال له :

– ما اسمك أيها الفتى ؟.

هتف الغلام : «نابليون بونابرت» ياسيدى.

قال الضابط : لن أنسى هذا الاسم أبداً.

ولم يكن فى مقدور أى واحد فى فرنسا أن ينسي. لقد أصبح هذا الجندى القادم من كورسيكا أبرع قواد الجيش. ثم أصبح قائده الأول. كان عبقرية حربية استطاعت التغلب على العديد من الجيوش التى حاربها وفتح أوربا كلها من جديد وكان يؤمن أن الهجوم هو خير وسيلة للدفاع وأن المعارك يجب أن تكسب بالذكاء أولا ثم بالقوة ثانياً. وقاد فرنسا إلى انتصارات كثيرة ثم أصبح أول حاكم وامبراطور لفرنسا ودخل القائد «نابليون بونابرت» التاريخ كواحد من أبرع قواد الحرب فى العالم.

الغازى أتاتورك (مصطفى كمال)[1]

أحبه البعض فكرمه فى حياته ومجده، ورفعه بطلا فى الحرب، ومصلحا فى السلم، وأبا للترك (وهو معنى: أتاتورك)، فلما مات بكاه وترحم عليه واستغفر له. ومقته البعض فناوأه فى حياته وسفهه، وخذله خائنا فى الحرب، مدمرا فى السلم، ومهينا للترك، فلما مات، رماه، وسخط عليه، وتمنى له اللعنة وعذاب الجحيم.

لكن بلا شك أو جدال، كان مصطفى كمال (أتاتورك، أو الغازى قائدا ذا قدر، وزعيما ذا عزم، وثائرا أثر وثار. ولو أننا نحينا الحظوظ والمصائر جانبا، فلن نستطيع التغاضى عن دوره المشهود فى النضال، وجهده الموفور فى التحديث، وتغييره الشامل فى السياسة، والاتجاه، والتشريع، ونظام الدولة وصياغة المجتمع.

ولد بمدينة سلانيك (١٢٩٨هـ/١٨٨٠م) لأب يعمل بوظيفة صغيرة بميناء تلك المدينة، وإن كان أصل الأسرة فى قرية بالأناضول وسط تركيا. فلما مات أبوه، أرسلته أمه- وكان غلاما- إلى عمه بقرية لا تبعد كثيرا عن سلانيك، فاشتغل بالمساعدة فى أعمال الزراعة وتربية الماشية. فلما بلغ الحادية عشرة من عمره، الحقته أمه بمدرسة أهلية ثانوية فى سلانيك، تركها بعد سنة ليلتحق بمدرسة حربية بالمدينة ذاتها، وهى واحدة من تلك المدارس التى كان السلطان

---

(١) كان يخفى يهوديته وكان عدوا للاسلام راس جمعية الاتحاد والترقى الماسونية اليهودية وأنهى دولة الخلافة الإسلامية حكم القوانين الوضعية بدلا من الشريعة الإسلامية وأغلق المساجد وقتل العلماء وأحرق المصاحف وفرض العرى والسفور وساوى فى الميراث بين المرأة والرجل وحرم تعدد الزوجات وحرم الطلاق وسن عقوبة الإعدام للمرأة المحجبة وصبغ تركية بصبغة أوروبية خالصة والحادية علمانية وكان عميلا للاستعمار ونص فى الدستور التركى على أن تركية دولة علمانية وجعل للجيش وصاية على الحكومات ومراقبة لتطبيق الدستور العلمانى الاحادى .

ينفق عليها من ماله الخاص. وفى أثناء العطلة المدرسية، كان يدرس اللغة الفرنسية -سرا- على يد رجل فرنسى يرأس أحد الأديرة ويدير مدرسة بالمدينة، ويحيط مصطفى برعاية خاصة.

ثم انتقل إلى المدرسة الحربية فى استانبول، وتخرج منها ضابطا وكان في العشرين من عمره. وسرعان ما اتصل مبكرا بجماعة الضباط الشبان الأحرار، الذين كانوا يضمرون السوء للسلطان العثمانى عبد الحميد الثانى، ويأتمرون به ليعزلوه. لكن عيون جواسيس السلطان كانت تترصدهم وتتبع تحركاتهم، فألقى القبض على بعضهم، وكان من بينهم مصطفى كمال. وبدلا من تشديد العقوبة عليهم، ترأف بهم السلطان، واكتفى بنفيهم إلى أماكن بعيدة عن العاصمة، مقدرا حداثة سنهم، فرحل مصطفى إلى دمشق.

لكنه فى دمشق لم يستطيع صبرا، فهرب منها سرا إلى سلانيك، وانضم إلى جمعية الاتحاد والترقى، وكان أكثر أعضائها من الضباط ومعهم قليل من علماء الدين، وهدف الجميع : عزل السلطان وتولية غيره يحكم البلاد حكما دستوريا- لا استبداديا- وينفذ إصلاحات ضرورية حديثة.

زاد نشاط تلك الجمعية، وتعاظم خطرها، حتى أرغمت السلطان على إعادة الدستور المعطل، وأجريت انتخابات لمجلس النواب، فاز أعضاء الجمعية بأغلبية مقاعده، وغيروا اسمها من الاتحاد والترقى إلى حزب تركيا الفتاة.

كان قد وقع خلاف بين مصطفى كمال وزعماء الجمعية : فهو يرى أن الجمعية -وهى منظمة ثورية- كان هدفها الحكم الدستورى، وقد تحقق، فواجب إذن عليها أن توقف نشاطها وتدع الأمر فى يد السلطة الشرعية الدستورية. لكنه سمع من قيادتها ما أدهشه: إن مهمتنا لم تنته بعد، بل هى قد بدأت!

فى ذلك الوقت.. كانت الدولة العثمانية فى آخر مراحل انحدارها سياسيا واقتصاديا وعسكريا وتشريعيا واجتماعيا وأخلاقيا.. فالصراعات ساخنة

والمفاسد فاشية، والفتن دائرة، والدسائس جارفة، والنفوس حائرة، ومطامع المستعمرين تحتدم : بريطانيا، وفرنسا، وروسيا، وألمانيا، والنمسا، وايطاليا.. وفى داخل الدولة – أو الإمبراطورية – العثمانية قلاقل ومعارك فى الأقاليم والولايات، وبين أصحاب المذاهب والنزعات والأقليات، وشعوب أجناس تعلن العصيان، وولايات تقاوم السلطان، وأخرى تشعل حروب الاستقلال.

ودخلت الدولة العثمانية الحرب العالمية الأولى بتحريض من حزب تركيا الفتاة، بعد أن وقفت فى بداية تلك الحرب موقف الحياد، فانضمت إلى جانب ألمانيا والنمسا ضد دول الحلفاء : بريطانيا وفرنسا وايطاليا وروسيا. واشترك مصطفى كمال فى تلك الحرب كضابط بالجيش العثمانى ينفذ ما يطلب منه. لكن شهرته ذاعت وتألق اسمه فى معركة جاليبولى (١٣٣٤هـ/١٩١٥م) حين أراد الإنجليز اقتحام الدردنيل بسفنهم لنجدة القوات الروسية الكسيرة المنهزمة، فتصدى مصطفى كمال وجنوده للقوات البريطانية وردها على أعقابها كسيفة خاسرة.

لكنه –فى نفسه– كان ناقما على قيادة الدولة وعلى حزب تركيا الفتاة المضطلع بالحكم، لاقحام تركيا فى حرب غير مستعدة لها عسكريا واقتصاديا وفى ظروف الاضطراب والقلاقل والفساد المتفشى بها، فضلا عن لهفة الدول الاستعمارية فى الإجهاز عليها لتقتسمها – بأقطارها وولاياتها– غنيمة سائغة. فكانت نتيجة الحرب فى تقديره – منذ البداية – سيئة لبلاده مجدبة.

وحدث ما توقعه. فقد هزمت ألمانيا ومعها تركيا، واحتلت بريطانيا وحلفاؤها استانبول عاصمة الدولة. واضطرب الأمن فى الأناضول، فعهد إلى مصطفى كمال بإعادة النظام هناك وإقرار الأمن. وأظهرت بريطانيا خبثها المعروف وحقدها على بلاد العروبة والإسلام، فمكنت لليهود فى أرض فلسطين، ونقضت عهودها مع العرب، ووضعت يدها على العراق، وساعدت اليونان على احتلال منطقة أزمير داخل الأراضى التركية.

وهى اليونان التى كانت بالأمس القريب ولاية تابعة خاضعة للسلطان العثمانى، فاستشاط أهل الأناضول غضبا وغيظا، وهم قوم قتال أشداء، وألهب حماسهم للانتقام ما بلغهم عن بشاعة أعمال اليونانيين فى أهل أزمير المسلمين وما حولها : قتل، وذبح، واغتصاب ، وتدمير، ونهب.. فألف منهم مصطفى كمال جيشا .

واستطاع بحنكة حربية وشجاعة، وبإقدام المقاتلين الأشداء معه، أن يسحق جنود اليونان الأكثر عددا والأقوى سلاحا بدعم من بريطانيا وحلفائها، وتمكن من طردهم خارج أزمير والأراضى التركية، ولو أنهم خرجوا بوحشية مسعورة: إذ أحرقوا المدينة والقرى وسفكوا كثيرا من دماء المواطنين، رجالا ونساء وأطفالا، من السكان المدنيين.

والمدهش، أن إنجاز مصطفى كمال وإنقاذه سيادة وكرامة بلده، أغضب السلطان القابع فى العاصمة استانبول تحت رحمة الإنجليز وحلفائهم، إذ خشي استياء المحتلين من انتصارات مصطفى كمال، فيزداد عسفهم وضغطهم وتماديهم فى إنزال النكبات، فاستصدر فتوى من شيخ الإسلام بتمرد وعصيان مصطفى كمال، وأنه يستحق لعنة الله وغضبه،

فأمر السلطان بالقبض عليه وإعدامه مع بعض أنصاره. وفى المقابل، أصدر علماء الأناضول فتوى تناقض فتوى شيخ الإسلام، وأعلنوا أنها تخالف نصوص القرآن الكريم، وأن الشيخ أصدرها إرضاء للإنجليز وحلفائهم وبإيعاز منهم. فكان لزاما على الغازى مصطفى كمال أن يمضى فى طريقه حتى النهاية. وتطورت الأحداث :

لم يكترث مصطفى كمال بالسلطان وحكومته المركزية فى استانبول. ودعا إلى عقد جمعيه وطنية كبرى فى أنقرة (أبريل ١٩٢٠) انتخبته رئيسا لها ورئيسا

لمجلسها الوزارى ومنحته لقب «الغازى». وفى يوليو ١٩٢٣ وقعت معاهدة لوزان التى أقرت سيادة تركيا على آسيا الصغرى كلها وعلى استانبول وتراقية الشرقية. وفى اكتوبر ١٩٢٣ أعلنت الجمعية الوطنية قيام الجمهورية التركية برئاسة مصطفى كمال. وفى مارس ١٩٢٤ ألغى منصب الخلافة، ثم وضع دستورا جديدا للبلاد، وسار بتركيا فى طريق جديد نحو التحديث والأخذ عن أوروباواسترضائها

قطع الغازى صلته بالدول العربية والإسلامية. وفرض الزى الأوروبى والقبعة كلباس. وأمر بكتابة اللغة التركية بحروف لاتينية، بدلا من العربية. واستمد من سويسرا القانون المدنى، ومن ايطاليا القانون الجنائى، ومن ألمانيا القانون التجارى. ومنع تعدد الزوجات. واتخذ القانون الأوروبى فى الأحوال الشخصية، بدلا من أحكام الشريعة الإسلامية وقوانينها. وألغى وزارة الأوقاف وحول شئونها إلي وزارة المعارف (التعليم). ومنع بشدة جميع الطرق الصوفية، وأغلق زوايا الدراويش. وبطش بشدة كل معارضة لآرائه وأحكامه وتشريعاته، خاصة إذا صدرت تلك المعارضة (أو حتى النصح) باسم الدين.

وفى عام ١٩٣١ حددت الحكومة - بعد أن فصلت الدين عن الدولة والحياة العامة - عدد المساجد وخفضت عدد الوعاظ، وحولت جامع أيا صوفيا الشهير إلى متحف، ومسجد الفاتح إلى مستودع. وحذفت فى العام التالى اللغة العربية من مناهج التعليم، ومنعت الأذان للصلاة باللغة العربية، وأباحت لمن أراد من المسلمين أن يبدل دينه متى شاء. ثم اتجهت الثقافة التركية نحو الثقافة الغربية تستمد منها وتقتات عليها : فى الآداب، والموسيقى، وبقية الفنون. وارتكزت السياسة الداخلية على جيش قوى مدرب، عهد إليه بحماية النظام الجديد، والمستحدثات والتغييرات التى سارت تركيا على نهجها حتى نهاية القرن، بعد وفاة الغازى (١٣٥٧هـ/١٩٣٨م).

السياسى العجوز (وينستون تشرشل)

نادرا ما يحدث فى التاريخ توافقا منجزا منقذا بين أزمة خطيرة متحدية تنذر بكارثة، وبين ظهور رجلها الملائم، المكتمل المواصفات المطلوبة لمواجهتها، مثلما حدث فى ١٠ مايو سنة ١٩٤٠، عندما حل وينستون تشرشل محل تشامبرلين فى منصب رئاسة الوزارة البريطانية، غداة إشعال أدولف هتلر نيران الحرب العالمية الثانية، وإن جلبت نتائج الحرب المخربة لوما من الشعب البريطانى وإطاحة بتشرشل.

فى عام ١٨٧٤ ولد مع غروب شمس العصر الفيكتورى. وقُدر لتشرشل أن يعيش حياة ممتدة طويلة ومتسعة عريضة : فصاحب مولد عصر الطيران. وشهد اندلاع حربين عالميتين كبيرتين، وحروبا وأزمات أخرى ثانوية، ورأى قيام وسقوط النازية، وأبصر شروق فجر العصر النووى، وتفجير القنابل الذرية، ثم أغمض عينيه إلي الأبد مع غروب شمس الامبراطورية البريطانية (التى ما كانت تغرب عنها الشمس)، وقد سلمت - مرغمة - رايتها القيادية إلى الولايات المتحدة الأمريكية، وأصبحت تابعة مطيعة لها.

بدأ حياته العملية فى كوبا عام ١٨٩٧ كصحافى متجول تصيب «خبطاته» الصحافية وتخطىء، ثم دخل معترك الحياة البرلمانية، فينجح فى الانتخابات ويفشل، ثم احتل مناصب وزارية، أخذت تقربه شيئا فشيئا من مركز السلطة، إلى أن شغل هذا المركز فى أسوأ وأسود أيام بريطانيا بالعصر الحديث، وأسوأ وأنكد أيام العالم فى القرن العشرين. فوضع وينستون تشرشل بصمته واضحة بارزة على تاريخ بلده وعلى سجل القرن، واستقر اسمه فى ذاكرة الدنيا كلها وعلى لسان أهلها، وإنه لمن العسير حقا أن يُمحى سريعا أو يُنسى.

فى أشد أيام الحرب العالمية الثانية قسوة وهلاكا ومرارة، عندما وقفت

بريطانيا وحدها تقريبا فى مواجهة تحديات هتلر، وقف هذا الرجل راسخا كالطود، أو كأنه عازل صخرى بين نافورة حريق لاهب عند مدخل بناية مكتظة بالسكان ينتابهم الجنون والفزع. ثم إذا به - من خلال قيادته الواثقة الثابتة الفذة، وإشارته المبتكرة باصبعيه علامة على النصر (V) التى انتشرت فى العالم كله وتوارثتها الأجيال، وبأحاديثه المتكررة البليغة بالإذاعة، يوجهها إلى أمته الوجلة المحاصرة - إذا به يشع السكينة، وينشر الطمأنينة، وينفث روح الثبات والتضحية والعزم على مواصلة النضال، وإن طال المدى، حتى الفوز.

هذا موجز حياة تشرشل الذى شارك بنصيب كبير فى صياغة القرن العشرين.

الصعود نحو القمة :

لو أن آدولف هتلر لم يولد، ولو أن الحرب العالمية الثانية لم تنشب، لكان من المرجح أن ينال أيضا وينستون تشرشل قسطا كبيرا من النجاح والتفوق والشهرة، وكل ما يبتغيه العاملون باقتدار فى خدمة التاج البريطانى.

قبل اندلاع الحرب العظمى (العالمية الأولى) كان تشرشل عضوا بالبرلمان البريطانى، ثم سكرتيرا برلمانيا عام ١٩١٠، ولسنوات بعد ذلك . وفى عام ١٩١١ يعين أميرا للبحرية، وفى عام ١٩١٥ مستشارا لدوقية لانكستر، وفى عام ١٩١٧ وزيرا للعتاد والذخيرة، ثم فى عام ١٩١٩ سكرتيرا وزاريا للحرب (والطيران).

وعلى الرغم، من أنه -كسياسى- جر على نفسه -لجرأته وحدته- الكثير من المواقف الصعبة فى الجدل والنزاع، إلا أن الأزمة الحقيقية التى تعرض لها كانت فى عام ١٩١٥ عندما أمر - كأمير أول للبحرية - بارسال حملة لتحرير الممر بين بحر إيجه وبحر مرمرة، بهدف كسر حدة الموقف المعقد على الجبهة الشرقية، وتحقيق اتصال مباشر مع روسيا. لكن الحملة البحرية فشلت فى معاركها، وألقى كثيرون اللوم على تشرشل.

عندما بدأت ظلال النازية وأطياف معالم هتلر تلوح متعاظمة فى آفاق أوروبا، كان تشرشل يخوض «معاركه» السياسية متراوحا ما بين الهزيمة والنصر فى الانتخابات البرلمانية، إلا أنه عُين فى عام ١٩٢٤ مستشارا للخزانة العامة للدولة. ثم يقفز إلى المقدمة مرة أخرى عند وقوفه بقوة إلى جانب الملك إداورد الثامن أثناء أزمة التنازل عن العرش.

فى عام ١٩٣٩ يعين مرة ثانية أميرا أول للبحرية البريطانية عندما أطلق هتلر جيوشه لتجتاح أوروبا، وعاشت بريطانيا أحلك أيامها فى القرن العشرين. وفى عصر التاسع من مايو عام ١٩٤٠ التقى كل من نفيل تشامبرلين (رئيس الوزراء)، وإدوارد وود (إيرل هاليفاكس)، ووينستون تشرشل فى ١٠ دوننج ستريت (مقر رئاسة الوزارة البريطانية) . كان رئيس الحكومة مكروبا مضطربا: فهو قد قرر التنازل عن رئاسة الوزارة فى هذا الوقت المؤلم العصيب، ولكن لمن؟ هل يعهد بها إلى هاليفاكس ؟. إن تشامبرلين على يقين من أنه لا يملك «المواصفات» أو الخصائص التى تتطلبها ظروف الدولة فى حالة الحرب الراهنة. فليكن إذن تشرشل.

وعلى الفور قبل وينستون تلك المهمة ذات المسئولية الشاقة الخطيرة. وطار الخبر كالبرق إلى مسامع الجماهير التى احتشدت عند مقر الرئاسة تهتف له وتحيى فيه بطلها المنقذ : «حظا سعيدا يا وينى. الله معك يباركك».

فخرج إليهم يرد التحية بوجه واجم صارم، ثم انحدرت من عينيه دمعات خلسة، لم يلحظها كثيرون، إلا أنه همس بكلمات متحشرجة تغالب مشاعره، قال: «يا لهؤلاء المساكين ! يا لهؤلاء المساكين ! إنهم يثقون بى، ولا أستطيع أن أعدهم بشىء سوى تحمل الكارثة، ولزمن فى الحق طويل»!

في قمة السلطة :

بعد ستة أسابيع فقط من جلوسه إلى مكتبه الكائن فى ١٠ دوننج ستريت، وقعت بلجيكا تحت الاحتلال الألمانى واستسلمت، وسرعان ما سقطت فرنسا وأذعنت لجيوش النازى تجتاحها، حتي وصلت إلى الشاطئ المطل على القنال الإنجليزى، متحفزة للهجوم على إنجلترا. ومن «دنكرك» تم على عجل إجلاء ٢٢٤ ألف جندى بريطانى وبصحبتهم ١١٠ ألف مقاتل فرنسى هربا من الألمان.

ويسأله رئيس الوزراء الفرنسى «بول رينار» ماذا ينوى أن يفعل إذا غزا الألمان بريطانيا عبر القنال. فيمط تشرشل شفتيه قبل أن يجيبه بأنه سوف يغرق أكبر عدد من الجنود يجرؤ على التقدم نحو الشواطئ البريطانية، ويحطم رأس كل من يضع قدميه على الشاطئ. هذا هو وينستون تشرشل خلال الشهور الطويلة العصيبة القادمة، قولا وفعلا.

بدأت تظهر بوضوح - لبريطانيا والعالم كله - ملامح وسمات شخصية تشرشل، ليس فقط كقائد شعب فى محنة، وإنما أيضا كرجل دولة على المستوى العالمى، يتصدى بجرأة وعزم لأزمة خطيرة مدمرة تهدد شعبه، وتجرف إلى حمم بركانها كل الشعوب. ويمشى عبر لندن بزيه التقليدى متوسط الأناقة، أو متدثرا بمعطف طرازه قديم، وجهه متكتل مستدير، تعلوه قبعة عتيقة، وبين أسنانه يشتبك سيجار طويل غليظ، وفى إحدى يديه عصا، والأخرى يرفعها ملوحا بإصبعيه علامة على النصر (كرقم ٧ أو حرف V بالإنجليزية أو الفرنسية أو كلمة : نصر). ثم أشاعت أحاديثه المتتالية فى الإذاعة موجات من الاطمئنان والثقة والشجاعة والتحمل بين جموع مواطنيه، والشعوب التى أصابها لهيب الحرب.

واختار أن يكون وزيرا للدفاع إلى جانب رئاسته للوزارة. وواجه في البداية تيارا من المعارضة لإدارته شئون الحرب بنفسه. لكن الأغلبية كانت على يقين من أنه قادر على أداء المهمة، بل والتصدى لعدد من المهام والأزمات معا. وأجمع واصفوه على أنه «قائد كفء يقدر على حُسن الاستماع، وإسداء الرأى والنصح، وهو مرن في قيادته، بحيث يتيح لمستشاريه أن يضيفوا إلى مشروعاته وخططه الكبرى أكبر قدر من الحقائق وما يلائم الواقع.

كان الشرق الأوسط وحوض البحر المتوسط محور تفكيره فى بداية الحرب ودعامة استراتيجيته. فالقوات البريطانية كانت بالفعل مرابطة هناك، تدعم علاقاته الوطيدة مع دول تلك المنطقة - ومع ايطاليا بعد ذلك أيضا- وكانت لها نتائج بعيدة المدى، إلا أن الاستنزاف الضخم للجنود ولمصادر التموين والذخيرة والأسلحة عقد روابطه بالولايات المتحدة.

فى يونيو ١٩٤١، أعلن تشرشل فى حديث مثير بالإذاعة أنه يعتزم الاعتراف بروسيا (الشيوعية) كشريك كامل العضوية فى مجموعة الدول التى تكافح هتلر من أجل الإبقاء على حياتها وحرياتها. وعلى الرغم من أن هذا الإعلان الخطير المباغت لم يكن معتمدا رسميا من مجلس الوزراء، إلا أنه أحد قرارات تشرشل الشخصية البارعة، ودليل على أسلوبه الذاتى فى الأداء والإنجاز (والمظهرية أيضا!)، غير أنه دعم رأى المستاءين الذين أذاعوا عنه الميل إلى نزعة التسلط والسيطرة وإمساك كل الخيوط بيديه.

وفى التاسع من أغسطس ١٩٤١، عُقد واحد من أهم الاجتماعات فى القرن العشرين، حيث استقل وينستون تشرشل - متجها إلى جزيرة نيو فوندلاند شرق كندا- السفينة الحربية البريطانية «أمير ويلز»، وتقابل مع فرانكلين روزفلت رئيس الولايات المتحدة الأمريكية الذى قدم بالسفينة الحربية الأمريكية «أوجوستا».

كان أول اجتماع بينهما فى سلسلة من تسعة اجتماعات أثناء الحرب، وهو الاجتماع الذى أرسى دعائم الترابط الوثيق بينهما والتضامن المتكامل الأنجلو - أمريكى. وقد ذكر «هارى هوبكنز» مساعد رُوزفلت أن تشرشل «كان مبهورا بالرئيس الأمريكى، وكأنه صعد إلى السماء الإغريقية لمقابلة كبير الآلهة الأسطورية»، أو هكذا أتقن أداء الدور!.

كان هدف تشرشل إقناع روزفلت بدخول أمريكا - بكل عدتها وعتادها وقواتها المسلحة - الحرب إلى جانب الحلفاء . وفى السابع من ديسمبر ١٩٤١ -عندما هاجمت اليابان بعنف الأسطول الأمريكى فى ميناء بيرل هاربر وحطمته- فكرت أمريكا بجد وحسم في الاتجاه الذى يبتغيه تشرشل وأوضحه مرارا: أن الأزمة الدولية القائمة عالمية الساحة والنتئج، ولا مندوحة لأمريكا عن ولوجها إن عاجلا أو آجلا.

من الخطأ الحكم على الماضى بمقاييس وملابسات الحاضر. إذ ربما يظن الآن أن مجرد دخول القوة الأمريكية حينئذاك إلى ساحات القتال إلى جانب الحلفاء يحقق لهم النصر. وليس هذا بصحيح أو على الأقل لم يكن الأمر سهلا مضمونا ميسورا . فالقوة الألمانية النازية واستراتيجيتها آنذاك كانت جبارة مفزعة تثير أحيانا مشاعر التردد واليأس.

وكان لزاما على الاستراتيجية المواجهة لها- لكى تتفوق عليها وتصرعها- أن تتضمن ثلاثة عوامل رئيسية فى النمو المتصاعد للعلاقات الأمريكية البريطانية : القذف بالقنابل، والحصار، وتدمير ألمانيا من كل الجوانب وعلى جميع المستويات. فكان الهدف النهائى العسكرى إذن : غزو أوروبا الغربية بجيوش الحلفاء، وعلى أوسع نطاق من جميع الجبهات.

فى مؤتمر يالتا (فبراير ١٩٤٥) التقى قادة الحلفاء الثلاثة الكبار -تشرشل، روزفلت، ستالين- لاتخاذ قرارات غيرت خريطة أوروبا، ومعها

سياسات ومصائر دول العالم، وأفرزت صراعات القوى الكبرى التي عُرفت فيما بعد بـ «الحرب الباردة». كان روزفلت أثناء هذا المؤتمر في أسوأ حالات مرضه. وأبدى مساعده «هاري هوبكنز» شكه في أن الرئيس الأمريكي العليل المتألم «أصغى إلى أكثر من نصف ما قيل حوله».

وتشرشل أيضا : كان يبدو شارد الفكر حائرا. أو كما قال عنه سير «ألكسندر كادوجان» : «كان متململا ضجرا، لا يدري شيئا عما يلوكه ويتحدث به»!. وحدث شجار بين روزفلت وتشرشل. أما ستالين - الهادئ النفس، المنضبط المشاعر والأفكار- فكان أكثر الثلاثة تألقا وانتعاشا ودهاء وزهوا، فكان الأقوى تأثيرا ورأيا عند اتخاذ القرارات الحيوية المصيرية.

وفي الدقائق الأخيرة، انتزع الموافقة على قرار استراتيجية الغزو الكاسح لألمانيا، وتقسيمها إلى مناطق نفوذ للدول الكبرى بعد الحرب. وفي رأي البعض، وقد يكون صواب، أن تشرشل استنفد كل طاقاته الذهنية والنفسية في التصدي لهتلر وسحقه، فلما تحقق له ذلك -أو كاد- لم يبق لديه رصيد مختزن يكفي لمواجهة متطلبات ما بعد الحرب، وما خلفته من دمار وكوارث ونكبات. تقول زوجته كلمنتين في حوار دار معها في شتاء عام ١٩٤٤ : «إنني لم أفكر قط في ما بعد الحرب، وأصارحك بأنني أعتقد أن وينستون سيموت عندما تنتهي».

وفي الواقع المدهش، عندما انتهت الحرب، كانت بريطانيا نفسها هي التي على شفا الموت : خراب وإفلاس، وديون بالأكداس : ربع مصادر الثروة الوطنية محطم، وحزن جموع الشعب يطفو ويتضخم، وكأنما أفاق الناس وقد زالت عنهم أخطار هتلر، فانحسرت الأضواء عن بطلهم مع الأيام أكثر فأكثر، حتى إن تشرشل اعتراه الغم والكرب، فصرح بأنه يشعر « بالعزلة والوحدة وهو بدون حرب»!

كان بمقدوره أن يعتزل السياسة عقب انتهاء المعارك، فى وهج الانتصار وزهو المجد. لكنه ليس هذا من طبعه، ولا هو من هذا الطراز. فما زالت لديه الرغبة والإرادة لكى يخوض معترك الحياة العامة ويسبح بين أمواجها . فعاد إليها، ولكن على حساب هدوء البيت وسعادة الأسرة. فكثيرا ما كان يصخب ويتشاجر مع زوجته ومع ابنه « راندورث» فآثرت كلمنتين أن تقضى أوقاتا طويلة بعيدة عنه وورث الابن – فى علاقته به – ما ورثه وينستون عن «ليوناردسبنسر» أبيه. قال راندولف : « بيننا حب غريزى متبادل عميق، ولكن بمجرد أن نتقابل ونتجادل، حتى ينشب عراك حاد سقيم عقيم».

تولى رئاسة المعارضة البرلمانية. وكان يحق له الإدعاء – ولديه المبررات – بأنه أشهر رجل فى العالم. سافر كثيرا وقوبل بالترحاب وتجول مشاركا بأفكاره دول العالم فى تصور بناء وصياغة العالم بعد الحرب (العالمية الثانية). وكثيرا ما تحدث عن فكرة «الوحدة الأوروبية».

وفى عام ١٩٥١، أثير – باهتمام وعجلة – موضوع إحالته إلي التقاعد. فقد أنهكت تماما قوته، واستنفدت بقايا طاقته، وأدركته متاعب فى القلب، وأسعف بالإنقاذ ثلاث مرات من نوبات الالتهاب الرئوى. وضمرت عنده حاسة السمع تدريجيا، حتى اقترب من الصمم، وأصيب بالتهابات فى الجلد وحساسية شديدة مؤلمة فى العين. ومن قبل ، فى عام ١٩٤٩، تعرض للإصابة الأولى فى المخ (النقطة) لكنها كانت بسيطة، وكتب عنها فى يومياته : «هذه هى البداية للمتاعب.. ولكن ليس لها إلا نهاية واحدة».

وفى فبراير ١٩٥٢ تعرض للإصابة الثانية – أو التقلصات المخية كما كان يسميها – وأرغمته لبضع دقائق أن يستسلم عاجزا عن النطق بكلمات مترابطة، أو بعبارات بسيطة ذات معنى، وهو الرجل الذى طالما تحدث وخطب فى بلاغة وحصافة وكياسة وفكر.

فكانت كلماته وتعبيراته تطرب الأسماع، وتنفذ فى بريطانيا إلى القلوب : فتدخل الأمل والسكينة إلى نفوس القلقين والمحاصرين، وتُضفى على بعض شعوب العالم – التى تُصغى إليه وتثق به – قدرا كبيرا من الشجاعة والعزم. وفى يونيو ١٩٥٣ كانت الإصابة الثالثة فى المخ، أقوى من سابقتيها وأخطر، وأسفرت عن شلل جانبه الأيسر بعض الوقت، وأعجزته عن الكلام، وبدأ يفقد الذاكرة.

فى نوفمبر ١٩٥٤، صفقت له الدولة (بريطانيا) وحياه الكثير من شعوب العالم وهو يحتفل بعيد ميلاده الثمانين. تلقى ثلاثا وعشرين ألف رسالة تهنئة، وعقد البرلمان البريطانى جلسة خاصة لتكريمه وإزاحة الستار عن لوحة زيتية كبيرة له، وهو حدث غير مسبوق لسياسى ما زال على قيد الحياة. لكن ملامح وجهه بالرسم لم تعجبه، وقال عنه للمقربين إليه : «إنه وجه خبيث دنس». ثم أمر سرا بتحطيمها، وقد كان. ورفضت كلمنتين طلبا من الرسام العالمى الشهير «لفادور داليش أن يرسم له لوحة شخصية بدلا منها.

بالرغم من تماثله قليلا للشفاء، إلا أن صحته أصبحت عليلة متدهورة، لكنه أصر على استمرار بقائه مترددا على مكتبه بالبرلمان، واعدا« بوضع صيغة لسلام عالمى ثابت دائم». ترددت أحواله الصحية بين التحسن والنكوس، وهو يستحث عزيمته على مطاوعة إرادته. تلاشت قوة «المحرك» البشرى وكادت تتوقف عن الأداء . وفى عصر الخامس من ابريل عام ١٩٥٥ قدم استقالته إلى الملكة، لتنطوى بها صفحات عصر حافل من تاريخ بريطانيا والعالم فى القرن العشرين.

بعد شهور قليلة من تقاعده، انتابه الاكتئاب، والقنوط، والنعاس المتلاحق، ثم إصابة جديدة بالمخ. ورغم أنه لم يعد تحت الأضواء ولا فى مركز الأحداث والسلطة، إلا أنه استمر يكتب ، ويرسم، ويتنقل على كرسيه المتحرك، ويشاهد

بعض سباقات الخيل، وكسب أحد جياده جائزة تجاوز مقدارها عشرة آلاف جنيه استرليني . لكنه رفض قبول الجائزة ، لأنها غير أخلاقية» كما قال (باعتبارها من المراهنات)، وكان تعليق البعض على هذا الرفض: « إذا كان بعض جسمه قد خانه وتخلى عنه، فإن فطنته البارعة ما زالت تصحبه».

فى عام ١٩٥٨ بدأت السلطات الرسمية في الدولة تعد سرا ترتيبات جنازته تحت اسم مستعار (شفرة) لا أمل ». لكن توقف التنفيذ إلى أن احتفل العجوز الواهن بعيد ميلاده التسعين. وكانت آخر كلماته المتحشرجة وهو يحتضر: «إننى ضجر كثيرا بها كلها.



الفصل الخامس

قـــادة آســــيا

غاندى يطرد الثعابين

كانا فى وسط الحقول. عندما صرخت الأم فى صوت فزع

- أه ساقى ساقى.. لدغنى ثعبان.

ونظر الابن الصغير «غاندى» فى فزع. خيل له أنه يلمح شيئاً وهو يمرق مسرعاً بين الحشائش. وأمسكت الأم ساقها ثم هوت على الأرض. وظهر بوضوح آثار نقطتين دمويتين صغيرتين فصرخ «غاندى» .

- النجدة. النجدة .. ثعبان لدغ أمى.

كان هناك فلاحون على مبعدة يحاولون سقى الأرض من ماء النهر. لم يسمعوه. وقالت الأم

- لا يوجد وقت يا بنى .. هيا.. انزع ذلك الحبل الموجود حول وسطك واربطه حول ساقى.. فوق الإصابة مباشرة.

وأسرع «غاندى» يعقد الحبل حيث أشارت الأم. كانت تتأوه فى ألم ولكنها أخذت ترشده قائلة

- هيا .. اجذب جيداً.. بكل قوتك.. اربط بشدة.. يجب أن تمنع الدم من المرور من الجزء المصاب.. حتى لا ينتشر السم فى بقية الجسم.. يا إلهى.. اربط «ياغاندى». اربط.. وجذب «غاندى» الحبل بكل قوته حتى خيل له أنه يغوص فى لحم الأم. وتمكن أخيرا من ربطه بالطريقة الصحيحة. وحاولت الأم بعد ذلك أن ترفع رأسها وتقوس جسدها حتى تصل بواسطة فمها إلي موضع الإصابة ولكنها لم تتمكن من ذلك.. كانت تلهث وتلتقط أنفاسها فى صعوبة.

وهتف «غاندى» فى حيرة : ماذا تريدين أن تفعلى يا أمى؟.

قالت الأم وهى مازالت تحاول :يجب أن أصل إلى موضع اللدغة وامتص السم من الساق ثم أبصقه على الأرض

قال «غاندى» : لم تقدرى ذلك يا أمى.. دعينى أحاول.

قالت الأم فى خوف وألم : كلا .. كلا.. أنت مازلت صغيراً وقد تخطىء وتبتلع السم.. لن أسمح لك بذلك.

قال «غاندى» فى توسل : دعينى أحاول يا أمى أرجوك.. سوف أكون حذراً ولن أبلغ قطرة واحدة.

وأمام إلحاح «غاندى» ولأنه لم يكن هناك حل آخر. فقد تركت الأم ساقها «لغاندى» يهوى عليها بفمه الصغير ويمتص السم الذي فيها ثم يبصقه على الأرض. فعل ذلك بسرعة وبدون تردد كان يحب أمه كثيراً ولا يريد أن يفقدها فى حادثة مثل هذه. وفى النهاية أصبح الجرحان خاليين تقريباً. ولم يعد «غاندى» يحس إلا بطعم الدم المالح. واستردت الأم أنفاسها قليلا ولكن وجهها ظل أصفر اللون شاحباً مغطى بالعرق البارد وقالت فى همس :

- يمكنك الآن أن تذهب لطلب المساعدة.

وجرى غاندى نحو الرجال وأخبرهم بما حدث لأمه. كانوا يعرفونها . فقد كانت هى السيدة الطيبة التى تعطف على كل فقراء القرية. أسرعوا خلفه فوجدوا الأم وقد فقدت وعيها وهتف غاندى فى فزع. ولكن أحد الفلاحين وضع أذنه على صدرها ثم قال له :

- لا تخف إنها بخير.. مازالت حية ولكنها فى حاجة لبعض العناية الطبية والمنبهات.

وقال فلاح آخر:

- يوجد مستشفى إنجليزى كبير فى المدينة المجاورة.. هيا تنقلها إليه.

وأحضر أحد الرجال عربة يجرها حصانان. وصنعوا للأم فراشا من القش. ثم حملوها ووضعوها على الفراش برفق وجلس «غاندى» بجانبها وأمسك

يدها فوجدها باردة ومبللة بالعرق فأخذ يدعو فى أعماقه من أجل نجاتها. وأن تصل العربة إلى المستشفى قبل فوات الأوان.

كانت العربة تجرى بسرعة. والرجل يلهب ظهور الجياد بالسوط ولكن طرقات القرى الهندية كانت كلها وعرة. ترابية وغير مرصوفة. لم يكن الإنجليز الذين كانوا يحتلون الهند منذ زمن بعيد يهتمون إلا برصف الطرق التى تخدم أغراضهم الحربية. أما بقية البلاد فقد تركوها تعيش كما عاشت دائماً منذ آلاف السنين.

وأفاقت الأم للحظة وجيزة.. نظرت إلى «غاندى».. وهتفت فى صوت ضعيف :

- أين أنا..؟.

قال «غاندى» وقد فرح لأن الوعى قد عاد إليها:

- إننا فى طريقنا إلى المستشفى الإنجليزى الكبير يا أمى.

ولكن الأم أغمضت عينيها فى ضعف وهى تقول:

- الإنجليز .. عليهم اللعنة. إنهم أشد شراً من الثعابين.

وأغمضت عينيها من جديد.. كانت العربة تمر بالعديد من القرى الفقيرة.. يطل عليهم الأطفال العرايا.. يتأملون العربة وهم يزيون الذباب من على وجوههم وأحس «غاندى» فى مثل هذا الموقف العصيب كأنه يرى بلاده الهند للمرة الأولى.

وأخيراً وصلوا إلى المدينة. وحاولت العربة أن تجد لنفسها مكاناً للمرور وسط زحام الناس والبائعين. ووضع «غاندى» أذنه على قلب أمه. كان يدق فى ضعف. ولكنه يدق على أى حال.

وتوقفت العربة أمام المستشفى. كانت كبيرة مبنية بالطوب الأحمر ويرفرف عليها العلم البريطانى عالياً وفى مقدمتها تمثال كبير للأسد الذى يرمز للامبراطورية البريطانية التى لا تغرب الشمس عنها أبداً.

حمل الرجال جسد الأم. وتدلي ذراعها فأسرع «غاندى» يحمله. وساروا جميعاً إلى بوابة المستشفى ولكن ما إن دخلوا من الباب الذى يؤدى إلى داخل المستشفى حتى فوجئوا بأحد الحراس الإنجليز يرفع بندقيته فى مواجهتهم وهو يهتف :

- إلى أين أنتم ذاهبون ؟.

وتوسل إليه أحد الرجال قائلا:

- ياسيدى الجندى معنا امرأة مصابة بلدغة ثعبان ونريد أن تجرى لها بعض الإسعافات.. إنها سيدة مسكينة ياسيدى.

وأنزل الحارس البندقية فى حيرة وهو يشاهد وجه المرأة الأصفر الشاحب.. وقال فى تردد :

- ولكن .. الأوامر.

وفجأة ارتفع صوت رجل وهو يقول بقوة :

- من هؤلاء الناس.. من أنتم؟.

كان رجلا إنجليزياً ضخماً يرتدى معطفا أبيض ويقف أمامهم.. وقال الحارس :

- إنهم بعض الهنود يا سيدى المدير.. معهم امرأة مصابة بلدغة الثعبان.

ولكن المدير أشاح بيده بلا مبالاة وهو يقول .

- لا يهم .. دعهم يبتعدون .. هذه المستشفى مخصصة فقط للبريطانيين وممنوع دخولها على كل الهنود.

وأسرع «غاندى» ووقف أمام المدير وهو يقول فى توسل :

- أتوسل إليك يا سيدى.. إنها فى حالة خطرة ويجب أن ننقذ حياتها.

ولكن المدير نظر إليه فى احتقار ثم أشار للحارس وهو يقول :

- الأوامر هى الأوامر.. اطردهم خارجا لا يهم هندى ميت.. فهناك الملايين منهم أحياء.. هيا.. اطردهم بسرعة.. لا مناقشة.

ورفع الحارس البندقية ووجهها إلى صدورهم . وجاء حراس آخرون لا يدرى أحد من أين ظهروا. كلهم كانوا يحملون البنادق.. صرخوا فى الرجال أن ينصرفوا وإلا قتلوهم.. ولم يكن هناك مفر من أن يحملوا الأم ويعودوا للعربة مرة أخرى.. وبكى «غاندى» فى حرقة.. كانت عينا الأم مفتوحتين. لقد رأت وسمعت كل شىء.. وقال «غاندى» وهو يضغط على يديها :

- لا تقلقى يا أمى .. سوف نذهب إلى مستشفى أخرى.

ولكن الأم ردت فى حزم : كلا. لن تذهبوا إلى أى مكان. الإنجليز يزيدون من مرضى. هيا.. فلنعد إلى بلدتنا وسوف أريك كيف تعالجنى.

وكانت الأم مصممة. لذلك فقد استدارت العربة وعادت إلى البلدة. وعندما أصبحوا بجوار الحقول مرة أخرى أمرتهم الأم بالتوقف. وطلبت من «غاندى» أن ينزل ويحضر لها قبضة من طين الأرض. وعاد «غاندى» يحمل قبضة رطبة فقالت له الأم :

- ضعها هنا.. فوق أثر اللدغ.. لن يداوينا إلا أرض الهند المقدسة.

ووضع «غاندى» قبضة الطين على ساق الأم. وواصلت العربة سيرها. وأحس «غاندى» أن أمه قد بدأت تشفى بالفعل. فقد توقف العرق وبدأ وجهها يعود إلى اللون الطبيعى.. وقالت الأم :

- تذكر دائما يا بنى.. أرضنا طيبة.. ولكن وجود الاحتلال يدنسها.

لم ينس «غاندى» هذا اليوم. لقد شفيت أمه. ولكنه رأى من فظائع الاحتلال أكثر.. وأكثر.. ولكنه كان مؤمنا بأرض الهند وبشعبها لذلك فقد قادهم فى أول مقاومة سلمية من أجل طرد الاحتلال من الهند. كان يقابل العنف بالمحبة. والحرب بالسلام . وينشر تعاليمه فى كل بلاد الهند الواسعة حتى توحدوا خلفه وطهروا أرض الهند عندما طردوا منها آخر جندى إنجليزى. ولم يبق هناك ثعبان.

الماركسى الثائر (نيقولاى لنين)

أو : فلاديمير إليش أليانوف

أول ما يوصف به : أنه منحدث خطيب ماهر، مثير للقلاقل، عدو لدود للملكية - أو القيصرية- الروسية، تستحوذ على كل تفكيره الماركسية الثورية. إن لنين هو المحرك الأول للثورة الروسية، ومُنشىء الحزب الشيوعى الروسى، وتأثيره المباشر وغير المباشر عميق الجذور بعيد المدى على عالم القرن العشرين، من بدايته إلى قرابة منتهاه. وقد أوجز «بول كسلورد» تفانى لنين فى تحقيق أفكاره، فقال : «لا تحسب أن رجلا غيره يمكن أن تسيطر عليه شواغل الثورة سيطرة كاملة طوال أربع وعشرين ساعة كل يوم، حتى وهو نائم، لا يحلم إلا بالثورة».

حياته الخاصة :

من أسرة تنتمى إلى طبقة القادرين المستريحين زادا ومعاشا فى روسيا القيصرية، جاء فلاديمير أليانوف. إنها طبقة اجتماعية تميل فى معظمها إلى كراهية القيصر ونظام حكمه الفردى المستبد، وإن حاول أن يضع قناع التطور والديموقراطية. لا يعرف إلا القليل عن مرحلة طفولته وصباه (وكان من المفترض أن تكون هانئة سعيدة)، إلا أنه كان مؤهلا للنمو فى مناخ المعارضة والثورة، إلى أن شق طريقه نحو اعتناق شيوعيته الثورية وجعلها حقيقة واقعة تحكم حكما ديكتاتوريا مجتمعا مكونا من مائة وخمسين مليونا، وفق نظام اقتصادى واجتماعى يزعم المساواة الكاملة بين الجميع.

كان بطبعه ذكيا فطنا، فكان لذلك متميزا فى صباه بين أقرانه. وكان حادا متمردا مثلما هو شائع بين الأبناء المتفوقين الأذكياء لكنه كان كثير المتناقضات:

مغرم بالسيطرة إذا ما أتيحت له الفرصة، فيسيء استخدامها بقسوة ضد من يعارضه، ويلين -فى غير ضعف- مع الذين يقبلون الخضوع له.

ومن أبوه، إنه ابن واحد من عبيد الأرض (الذين كانوا من أملاك «السيد» الإقطاعى صاحب الأراضى الواسعة، يخدمونه ويزرعون له بلا مقابل سوى المأكل والمسكن، أو يملكهم القيصر، أو أحد النبلاء يفعلون له الشيء نفسه). إلا أن الأب جد واجتهد وكافح - مع عون من أخ عطوف - حتى صار مفتشا للتعليم فى مدينة «يمبرسك». أما والدته، فكانت ابنة طبيب ثرى يملك أرضا زراعيةوحدائق.

فى عام ١٨٨٦ تصاب الأسرة بفاجعتين كبيرتين متعاقبتين · الأولى، وفاة الأب على أثر نزيف فى المخ، أحدث صدمة وتصدعا لدى فلاديمير الابن، حتى إنه قال بعد عشرين سنة من موت أبيه :« عندما كنت فى سن السادسة عشرة انسلخت من الدين». ثم كانت الفجيعة الثانية : كان فلاديمير وثيق الارتباط بأخيه الأكبر الكسندر الذى كان قمينا بأن يرعى ويؤمن حياة ونجاح الفتى الطموح اللامع فى الأسرة.

فى الصيف التالى لوفاة الأب، كثيرا ما كانا يشاهدان معا، فى نزهة، أو فى لعب الشطرنج، وكأنهما فى عزلة عن العالم، حتى إن فتاة من الجيران كانت تترقبهما من النافذة قالت : « لماذا هما كالسجينين خلف الأسوار؟». وكأنها كانت نبوءة ! إذ كان مصير كل منهما إلى السجن (وفى الواقع كان السجن هو مصير كل أبناء أليانوف - الأب - الخمسة الثوريين الذين بقوا أحياء).

ففى شهر مايو عام ١٨٧٧ يُشنق الكسندر لاشتراكه فى مؤامرة لاغتيال القيصر ألكسندر الثالث. فكان رد فلاديمير الحاسم : «لابد من البحث عن طريق آخر. فماذا يجب أن نفعل ؟».

حاول أن يتكيف مع الحياة بظروفه الراهنة، لكن يبدو أن ذلك كان عنده مستحيلا.. فهو شقيق الأخ الثائر المتآمر، المذموم على كل المنابر. الأبواب أمامه موصدة، وعيون السلطة حوله راصدة، ورياح الثورة العاصفة لا تهدأ فى داخله أو تلين. لم يجد عونا إلا من مدير إحدى المدارس العليا الذى قبله طالبا بالحقوق بجامعة كازان.

ولم يمكث بها أكثر من ثلاثة شهور، إذ فُصل بسبب حضوره اجتماعا سلميا يحمل طابع المعارضة. ومن ثم، لم تقبله أية جامعة حكومية أو مدرسة عليا (كلية). حاول أن يكون مزارعا من أصحاب الأرض الفالحين، لكنه منذ البداية أدرك ترجيح الفشل، لأن علاقته بالقرويين غير مشجعة.

قرأ «رأس المال» لكارل ماركس. أعجب به وكأنه سُحر. فى عام ١٨٨٩ يصبح ماركسيا قُحا، وهو يدرس القانون على نفقته. فلما سُمح له بدخول الامتحان النهائى مع طلاب الحقوق فاز عليهم جميعا بالمرتبة الأولى فى نوفمبر ١٨٩١. كانوا مائة وأربعة وعشرين طالبا : إنها عصارة التحدى، والهزيمة، والذكاء، حين تغلى معا فى مرجل النفس الثائرة المغامرة .. المحاضرة.

ربما قيل إن كل اللطائف والملذات انتهت وانزوت من حياة لنين الشخصية عند انتقاله للإقامة فى سانت - بطرسبورج عام ١٨٩٣. وهذا صحيح. كانت له علاقات نسائية جانبية. إلا أن زوجته كانت أكثر من كونها مُحبة غيورة واجلة. وتراجعت عشيقتاه إلى مرتبة ثانية، وربما ثالثة أو رابعة، خلف اهتماماته ونشاطاته الثورية. كان فى سن الثالثة والعشرين فقط - عندما استهل تحركه.

يحمل فوق كتفيه رأسا كبيرا تساقط الشعر من سطحه الخارجى، ولكن فى داخله نمت واستقرت واشتدت خيوط أفكاره الثورية وخطط السعى لتنفيذها. وبدا لزملائه وأصدقائه أن شبابه تحول سريعا فى المظهر والملامح إلى مرحلة رجولة متأخرة، لفرط نشاطه وحركته، فاطلقوا عليه لقب : «ستاريك» أى الرجل

العجوز. وعاشوا جميعا وتوارى مع زملائه بعيدا عن أشباح وظلال البوليس السرى، يتبادلون الاتصالات فيما بينهم عن طريق الرسائل الرمزية (بالشفرة)، وباستخدام الأحبار السرية، والأسماء المستعارة، والملابس المغرقة فى الإخفاء والتمويه. وكانوا يطلقون على اجتماعاتهم الخفية «حفلات الشاى».

نظم لنين العمال الماركسين فى خلايا من ستة أفراد. ومنهم يتعرف على أحوال المصانع وشئون العمل والعمال، ويجمع البيانات والإحصاءات، ثم يكتب المنشورات الثورية الملتهبة، فيخاطبهم بتعبيرات مثيرة، مثل : «يا دعائم المعارضة وأعمدة الإصلاح». ويصف البيروقراطيين بأنهم «شراذمة من أقزام يهوذا». وفى إحدى الحلقات الدراسية الماركسية يلتقى بزوجته التى ستشاركه المستقبل . نادزدا كروبسكايا ذات البشرة الأنثوية البيضاء.

فى عام ١٨٩٥ كانت البداية لسلسلة من الرحلات إلى الخارج. قابل فى سويسرا «جورجى بليخانوف» - أنيق الملبس، فارع الطول، زعيم الاشتراكيين الديموقراطيين . كان إيمان بليخانوف الثورى أن انتزاع سلطة الحكم يأتى عن طريق البورجوازيين الأحرار (الليبرياليين)، بينما كان رأى لنين القاطع أن العنف الدموى حين يقذف من يد الطبقة العمالية (البرولتاريا) هو وحده الذي يحقق ذلك.

بعد أن أصغى إليه بليخانوف طويلا وقرأ منشوراته قال له : «أنت تضع البورجوازيين مرآة ومرقاة خلفك» أما نحن فعلي العكس، نبرزهم فى المقدمة». إنه تصوير توصيفى للخلاف المنهجى التقليدى بينهما، وقد عجل بالاندفاع نحو انقسام الحزب إلى فريقين.

عندما رجع لنين إلى روسيا فى أواخر ذاك العام (١٩٠٥)، كان يحمل معه -خفية فى باطن سيارة النقل (شاحنة)- مطبعة صغيرة، وكمية من المطبوعات والمنشورات الثورية.

كما أخفى فى داخل رأسه خططه ومشروعاته المهيجة التى سيملأ بها صفحات صحيفة الثورة. فى مستهل صدور تلك الصحيفة، ألقى القبض عليه مع آخرين – من بينهم جوليوس مارتوف – وظل خمسة عشر شهرا فى محتبسه المريح (سرير فى زنزانته، ومنضدة، ومقعد) يقرأ بنهم مؤلفات شتى، ويبعث إلى زملائه خارج السجن برسائل سرية متلاحقة يكتبها باللبن، فإذا جفت، ثم تعرضت بعد ذلك لحرارة شمعة ظهرت واضحة صفراء اللون. فكان يحتفظ باللبن الذى يقدم إليه مع طعام السجن يخفيه فى قاع وعاء للخبز. فإذا أحس وهو يكتب أن الحارس ينظر إليه من منظار الباب (فتحة صغيرة بباب الزنزانة لها غطاء من الخارج) تصنع أنه يزدرد الخبز. ولقد كتب ذات مرة : «أكلت اليوم ست محابر».

الصعود نحو السلطة :

بعد انقضاء فترة السجن، نُفى إلى جنوب سيبريا (كان يقال عن هذه المنطقة : ايطاليا السيبيرية). كانت عقوبة أشبه برحلة أو نزهة مفروضة، إذا قورنت بالنفى المهلك لأولئك السياسيين التعساء الذين يعزلون فى مناطق الشمال الجليدية . وبالمثل كان نفى نادزدا كروبسكايا التى استطاعت الحصول على تصريح بالانتقال إليه والإقامة معه كخطيبة، قبل أن يتزوجا فى عام ١٨٩٨.

انقضت فترة النفى عام ١٩٠٠ فسافرا معا إلى سويسرا. وهناك أصدر -مع بليخانوف وآخرين- جريدة «الشرارة» (إسكرا)، ومجلة «الفجر» (زاريا) التى استخدم فيها لأول مرة التوقيع من العدد الرابع باسمه صراحة : لنين . كانت هذه وتلك تهربان إي داخل روسيا بطريقة ماكرة ناجحة : أكياس ولفائف الأسماك الضخمة.

أثناء سنوات البعد عن الوطن هذه، صعد لنين إلى موقع رئاسى داخل

حزب الاشتراكيين الديموقراطيين الذى انشق إلى «البلاشفة» – أى الأغلبية وهو حزب لنين – وإلى «المناشفة» – أى الأقلية – مع ملاحظة أن التسمية معكوسة· لأن البلاشفة كانوا أقل عددا، ولكنهم أشد صخبا وعنفا ودموية .. فأفكار لنين جميعها متطرفة ، لا تقبل المساومة أو التراضى · فيض دافق من النقد الصارخ المباشر (وفى الواقع كانت الأوضاع السائدة آنذاك تستوجب ذلك وتدفع إليه).

وهذا النقد يجد صدى وهوى لدى الجماهير. فيؤازروا الحزب ومنهاجه، مع تكوين النخبة من المفكرين والمثقفين الذين يتسللون إلى مواقع التوجيه والقيادة فى الإدارات والمؤسسات والمدارس والجامعات، ويعملون على تحطيم الأريستوقراطية، وينتزعون بلا رحمة ولا هوادة سلطان الحكم، استعانة بالبرولتاريا المسلحة، والإطاحة بنظام حرية السوق والملكية الخاصة وأدوات الإنتاج.

ولا تُمنح عضوية الحزب إلا فقط لأولئك الذين يتسمون بالنشاط الثورى والقدرة على التصدى والصمود (وليس مجرد زمالة أو صحبة). أما المناشفة فكانوا من جانبهم أكثر اعتدالا وأقرب إلى الموادعة.

فى عام ١٩٠٥ وقعت مذابح بشعة عُرفت باسم : يوم الأحد الدموى . فى هذا اليوم المكفهر، أطلق الجنود القوزاق النار على المتظاهرين المسالمين فى سانت – بطرسبورج الذين كان يتزعمهم «جورج جابون»، وهم طلائع الانتفاضة الكبرى فى روسيا القيصرية التى استشرى فيها الفساد والانحلال والظلم .

انتهزها لنين على الفور فرصة متاحة : طرح فكرة النشاط الثورى لإهاجة الرأى العام، ووضع «خطة حربية» لمعارك دموية، دون لها قائمة بالأسلحة والمعدات والأدوات المطلوبة. وكتب صراحة : «فلنضع أوروبا فى مواجهة الحرائق» ! كانت «العالمية » تسيطر دائما على تفكيره الثورى.

وكتب إلى حزب الاشتراكيين الديموقراطيين فى سانت - بطرسبورج رسالة ملتهبة زاجرة ساخرة : «إنى لأعجب كل العجب حقا إذا أسمعكم منذ نصف سنة أو يزيد تتكلمون عن القنابل والمفرقعات، ثم لا أراكم تصنعون قنبلة واحدة أو تحدثون فرقعة».

يعود خُفية إلى روسيا، ويظل بها عامين، لكنه يعجز عن تفجير الثورة الموعودة، لأن القيصر أبدى استعداده لقبول تراجع وبعض تنازلات عن سطوته الديكتاتورية الضاغطة، ومن بينها الموافقة على انتخابات لبرلمان (دوما) شكلى، تهدئة للاستياء السائد فى البلاد ، ولو إلى حين..

فتسلل لنين مرة أخرى عائدا إلى أوروبا، واستقر فى «برن». فلما نشبت الحرب العالمية الأولى (١٩١٤) أغضبه وأثار سخطه أن عددا كبيرا من الاشتراكيين خان أحد مبادئ الحزب الأساسية : مقاومة أو الإطاحة بالحكومات التى تشترك فى هذه الحروب الإمبريالية..

فهو يرى أن دوافع تلك الحروب استعمارية توسعية، تشجعها وتغذيها البنوك الربوية التى تحصل على فوائد وأرباح متضخمة متزايدة، وتدعمها مطامع أولئك الذين يتلهفون على انتهاب قطعة من «الكعكة».

وفى الثامن من مارس ١٩١٧ يضرب عن العمل عمال المعادن فى سانت - بطرسبورج، فينضم إليهم مئات الآلاف من عمال المصانع الأخرى وغيرهم من أهل المدينة، يخرجون حشودا وكتلا جماهيرية إلى الشوارع هاتفين ناقمين : إنه صوت الشعب ونبض الجياع والمقهورين .

فزع النظام القيصرى واضطرب وارتج. وانتقل زمام السلطة إلى الدوما البرلمان الذى يسيطر عليه البرجوازيون. ذُعر لنين. وأسرع بالعودة إلى روسيا بعد أن عقد اتفاقا مع الألمان (الذين كانوا فى حرب طاحنة مع الروس). وفحوى

هذا الاتفاق أنه - أى لنين - إذا استولى على السلطة، فإنه سيسحب روسيا من الحرب، وينهى المعارك الدائرة على الجبهة الشرقية الألمانية.

وبناء على ذلك، سمح القادة الألمان للنين وبقية الثوريين المطرودين من بلدهم بالمرور عبر ألمانيا إلى الحدود السويدية داخل قطار سرى خاص مختوم الأبواب، ومن هناك تسللوا إلى داخل روسيا.

كانت عودته إلى روسيا فى أجواء مشوشة مضطربة، لكنه استقبل من الجموع المحتشدة بحفاوة وحماس، وهى تحمل الرايات الحمراء (بلون الدماء) عليها شعارات ذهبية، وفى أيديها المشاعل المتقدة. ومن فوق منبر بأعلى سيارة مصفحة بميدان المحطة وقف يخطب فيهم صارخا بالهتاف : «تحيا الثورة الاشتراكية العالمية ».

ثم أصدر فى اليوم التالى كتابه : « مباحث أبريل»، وفيه شرح لأفكاره . لم يكن قبولا فى البداية، ربما لأنها بدت شديدة التطرف - وأصدرت الحكومة المؤقتة برئاسة الكسندر كرنسكى (وكان ابن مدير المدرسة العليا التى تعلم بها لنين) بيانا، وصمت فيه لنين بالخيانة، واتهمته بأنه عميل لألمانيا، فيصبح مرة أخرى مطاردا، فيهرب خارج البلاد، بعد أن اختبأ فترة فى مخزن علوى (بالسطح)، ثم بين أكداس التبن، فيجد نفسه في فينلندا المتجمدة شتاء.

وهنا راودته - ولم يستعصم !- فكرة شاغلته وشغلت من بعد كل ما تبقى من حياته (وصدعت العالم معها) : أن الديكتاتورية العمالية المسلحة هى وحدها التى ستمهد الطريق إلى مجتمع شيوعى بلا طبقات ولا سلطة حاكمة، الكل فيه آمن وسعيد ! كانت هذه كبرى أخطائه فى كل حياته.

بعد أن أطاحت الثورة الشعبية (التى اشترك فيها المواطنون الروس من مختلف الاتجاهات) بالحكومة المؤقتة، وضع لنين على رأسه شعرا كثيفا

مستعارا (باروكة)، ولف منديلا كبيرا حول صدغيه، كأنه يعانى من آلام أسنانه، ثم توجه إلى مقر حزب «المنشفيك» (أى الأقلية ضد الذى ينتمى إليه)، فلم يعرفه أحد، بل وكلفه رئيس الحزب بمهمة، وأعطاه منظارا للمراقبة.

وإذا به يتوجه نحو الغرفة رقم ١٠٠ بالمقر، ويدخل مندفعا حيث يجلس قادة الثورة العسكريون بالحزب، فينزع أقنعته كاشفا عن نفسه : إنها بداية هزلية تمثيلية لسبع سنوات قادمة من تولى سلطة ضخمة سيطرتها بلا حدود، وقد ظل يسعى لاقتناصها منذ أيام صباه . فها هو فى سن السابعة والأربعين يعتلى منصب رئيس الحزب الشيوعى (رئيس قوميسيرات الشعب) يحكم قبضته على دولة تضم مائة وخمسين مليونا، الأميون منهم تسعون فى المائة، فيحق له أن يقول : «إنه لأمر يدير الرأس !

واجهت الحكومة الجديدة مشكلات هائلة فى إقامة مجتمع جديد، وفى وضع خطط لتنظيمه والسيطرة الكاملة عليه، وفى إنهاء الحرب مع المانيا .

أعيد توزيع الأراضى، وخصصت أجزاء كبيرة منها للمزارع الجماعية، واستولت الحكومة على المصانع، والمناجم، والبنوك ، وأدوات الإنتاج.

وبعد قليل ، مُنعت حيازة رأس المال الخاص، وحُظرت الفوائد الربوية، وجمد نشاط الكنيسة الروسية الأرثوذكسية.

لم يعترف الحلفاء الغربيون بالحكومة الجديدة. ووقع لنين معاهدة سلام مجحفة للغاية مع ألمانيا ومناصريها لإنهاء الحرب معهم بتنازله عن مساحة الأراضى الروسية تقريبا، ونحو نصف السكان. فى العام نفسه (١٩١٨) تشهد البلاد بداية حرب أهلية ضد الروس البيض (أى كل الجماعات غير الشيوعيين الحمر) استمرت زهاء عامين دمويين، سيطر فيها البيض - بمؤازرة ودعم من الحلفاء - على جزء كبير من الأراضى الروسية.

أما البلاشفة (حزب لنين الشيوعى) فكان يناصرهم فقط الفلاحون (وهم أغلبية السكان) والعمال اليساريون المتطرفون. ومن هؤلاء وهؤلاء تكون «الجيش الأحمر» بقيادة تروتسكى، وكان هذا يكفى لتفوقهم وإحرازهم الغلبة.

فى صيف ذلك العام، أطلق الرصاص على لنين وهو يغادر أحد المصانع من سيدة تدعى «فانيا كابلان» اشتراكية ثورية متحمسة، لكنها عارضت نزعته الديكتاتورية الصارمة العارمة فأخطأت مقتله، لكنها أصابته بجرح (كان نظرها ضعيفا جدا شبه عمياء)، فكانت النتيجة : مقتل أكثر من ثمانمائة شخص على أيدى الـ «تشكا» -البوليس السرى- المرعب الذى كونه لنين لحمايته وتأمين الثورة.

فى عام ١٩١٩ تجتاح البلاد موجة من القحط والمجاعة المهلكة مع انتشار وباء التيفوس، فمات آلاف من السكان، حتى إن الجثث تراكمت أكواما أكواما فى الجبانات بلا أكفان ولا نعوش، وثارت ثائرة العمال البؤساء، وعلا هتافهم فى ضجيج وعجيج، ورفعوا لافتات عليها : «يسقط لنين ولحم الخيول. نريد القيصر ولحم الخنزير». ثم سادت موجة من المجاعة أبشع وأعتى فى عامى ١٩٢٠-١٩٢١، أضرت ضررا بالغا بنحو سبعة وعشرين مليونا، وأجبرت لنين على إعادة النظر فى ترتيباته الصارمة ونظرياته المغالية، فوضع «الخطة الاقتصادية الجديدة» التى أباحت الملكية الخاصة فى نطاق محدود.

وبدأت صحته تتدهور. فى مايو ١٩٢٢ ينتابه نزيف خفيف بالمخ. ثم يعقبه آخر -أكثر خطرا- ولم يكد يمضى عام. حاول قبل موته بعامين أن يعدل ويصحح بعض ما أفسده نظامه، وسعى إلى محاولة للتعايش الشيوعى مع الدول الرأسمالية، معترفا بعدم كفاءة بيروقراطيته. وفى عام ١٩٢٢ أقام «اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفيتية».

فى مارس ١٩٢٣ تدهمه إصابة نزيف قوية بالمخ تصيبه بالشلل والعجز عن النطق . ويشفى قليلا، لكنه لن يستعيد كامل صحته وعافيته . وفى ٢١ يناير ١٩٢٤ يلفظ أنفاسه الأخيرة، وقد بلغ من العمر الثالثة والخمسين، إثر نوبة حادة من التشنج، ومن المرجح عند البعض أن ذلك حدث نتيجة تسمم أمر به خلفه جوزيف ستالين. وبعد تحنيط جثته، وضعت داخل صندوق زجاجى فى ضريح بالميدان الأحمر، ليمر طوافا به ملايين الأشخاص، راغبين أو مرغمين، ومن عجب، أن هذا الضريح على شكل هرمى من الطوب الأسود والأحمر، تصميمه مستوحى من ضريح تيمورلنك القائد المغولى المسلم الشهير.

عملاق الصين الحديثة

(ماوتسى - تونج)

من بين قادة وزعماء القرن العشرين جميعا، كان تأثير «ماوتسى تونج» مباشرا وعميقا على عدد من سكان الأرض، يفوق كثيرا ما كان لغيره.

وُلد فى أسرة قروية متوسطة الحال، فى ٢٦ ديسمبر ١٨٩٣ بقرية شاوشان فى مقاطعة هونان، فنشأ مخالطا وقريبا من قاع المجتمع الصينى. ثم صعد إلى قمته، يقود ثورة، ويزداد قوة، وجذب نحوه عقول وقلوب الملايين من شعوب الأرض، طوال عشرات من السنين، فيحكم السيطرة على توجيهها وشدها إليه، بمهارة قيادية فذة، يجتمع فيها ذكاء حاد، وإرادة فولاذية، ودهاء ماكر نفاذ.

عاش طفولة اصطبغت بمشاعر مختلطة، إذ إنها جاءت بعد ثلاثين سنة فقط من مصرع نحو أربعين مليونا من أهل بلده - الصين- فى الحرب الأهلية الدموية التى استمرت من عام ١٨٢٠ إلى عام ١٨٦٤، وخلفت قدرا كبيرا من الخراب والفقر والفوضى، مع غروب شمس الأسر الحاكمة، واهتزاز عرش آخرها- المانشو- وميله نحو السقوط. فكانت الصين نهبا وفريسة لاستنزاف من المصالح التجارية والأجنبية، ومرجل ثورة يغلى ويوشك أن ينفجر.

الصعود المتدرج :

فى عام ١٩١١، وكان ماو في السابعة عشرة من عمره، سقطت الأسرة الحاكمة الغثة الهشة العاجزة. وصعد إلى «المسرح» السياسى «صن يات - سن» -١٩٢٥/١٨٨٦- وأصعد معه تيارا يوحى بانتعاش الهمة والنشاط والحيوية، وإحساسا بيقظة الإرادة وابتعاث العزيمة، وتحمل المسئولية فمضى

ماو ليالى وأياما، سعيا وراء أمل يدفعه إلي الانضمام لهذا التيار الجديد، ويناضل بقوة من أجل بناء الصين الجديدة.. إلا أن صن يات - سن لاحقه الفشل، فدخلت الصين - من عام ١٩١٦- مرحلة أخرى من تاريخها المضطرب الطويل : إذ قفزت لاحتلال مراكز الحكم ومواقع السلطة العليا جماعة من العسكريين، بعضهم صادق النية والوطنية، وبعض تدفعه روح الجشع والأنانية.

فى تلك الفترة ، تهيأ للفتى ماو أن يعمل بمكتبة جامعة بكين، فيبدى من نفسه طاقات نشطة محركة سرعان ما تجره إلى معترك السياسة، والاحتجاج، والمعارضة.

فى تلك الأيام متنامية الاضطراب والاهتياج والتمرد، تختمر فى ذهنه معظم الأفكار التى سوف تقود الأمة كلها إلى مسار التغيير الشامل المرتقب. إنه ذهن دائب السؤال دائم البحث والتنقيب، أدرك مبكرا، ومبكرا جدا، أن الصين فى حاجة ملحة إلى إصلاحات هائلة، تكتنفها المكابدة والآلام. كما فطن إلى أنه فى خارج الصين، يوجد عالم يسيطر عليه «الغرب» الاستعمارى الذى يتطلب التعامل معه أن يكون من موقع القوة، وبأسلوب القوة وأدواتها ومنطقها.

ثم يسمع ويرى جاره الروسى العتيد، يقدم للعالم نموذجا ثوريا، ويبعث إلى الصين بعض خبراء الحزب الشيوعى فى صورة مستشارين لمساعدتها على تفجير ثورتها وإنشاء حزبها الشيوعى. ولكن «ببصيرة ثاقبه تستلهم المستقبل، أدرك ماو أن هيمنة الاتحاد السوفييتى على شئون الصين وإصلاحاتها أمر خطير لا يقبل ولا يفيد. بل قد يضر ويعوق.

وبنظرة متفحصة إلى الداخل، أيقن أن الثورة الشيوعية لابد أن يسبقها - لكى تنجح- انتصار حاسم على قوى الحزب شديد التنافس : الكومينتانج، الذي أسسه صن يات - سن ، ثم خلفه فى القيادة (بعد موت صن فى ٢٥ مارس ١٩٢٥) تشاينج كاى - شك

فكانت - من بعد - سنوات من الصراع المسلح، قاد فيها ماو قواته المناضلة (فى البداية كان واحدا من بين مجموعة قيادة). فكان يكر ويفر، يتقدم ويتقهقر فى الأراضى الصينية، يهاجم بعنف حين يستطيع، ويتراجع فى خفاء عندما يرى أن ذلك أجدى وأنفع.

ثم كانت «المسيرة الطويلة» - أو المسيرة الكبرى كما يسميها البعض- الزاحفة المروعة، التى استمرت عاما كاملا، وعبرت مسافة ستة آلاف ميل، وصارت كأسطورة حية فى تاريخ الصين الشيوعية.

الصراع والبناء :

فى أثناء الحرب العالمية الثانية سادت علاقة ود لطيفة بين الحزب الشيوعى وحزب الكومينتانج، وتعاون مشترك فى الكفاح لطرد اليابانيين المحتلين لمناطق من الصين. ثم تغير طابع العلاقة بينهما عندما ألقت الولايات المتحدة الأمريكية قنبلتيها الذريتين على هيروشيما وناجازاكى (عام ١٩٤٥)، فبدأ الخلاف بين الحزبين المناضلين، وتحول إلى صراع دموى ساحق مرير.

فى عام ١٩٤٩، أعلن ماو عن تأسيس جمهورية الصين الشعبية، بينما تراجع تشيانج كاى شك بقواته إلى جزيرة فورموزا (تايوان الآن). وفى ذلك العام، بدأ نضالا شاقا طويلا من نوع آخر لإعادة بناءالصين، لكى تتوافق مع عالم العصر الحديث : اقتصاديا، وزراعيا، واجتماعيا.

واتخذ لنفسه ولأمته اتجاها اشتراكيا خاصا يرتكز فى أسلوب دعايته وتخطيطه على : الديموقراطية الشعبية، والتجمعات أو الوحدات السكانية الصغيرة. وعارض بشدة محاولة زملائه من القادة بالحزب فى نقل التجربة الشيوعية الروسية إلى الصين.

إن الاشتراكية الماوية تعتمد بقدر أكبر على الكتل الجماهيرية، وعلى

الاهتمام بالتغيير الثقافى المتسارع، وعلى قوى المزارعين وإصلاحات الريف فى عام ١٩٤٧ كان ماو أول زعيم شيوعى صينى يقود الأمة بإرادة كاملة وسلطة مطلقة.

فى عام ١٩٥٤، قاد ماو برنامج «الوثبة الكبرى للأمام»، وهو سلسلة من الطفرات الاقتصادية، باء معظمها بالفشل، مما حدا بالحزب المستاء إلى محاولة تقليص سلطاته ونفوذه. وفى تحرك سريع مضاد، أعلن ماو عن «الثورة الثقافية العمالية العظمى»، وفحواها : هجوم شبابى دموى ساحق ماحق، انصب على رءوس المؤسسة الحزبية (الشيوعية) وأنصارها فى كل المدن والقرى، ما عدا ماو وحده، الذى ضخمت الدعاية صورته، وكأنه إله أسطورى.

وعلى الرغم من تقدم السن، وتضافر الإرهاق والألم والمرض والإفراط الشديد فى نشاطه الجنسى، ظل يملك القدرة على أداء دور أخير أذهل العالم : باجتماعه الشهير مع رئيس الولايات المتحدة الأمريكية - العدو الرأسمالى اللدود- ريتشارد نيكسون فى عام ١٩٧٢. وفى عام ١٩٧٦، فى التاسع من سبتمبر فارق الحياة.

حياته الشخصية :

ولد ماو فى عام «الثعبان» حسب التقويم الصينى التقليدى المتوارث القديم.

وفى زعم العرافين الشعبيين الذين تنبئوا لوالديه بمستقبله عند مولده «أن هذا الابن سيكون متصفا بالليونة والمرونة، والدهاء والذكاء وبإرادة قوية ونفوذ، مع مهارة فى الخصومة ، وبراعة فى اجتناب أو سحق الأعداء». وقد كان ! وهى على أية حال ليست صفات سيئة مخجلة مخزية بالنسبة لثائر ظافر، يقود أمة ضخمة السكان والهموم والأحزان، مثل الصين.

ومقاطعة «هونان» التى منها جاء ماو، ظلت تعرف لفترة طويلة بالانعزالية والتخلف. إلا أنها فى ذلك الوقت، فى بداية اكتساب أهمية وشهرة ربطتها ببقية الأقاليم الصينية، بتقديم أفكار قيادية وآراء إصلاحية على غير المألوف.

امتزجت حياة ماو الشخصية والأسرية بأحداث الأمة، حلوها ومرها فنسمعه فيما بعد يصف بإطناب قوة عائلته المحركة والفعالة فى المجال السياسى. وبينما كان أبوه فى جانب السلطة الحاكمة مناصرا ومنافحا، كان ماو- وأخوه وأمه - فى جانب المعارضة. وماو - المتقد الذهن، المشتعل الحماس- يؤثر دائما أسلوب المواجهة المباشرة، فى حين أن الأم تفضل أسلوب التحايل والمداورة برقة ماكرة ولين. ومع الأيام، يمتزج الأسلوبان، ويصبحان معا طريقة ماو فى سلوكه وعلاقاته وتعاملاته.

بالرغم من نشأته الريفية واتصالاته العديدة المتنوعة، وبالمشاركة مع كبار القادة الآخرين، كان ماو، قارئا نهما منذ بواكير حياته : ينظر من خلال الكتب إلى العالم الرحيب، ويتعرف فى دأب على ما يجرى فيه أو يطرأ عليه ولئن كانت أبواب الجامعة موصدة أمامه، لا يستطيع الالتحاق بها. فلا حرج من طرق أبواب أخر. فنراه يسعى للحصول على مكان بمدرسة لتدريب المعلمين، باعث دفين إذن ودافع مستتر : التعلم والتعليم. والاستنارة للتنوير. ليس الحرص على حرفة للكسب أو مهنة للهبش أو وسيلة للثراء. وفيما بعد، يصف دوره الأول ورسالته فى الحياة بأنه دور المعلم، ورسالة الأستاذ المربى.

نظر ماو فيما حوله ، متأملا ظروف أمته وقومه، فرآها متردية مترهلة متهاوية، حتى مع جهود صن يات - سن المضاعفة المضنية فى الإصلاح، ورغم برنامجه القومى «الأرض لزراعها» الذى لم يقدم إلا أقل القليل إلى الشعب الجائع الجريح. وفى غيبة كبار ملاك الأرض الذين تركوا شئونها إلى وكلاء أشداء غلاظ غير رحماء، عم البلاء وقل النماء، وكثرت الديون، وتفشى فاحش الربا، فزادت الجرائم، وساد الشقاء، وحل بالناس ضجر قاتم واكتئاب.

وكان فى ميسور كل إنسان – وليس فقط ماو– أن يلمح فى كل لحظة، مظاهر السيطرة الأجنبية الطاغية العاتية، تلوح وتتعاظم، خاصة من جانب اليابان، فتنطوى نفوس الشعب الصينى المسكين المقهور على مزيد من الضغينة والمقت والتصبر إلى حين.

انتقل ماو إلى بكين عام ١٩١٨، وحصل على وظيفة متواضعة فى مكتبة جامعتها. إنها – أى الجامعة – المكان الذي فيه تختمر حركات الإصلاح، وتنبثق منه مصادر التنوير وأفكار التغيير. وانضم إلى جماعة تدرس ماركس . لكنه لم يقع تحت تأثيره، ولا تأثير لنين. وإنما عكف على وضع الخطوط العامة التى تحدد مسارات الإصلاح القادم فى الصين، متأملا ما يجرى على مقربة منه فى العام الأول من انتصار الثورة الروسية.

أدرك ماو – مستخلصا– أن ما تفتقر إليه الصين ليس الإرادة الثورية، ولا القوة المسلحة الجماهيرية، وإنما قبل ذلك ، والأهم من ذلك : الأسلوب الأمثل والأنسب فى التنظيم والإصلاح والحكم، فعزم على اكتساب معرفة ذلك من التعلم والاطلاع والتفكير الواعى المتفحص الرشيد.

الصعود إلى السلطة :

صعد ماو بسرعة فى مراتب الإعداد والتخطيط للثورة. فى عام ١٩٢١ عندما التقت مجموعة من ثلاثة عشر رجلا لتكوين الحزب الشيوعى، كان هو من بينهم، ثم عاد إلى إقليمه ومسقط رأسه، ليكون فرعا محليا للحزب الجديد، وانتقى مجموعة لدراسة الماركسية من وجهة نظره. قال : «إن اسم الماركسية سهم نافذ سنضرب به ونحقق الثورة الصينية».

ومع ذلك عندما جاء العون الروسى لتدعيم الثورة المختمرة، لم يتوجه هذا العون إلى الحزب الشيوعى، وإنما إلى الحزب الأكبر ذى التنظيم الأقوى والأفضل، وهو الكومينتانج، الذي أنشأه صن يات – سن .

وبمساعدة الروس، بنى صن جيشا وحزبا حديثا على النمط السوفييتى، واستعد لمسرية تبدأ من شمال الصين، من قاعدته فى كانتون، وتقاتل كل من يعترضها أو يقاومها أنى توجهت، وفى الوقت نفسه تعمل على توحيد أقاليم الصين.

كانت الفرصة أمام الحزب الشيوعى محدودة. وكان على ماو أن يطيع أوامر روسيا السوفيتية ويتعاون مع الكومينتانج، غير أنه ذهب إلى خلاف ما تقضى به النظرة الماركسية التى تقرر أن الثورة يجب أن تنبع من البروليتاريا، أى من الطبقة العمالية المدنية.

فالفلاحون عند ماو- فى الصين على الأقل- هم القوة الفعالة المحركة للثورة. وهو القائل حينئذاك : «إن انتفاضة الفلاحين الحالية حدث تاريخى ضخم. لسوف ينهض عدة ملايين من الفلاحين ويهبون مثل العاصفة العاتية...

ولن تستطيع قوة مهما تعاظمت أن تردهم على أعقابهم خاسرين». تلك كانت رؤية ماو الثورية الفريدة. ومفتاح نظريته العملية فى الإصلاح والتغيير الجذرى. لسوف يصبح الفلاحون محور ارتكاز الثورة الصينية الضخمة ومفتاحها وعمودها الفقارى.

هكذا مضى النضال الثورى بتحالف واهن متصادم بين الشيوعيين والكومينتانج، الذى أصبح تحت قيادة تشيانج كاى -شك عقب وفاة صن يات-سن فى عام ١٩٢٥. ثم ظهرت العداوة والبغضاء علانية بينهما عند مقتل آلاف الشيوعيين بأيدي أعضاء الكومينتانج فى عام ١٩٢٧.

كانت المسيرة عند ماو وجماعته طويلة شاقة عصبية، بين هجوم وانسحاب. وصبر شديد أثمر هزالا وهلاكا لعدد كبير من المقاتلين ، ، وهم يجتاحون أقاليم فسيحة ومناطق جبلية وعرة محفوفة بالأخطار. وفى عام ١٩٣٤

يصبح ماو رئيس الحزب وقائد الجيش الشعبى البائس اليائس الثائر المندفع فى «مسيرته الكبرى الطويلة». ولولا العقبات والمشاكل والمفاجآت، لفقدت الحياة معناها عند ماو حينذاك.

فلما هاجم اليابانيون بيرل هاربر عام ١٩٤١ (وحطموا الأسطول الأمريكى الرابض بالميناء)، لاح فى الأفق عزم اليابان على احتلال الصين مرة أخرى، وعلى نطاق أوسع، فاضطر ماو - على غير رغبة - إلى عقد هدنة مع الكومينتانج لمواجهة العدو الوطنى المشترك.

وما إن توقفت المعارك فى المحيط الهادى عقب إلقاء قنبلتى أمريكا الذريتين على اليابان، حتى اشتعل الصراع الدموى من جديد مع الكومينتانج، حاولت الولايات المتحدة أن تتوسط لإنهاء النزاع بينهما، لكنها سرعان ما تراجعت، بعد أن ترجع أن محاولتها فاشلة.

كان جيش الكومينتانج قويا، حيث التدريب والتسليح، لكن الشيوعيين كانوا يمتلكون حماس ملايين الفلاحين وحميتهم، ومعهم أيضا ماو تسى تونج، فاضطر تشيانج كاى شك إلى الفرار بأنصاره والإقامة فى فرموزا (تايوان). وفى اكتوبر ١٩٤٩، أعلن ماو عن قيام جمهورية الصين الشعبية، وهو على رأسها زعيم قائد مكين، لا ينازعه منازع، ولا يعارضه حظى أو مغيظ.

فى السلطة :

إنه لأمر شاق بالغ الصعوبة - في ظروف الصين يومئذ- أن يدعم ماو مركزه فى قمة السلطة، ويظل ثابتا ثاويا فيه، إلا أنه كان موفور الصحة والنشاط، متجدد الطاقة، وكان يشغل تفكيره على الدوام : كيف تحل مشكلات أمته لسنوات قادمة. إن شيوعية الصين، ولو أنها ترتكز على آراء وأفكار من ماركس، إلا أنها فريدة فى ذاتها، وتختلف اختلافا جوهريا عن شيوعية روسيا

التى لم يكن ماو- ومن ورائه الصين جميعها- على وفاق معها فى كثير من الأحايين.

تصدى ماو -بدرجات متفاوتة من النجاح- لمشكلات الإصلاح الزراعى، ولتحقيق هدف ضخم وعسير المنال . دفع الصين كلها لتتبوأ بإنتاجها الصناعى مركزا عالميا وحضاريا لائقا بها، وفى الصدارة من القرن العشرين. وهو - كقائد مسيرة وإصلاح ، وزعيم ثورة حالفه النجاح- ذاتى التفكير . حاول أن يخوض تجربة عملاقة فى عام ١٩٥٦، تلك التى تُعرف فى التاريخ السياسى باسم «المائة زهرة»، القصد منها إزدهار الفنون، والتعليم، والفكر.. وفق فلسفات مختلفة مضاعفة. وفى الصين دائما -كما قال ماو- متسع لكل الآراء والمعتقدات ثم تفرع من ذلك مشروع «المائة مدرسة» ومضاعفات المائة تجديدا ، وتحديثا ، وإنشاء ، وتطويرا .

وبدا واضحا أنه يؤمن -عن يقين وثقة- بأن هذا الأسلوب في التفكير والتنفيذ يفتح أبوابا ويشق طريقا ممهدا تتقابل فيه كل الآراء والتصورات، فتتجاور وتتحاور، تتسارع وتستبق، ومن خلال ذلك تبرز -فى تحرر- الكفاءات الشيوعية الخالصة الصادقة، على أن تستخدم تلك الحرية الممنوحة برفق شديد وحذر. وكان مخططنا ، إذ حدث فجأة ، أن الحزب -وماو شخصيا- تعرضا للنقد الشديد المرير. وصحبت ذلك مطالبة جريئة بتغييرات جذرية عملية لم تكن متوقعة.

التغيير العملى الوحيد الذى حدث، هو تقلص مشروع «المائة زهرة»، واختصار مشروع «المائة مدرسة»، وكسب ماو من تلك التجربة، ولم يخسر : فهو على الأقل أصبح مدركا بوضوح لمعالم الصورة الصينية بأكملها، وعارفا بمن معه ومن عليه، والأهم من ذلك : من يقف حجر عثرة فى طريق منهاجه وإصلاحاته

فى السنوات التالية، عمت الاضطرابات فى الصين. وبالنسبة إلى ماو، تعاظم الخلاف بينه وبين الاتحاد السوفييتى بمثل ما تفاقم العراك والنزاع بين مساعديه وأتباعه المقربين حول السياسة الاقتصادية. واشتدت حدة المنافسة بين أولئك الأقربين، إلا أن الصين - والحق يقال - خطت خطوات سريعة متنامية مثمرة فى مجالات الإنتاج الزراعى والصناعى.

وكان واضحا -بلا رياء ولا مراء- أن شعب الصين الكثيف يجتاز نصف الطريق إلى تحقيق الثورة الصناعية الكبيرة النشطة، ولم يعد ذلك الشعب المعرض للمجاعات والمهلكات. كما كان إلى سنوات.

وإلى الصين، انحازت الدول الآسيوية المستقلة حديثا، بعد زوال الاستعمار الأوروبى السقيم المشين عنها. إنها تنحاز بإعجاب وزهو إلي الصين العملاقة الناهضة لتأخذ عنها وتسترشد بها وتسلك مسلكها. ولئن كانت الولايات المتحدة الأمريكية - آنذاك - قد ناصبت الصين العداء فى استعلاء ، فإن بعض الدول الأوروبية - مثل هولندا والدول الإسكندنافية - كانت تتعامل مع الصين معاملة الند لا الضد، ولكن فى أناة وحذر.

وفى عام ١٩٥٦ اتسع الصداع وتعاظم الخطب بين الصين وجارتها الكبرى الشقيقة روسيا السوفيتية، عندما تكلم نيكيتا خروشتشيف- دون مشورة مع الصين - فتناول بالنقد والتقريع اللاذع جوزيف ستالين وتجاوزاته اللا إنسانية البشعة المروعة، وذلك فى خطبته التاريخية التى لا تنسى.

رجل الدولة :

كان ماو زعيما وقائدا، ورجل دولة بارعا غلابا فى أمور كثيرة. لعل من أهمها وأصعبها وأشدها دهاء، استمراره فى موقع الرئاسة وقمة السلطة حتى الممات. ولا يزال المؤرخون والمراقبون السياسيون يواصلون البحث والحوار

والجدل لتحديد ما كان يدور حقا فى رأسه. مثلا : ما هو الهدف الحقيقى للثورة الثقافية الدموية العنيفة التى وقعت فى عام ١٩٦٦ واستمرت على ضراوتها حتى عام ١٩٦٩؟ هل كانت تدبيرا ماكرا خبيثا، لكى يتمكن ماو- بقوة وحزم - من السيطرة الكاملة والإطاحة بالرءوس القيادية فى الحزب الشيوعى فى العاصمة وفى المدن والقرى والمقاطعات، والتى كانت تعارضه وتناوئه وتهدد بانهيار الثورة وشيوع الفوضى فى البلاد؟

إن منهاج ماو يحبذ الاتصال بالسياسيين القدامى، والسعى بكل الوسائل لاجتذاب وحب وإخلاص الشباب الصينى الذى يتشكل - بمرور السنين - وفقا لترتيبات دقيقة منظمة، وبتأثير جهاز دعايته المكثف الضخم.

الثورة الثقافية :

فى أغسطس عام ١٩٦٦، تجمع فى بكين أكثر من مليون شاب من أعضاء الحرس الأحمر حديث التكوين، وذلك تحت شعار : «العصيان حق». كان متوسط سن هؤلاء الشباب يتراوح ما بين الخامسة عشرة والتاسعة عشرة، وأحيانا أقل، بتحريض من ماو، انطلقوا للبحث والتنقيب عن أية آثار أو دلائل عند أى شخص، فى أى موقع ومرتبة، تستشف منها ميول إلى «الغرب الرأسمالى» أو خضوع لمؤثراته فى المظهر أو فى الباطن. وكذلك كل شخص غير مخلص للثورة ، أو مذنب فى حقها، أو خائن لمنهاجها ومبادئها. فى طوفان هذه الحركة الداهمة المهلكة، أهين رجال كانوا فى مواقع القيادة العليا والمسئوليات الكبيرة، باعتبارهم خونة أعداء للشعب وثورته. فكانوا يزفون فى مواكب كبيرة ساخطة ساخرة، وعلى رأس كل منهم «طرطور» مضحك، ويتدلى من رقبته حبل يحمل لوحة كبيرة تستند إلى صدره، عليها شعارات ثورية غاضبة

كان ماو هو الشخص الوحيد الذى سلم فلم يتناوله نقد أو تجريح ، حتى عندما تجاوز «الحرس الأحمر» حدود المباح والمألوف، وانحرف متحولا إلى سيل هادر مدمر عسير على السيطرة والضبط. ثم بدأ ماو يظهر من جديد قدرته الشخصية على التحكم والنفوذ، فنجح فى إخماد تلك الحركة، والعودة بالصين – فى عام ١٩٦٩ - إلى قريب من أحوالها الطبيعية.

حياته الخاصة :

فى حياته الخاصة ، تزوج ماو ثلاث مرات، وأنجب من زوجاته عددا من الأبناء لم يستطع المؤرخون إحصاءهم بدقة. ومع مرور السنين، تزايد نشاطه الجنسى بكثرة مؤرقة لطبيبه الخاص الذى أصدر بعد وفاة ماو بسنوات كتابا تناول بالتفصيل هذا الجانب. وكانت «جيانج كينج» أقرب زوجاته إلى قلبه، وهى التى تولت قيادة حركة «عصبة الأربعة» الشهيرة فى تاريخ الصين الحديث، إذ إنها فجرت تيارات وحشيا متطرفا من خلال الثورة الثقافية، وحكومت بعد موت ماو.

فى عامى ١٩٨٠-١٩٨١ قدمت جيانج لمحاكمة علنية بتهمة إزهاق أرواح ٣٤ ألف شخص. وظهرت أثناء المحاكمة غير عابئة ولا نادمة، وانتهت إلى الانتحار فى ١٤مايو ١٩٩١ وهى فى سن الثامنة والسبعين.

السنوات الأخيرة من حياة ماو كانت قاسية مؤلمة، وإن ظل فوق القمة، فقد تواكبت عليه الأمراض، بداية من عام ١٩٧٢، وتعرض جسمه للتدمير بسبب سوء التشخيص الطبى وأخطاء العلاج الدوائى، مع إرهاق العمل المتواصل واستنزاف طاقته فى حياته الخاصة. لكنه ظل حتى النهاية يملك القدرة على المبادرات والمفاجآت السياسية : فقد أمر بفتح أبواب الصين، وإجراء حوار مع الولايات المتحدة الأمريكية.

كانت حالة ماو الصحية خطيرة متدهورة وهو يعد لاستقبال الرئيس الأمريكى ريتشارد نيكسون فى لقاء تاريخى. كان يعانى أشد المعاناة من التهاب رئوى، واحتقان بالقلب، إضافة إلى مرضه السابق. ورفض بشدة كل علاج أو دواء حتى ثلاثة أسابيع قبل وصول نيكسون : فتورم جسمه. وصنعت له ملابس جديدة مناسبة لحالته، بعد أن أصر على لقاء الرئيس الأمريكى بنفسه، فكانت صور مصافحته لنيكسون يدا بيد- بعد عداء شديد بين الدولتين الكبيرتين لعدة سنوات- كانت حدا فاصلا بين عصرين، ومن أهم أحداث القرن العشرين السياسية، وربما بالنسبة إلى العالم كله.

بعد موته عام ١٩٧٦، تم تحنيط جثمانه «لكى يراه - عند زيارته - شعب الصين، خاصة الشباب، جيلا بعد جيل». هكذا قال الرسميون آنذاك فى الصين، ولكن ، سرعان ما تغير النهج، واختلفت الأساليب الاقتصادية الماركسية الصارمة، وتسللت بعض المبادئ والتطبيقات «الرأسمالية» إلى واقع الحياة العملية فى الصين، وبالتالى جرت معها تغيرات اجتماعية وسلوكية، لم تكن فى حسبان ماو وتخطيطه، أو على الأقل، لم يكن يتوقعها بهذه السرعة ، وإن أخذت مظهر «التحديث، أو«التجويد»، أو«التطوير».



الفصل السادس

قـــادة

الولايات المتحدة الأمريكية

الرئيس الأمريكى الأريستوقراطى

(فرانكلين روزفلت)

وُلد فرانكلين دلانو روزفلت فى الثلاثين من يناير ١٨٨٢ بمدينة نيويورك. تعتبر المنطقة التى تقع فى وادى نهر هدسون - حيث ولد- ذات مكانة اجتماعية مبجلة، بينما كان فراكلين ينظر إليها على أنها مزرعة. وهى الآن من المعالم التاريخية الأمريكية. وتوفى فى الثانى عشر من ابريل ١٩٤٥ فى «البيت الأبيض الصغير» بمدينة «وارم سبرنجز» - أى منتجع الينابيع الدافئة- بولاية جورجيا. وقد ذهب إلى هناك للراحة، بناء على طلب طبيبه، وللإعداد لاجتماع تمهيدى كان محددا لوضع نظام إنشاء هيئة الأمم المتحدة.

فى صباح ذلك اليوم (١٢ ابريل) ارتدى الرئيس سترته ورباط عنق لونه أحمر قاتم (اللون المميز لجامعة هارفارد)، ووضع على رأسه قبعة، وتغطى كعادته برداء البحرية الخفيف الأسود (يشبه المعطف)، ثم اتجه إلى غرفة المعيشة بالبيت الصغير الذي يقيم فيه، ليجلس إلى فنانة تستكمل رسم صورة زيتية له.

استغرقت الرسامة فى عملها فى صمت وهدوء، بينما انشغل روزفلت بمطالعة حزمة من الأوراق، إلى أن حان موعد الغداء، فأقبل الخدم يضعون فى سكون أطباق المائدة. وفجأة ، يصرخ الرئيس واضعا يده على جبهته قائلا : « أشعر بصداع رهيب».

ثم مال مترنحا إلى الخلف وسقط فاقد الوعى. بعد ثلاث ساعات لفظ أنفاسه الأخيرة من جراء نزيف بالمخ، ودفن فى حديقته بهايد بارك.

قبل الرئاسة :

لم يسبق أن تولى منصب الرئاسة الأمريكية من هو أكثر ثراء وأشرف حسبا من فراكلين روزفلت .. فأمه من عائلة تفاخر بأنها تستطيع سرد نسبها حتى وليم الفاتح . تعلم فى صباه على أيدى مدرسين خصوصيين ممتازين. وجاب أنحاء أوروبا ثمانى مرات قبل أن يبلغ سن السادسة عشرة.

وفى الوقت المناسب التحق بمدرسة «جروتون» التى ٩٠٪ من طلابها ينحدرون من أشهر العائلات الأريستوقراطية الأمريكية. ثم انضم إلى طلاب جامعة هارفارد. لم يكن متفوقا فى الجامعة (فى المستوى الثالث -C- عادة). وكان يزهو بأن ابن عمه الخامس – تيودور روزفلت – تولى الرئاسة الأمريكية (١٩٠١-١٩٠٩) فى شبابه المبكر انتخب محررا بجريدة «هارفارد»، فكتب سلسلة من المقالات الطنانة استحثت فريق كرة القدم حتى أحرز النصر، ومقالات أخرى يأسى فيها على تدهور الروح الجامعية، وبعد أن أتم دراسته بهارفارد، التحق بكلية الحقوق جامعة كولومبيا، إلا أنه ضاق بدراسته هناك، وتعثر فى إحراز النجاح، حتى إنه ترك الدراسة، ثم عاد واستكملها، وانضم إلى فئة المحامين بنيويورك.

كان فى سن الثامنة والعشرين عندما لفت نظر وإعجاب الزعماء السياسيين الديموقراطيين فى منطقة إقامته، إذ رأوا فيه محاميا شابا أنيقا يحمل اسم عائلة شهيرة. وكان الحزب الديموقراطى يبحث عن مرشح مناسب لمجلس الشيوخ عن الولاية، وبشرط وحيد : أن يكون على قدر من الثراء يتيح له أن ينفق من ماله على الحملة الانتخابية.

وافق روزفلت. وبدأ بزيارة جيرانه من بيت لبيت، يشع حماسا، وينال إعجابا، ويثير أملا (متنقلا فى سيارة ذات لون أحمر قاتم!)، إلى أن فاز بالمقعد.

وسرعان ما برزت شخصيته كعضو (سناتور) من خلال أفكاره ومقترحاته الإصلاحية، ونال إعجاب الديموقراطيين والجمهوريين معا.

وفى عام ١٩١٢ بادر بمساعدة وودرو ويلسون فى حملته الانتخابية لمنصب الرئاسة. فلما فاز ويلسون بالمنصب، كافأ روزفلت بشغل موقع رفيع نائب وزير البحرية، وهو نفس الموقع الذى كان يشغله بجدارة ابن عم له (من آل روزفلت) قبل خمسة عشر عاما

فى هذا الموقع بوزارة البحرية أثبت فرانكلين مهارة عالية وشجاعة بلغت أحيانا شكل العدوانية والمشاكسة، مع ذكاء فى الدعاية الشخصية أو الإعلان عن نفسه وعندما لاح فى الأفق اقتراب شبح الحرب العالمية الأولى (العظمى) ذاعت شهرة روزفلت، وأثنى السياسيون وكبار القادة على فطنته وبعد نظره : إذ كان قد ألح من قبل على تدعيم وتطوير البحرية الأمريكية، وزيادة عدد قطعها الحربية.

فى عام ١٩٢٠، وكان فى الخامسة والثلاثين، اختاره حزبه مرشحا نائبا للرئيس فى انتخابات الرئاسة، لعله يجذب عددا من أصوات حزب الجمهوريين المنافس. وفاز الجمهوريون. ومع ذلك، ذاع اسم فرانكلين روزفلت، وتضاعفت شهرته السياسية فى كل الأوساط الجماهيرية، ونال الإعجاب، خاصة لنشاطه المتواصل، ودأبه بلا ملل. لكن ذلك كاد يتوقف ويتلاشى. فى أغسطس ١٩٢١ سافر روزفلت مع أسرته لقضاء عطلة الصيف فى منتجع العائلة الخاص فى مدينة «كامبو بللو» المطلة على خليج سان لورنس بمقاطعة برونزويك شرقى كندا

وبينما كان يتجول فى يخت مع أبنائه، توقف عند جزيرة صغيرة، وأوقد نارا للتدفئة. ثم حدثته نفسه أن يسبح فى مياه الخليج متجمدة السطح فى بعض

أجزائها فأصيب جسمه بصدمة شديدة، وقضى تلك الليلة فى قشعريرة متواصلة وآلام حادة مثل طعن السكين.

فى الصباح التالى لم يستطع الوقوف على قدميه، وظل نهارا كاملا عاجزا عن الحركة بكل نصف جسمه الأسفل من الوسط وظنوا أنه أصيب بشلل الأطفال. وبعد أسبوع استطاع الأطباء تحديد مرضه. ومنذ ذلك الوقت - وكان فى سن التاسعة والثلاثين - أصبح كسيحا، ولن يستخدم قدميه أبدا بعد ذلك.

فترة الرئاسة الأولى: ٤ مارس ١٩٣٣:

تولى روزفلت مهام منصبه فى أعقاب الأزمة الاقتصادية الحادة والظروف تزداد سوءا، والأمة يسودها الاضطراب والهلع، ثم تزداد حيرة وهى تصغى إلى كلمات رئيسها الجديد : «إن الأمة العظيمة تصطبر وتحتمل.. ولسوف تنتعش وتنمو وتزدهر. ولذا ، دعونى أن أوكد لكم يقينى الثابت بأن الشىء الوحيد الذى يجب علينا أن نخافه ونحذره، هو الخوف ذاته: الخوف المجهول، وغير المنطقى، غير المبرر أو المستساغ، الذى يصيب بالشلل، ويحتاج لجهود جبارة للتحول إلى الأمام».

وبعد مائة يوم فقط من أدائه اليمين الدستورية، وافق الكونجرس (البرلمان الأمريكى) على برنامج روزفلت التشريعى الضخم، الذى أنشأ وكالات (إدارات) رسمية فيدرالية جديدة، وأجرى تغييرات جذرية فى كل جوانب الحياة الأمريكية تقريبا.

فترة الرئاسة الثانية: ٣ نوفمبر ١٩٣٦:

انتقد الجمهوريون بشدة وسخط معظم إصلاحات روزفلت. وركزوا حملتهم الانتخابية للرئاسة على : «التضافر لإنقاذ أمريكا من الاشتراكية». ومع

ذلك حصل روزفلت على أكبر أغلبية حدثت فى تاريخ الانتخابات الأمريكية : فاز على خصمه (آلف لاندون) بأحد عشر مليون صوت. وبنسبة ٥٢٣ إلى ٨.

فترة الرئاسة الثالثة : ٥ نوفمبر ١٩٤٠:

تردد روزفلت طويلا فى قبول ترشيح نفسه لفترة رئاسية ثالثة. ولم يكن الحزب الديموقراطى ذاته (الذي يتبعه) متحمسا لهذا الترشيح، لكن فرص الاختيار أمامه كانت محدودة. ثم ظهرت عقبة أخرى عند اختيار اسم نائب الرئيس. فالحزب لم يوافق على اقتراح روزفلت أن يكون نائبه «هنرى والاس».. فلما ظهرت إليانور روزفلت (الزوج) على منصة الخطابة - فى أحد الاجتماعات الصاخبة للحزب - وتكلمت بأسلوبها القوى الرصين المؤثر، معضدة اقتراح زوجها، انتزعت على الفور موافقة الحاضرين.

وشن الجمهوريون حملة دعائية انتخابية عنيفة ضد روزفلت وحزبه، ارتكازا على : أن مساعدات روزفلت لبريطانيا فى صراعها ضد هتلر ستؤدى بالولايات المتحدة إلى الانزلاق نحو حرب غير مُجدية لا ناقة لها فيها ولا جمل. ورفعوا شعار : «كاذب من يدعى أنه يصلح (للرئاسة) ثلاث مرات».

وكان رد الديموقراطيين بسيطا مقنعا: أن مرشح المحافظين المنافس (وندل ويلكى) كان عضوا بالحزب الديموقراطى لسنوات طويلة، وأسهم بمبلغ ١٥٠دولار فى حملة الحزب الدعائية لانتخاب روزفلت فى أول رئاسته، ثم انسحب من الحزب ، لأن برنامج روزفلت الإصلاحى الذى أقاد الأمة كلها أضر بدخله هو (ويلكى) كمحام لمجموعة من الشركات. ورفعوا شعارا مضادا : «مرشح لفترة (رئاسة) ثالثة أفضل من مرشح درجة ثالثة»!

ونجح روزفلت. ولكن نتيجة الانتخاب العام كشفت تراجع شعبيته، إذ حصل منافسه على ٤٥٪ من الأصوات.

فترة رابعة : ٧ نوفمبر ١٩٤٤:

لم يكن لائقا، ولا مقبولا أن ينسحب روزفلت من الميدان والحرب العالمية الثانية - التى دخلتها أمريكا رسميا فى ديسمبر ١٩٤١- على أشدها وفى مراحلها الأخيرة. وعلى الرغم من اعتلال صحته بشكل ينذر بالخطر، إلا أنه كان يتوق إلى مشاهدة بشائر انتصاره - مع الحلفاء - من خلال موقعه الرئاسى ، كما كان حريصا على قيادة الجهود الدى ستبذل لفرض سلام عالمى بنظام جديد. لم يجد حزبه مفرا - ولا بديلا- من ترشيحه لفترة رابعة، لكن ثارت من جديد مشكلة اختيار نائب الرئيس. اقترح روزفلت اسم شخص لا يكاد يعرف : السناتور «هارى ترومان».

همس المحافظون - الحزب المنافس- ثم علا صوتهم محذرا بأن صحة روزفلت غير مطمئنة ولا تتحمل أعباء الرئاسة فى تلك الظروف الخطرة الصعبة محليا وعالميا. ثم ألمحوا بذكاء إلى «تسلل تأثير الشيوعيين» إلى الإدارة الأمريكية (كانت روسيا السوفيتية حليفا أثناء الحرب لأمريكا، ويدعى ستالين - فى مغالاة - صداقته لروزفلت). ردا على تلك المزاعم الانتخابية المضادة، استخدم روزفلت بذكاء حيله البسيطة القديمة لاحتواء الموقف : خرج فى سيارة مكشوفة وتحت المطر الغزير ليحيى ثلاثة ملايين من مؤيديه احتشدوا فى شوارع مدينة نيويورك، استقبلوه بحرارة شديدة أذهلت المترددين، فارتضوه مذعنين. وسكتت ألسنة المعارضين. وفى العالم الخارجى، لم تهتز صورته كقائد فى الحرب، ومشارك فى صنع السلام، ولكن على النحو الذى يحقق مصالح الدول الكبرى دائما ويضمن لها بقاء السيطرة والكسب والنفوذ، ولو على حساب دول أخرى وشعوب ، فإن سألت قالوا: وهل يعاب على المرء أنه يعمل لمصلحة وطنه ومنفعة شعبه؟! حُجة واهية، وتبرير عند العقلاء مرفوض.

فى العشرين من يناير ١٩٤٥ أقسم روزفلت اليمين الدستورية للمرة الرابعة، فى جو قاتم بارد متكاثر الثلوج. بعد أسبوعين اثنين، مضى إلى سفر قطع فيه عشرين ألف كيلو متر تقريبا، لكى يلتقى فى ياليتا بالحليفين : ستاين ، وتشرشل (رفض تشرشل أن يشترك معهم دوجول فى المؤتمر). فلما رجع وخاطب أعضاء الكونجرس بشأن تلك السفرة، تكلم لأول مرة وهو جالس. استهل قائلا : «أرجو أن تصفحوا عن اضطرارى إلي الجلوس أمامكم على غير العادة. فإن ذلك أيسر لى فى تحمل ثقل عشرة أرطال من الحديد الصلب تحيط بقدمى». كانت أيضا أول مرة يفصح فيها روزفلت علانية عن أثقاله الحديدية التى تكبله. وبعد خمسة أسابيع ، أدركته الوفاة.

يبيقى أن نشير إلى أن روزفلت نجح أكثر من أى رئيس أمريكى آخر فى تاريخ الولايات المتحدة فى الهيمنة تماما على الكونجرس، واستخدم - بلا نظير- حق الفيتو الممنوح له دستوريا ضمن سلطاته () أى معارضة قرارات الكونجرس)، فقد استخدمه ٦٣٥مرة، فكان رقما قياسيا، ولم يبطل الكونجرس منها سوى تسعة اعتراضات فقط، حتى إنه سرت دعاية تقول : إن الرئيس روزفلت كان دائما يطلب من مساعديه أن ينقبوا عن أمور تتيح له أن يستخدم «الفيتو» ضد الكرنجرس، حتى يذكرهم باستمرار ألا «يتحرشوا به أو يناوئوه !

بين الصواب والخطأ :

كتب الكثير، والكثير جدا عن روزفلت ، مثل غيره من الشخصيات البارزة عالميا- شرقا وغربا- التى أسهمت بنصيب كبير فى صياغة أحداث وسمات القرن العشرين. وكان طبيعيا أن تتنوع آراء الذين كتبوا عنه وتناولوا أقواله وأفعاله، نوجز بعضها فيما يلى :

استعاد روزفلت ثقة الشعب الأمريكى فى حكومته بعد زوال. واستمر

طوال فترات رئاسته (اثنتا عشرة سنة، وتسعة وثلاثين يوما) محافظا على وعده لأمته «بالعمل، والعمل الفعال النشط».. وبفضل قيادته وحدها جنب الولايات المتحدة ثورة شعبية اجتماعية مدمرة فى أعقاب أخطر أزمة اقتصادية تعرضت لها أمريكا فى تاريخها كله. كان بارعا فى الإجراءات المالية التى اتخذها وأحاطها بنفحة من الأمل والبشر، وبالثقة فى النفس، وبالمهارة السياسية، فأعطى لبلده معنى جديدا من الازدهار والرخاء والتوجه.

انطلاقا من المبدأ أو الشعار الذى أعلنه من قبل ونفذه، وهو «تعامل جديد من أجل الشعب»، توفرت ملايين الفرص للعمل والنجدات المسعفة للعاطلين والجوعى الأمريكيين. واعترفت الحكومة لأول مرة بمسئوليتها المباشرة عن حالة المواطن الأمريكى العادى الاقتصادية وعن رفاهيته وقف روزفلت بقوة وحزم ضد الامتيازات الكبيرة الحصينة التى كان يستأثر بها أباطرة الصناعة.

واتخذ قرارات واستصدر قوانين كانت ركيزة لما بُنى فوقها على امتداد القرن، منها إطلاق الحرية للعمال فى التنظيم كحق لهم، والتأمين الاجتماعى، وخدمات الرعاية الثابتة للمواطنين. إن سياسة «التعامل الجديد» وبرامجها، وضعت حدا فاصلا بين عهد رأسمالى أنانى سيىء قديم - بالنسبة للجماهير وللنسيج الاجتماعى- وبين عهد جديد حرك الأمة ودفعها نحو بناء كيان اقتصادى أكثر عقلانية، وأوفر نشاطاً وصحة اقتصادية.

حرص روزفلت على إقناع مواطنيه بالخروج من العزلة عن العالم، وحثهم على المشاركة فى المسئولية الدولية. وبعد عداء متبادل متوارث بين أجيال مع شعوب أمريكا اللاتينية ، رفع روزفلت شعار «سياسة الجار الصالح»، وحقق به علاقات طيبة مع الجيران.

وبعد عداء ومقاطعة للنظام القائم فى الاتحاد السوفييتى استمر ستة عشر عاما، أمر بإقامة علاقات دبلوماسية معه. ورغم المعارضة المحلية الشديدة

الشرسة، قدم مساعدات حيوية ضخمة لبريطانيا فى حربها وحدها - عامى ١٩٤١/٤٠- ضد هتلر وألمانيا النازية، ولولا تلك المساعدات لانهارت بريطانيا، وافترستها ألمانيا.

ثم كانت إسهاماته وتعاونه مع الحلفاء - أثناء الحرب العالمية الثانية- من أهم أسباب انتصارهم وبجهده الشخصى حافظ على تماسك الحلفاء فى الأوقات الصعبة، وبخطبه وأحاديثه استمال إليه ملايين الأشخاص عبر العالم. وبصفته القائد الأعلى للجيوش الأمريكية، اختار نخبة من أكفاء الضباط لقيادة الإدارات والقوات والمعارك. وكان ظهيرا لهم، ودخلوا معه فى سجل التاريخ.

برؤية مستقبلية -وإن كانت لصالح أمريكا التى اعتزمت أن ترث عالميا مكانة الإمبراطورية البريطانية المترهلة العجوز- عارض تشرشل بشدة وأغضبه، بإطراره (أى روزفلت) على أن السلام العالمى عقب الحرب يتطلب إنهاء الاستعمار والإمبراطوريات الاستعمارية.

رغم معارضة كثيرين من رؤساء وقادة الدول والزعماء السياسيين وشكوكهم حمل روزفلت على عاتقه عبء إقامة هيئة الأمم المتحدة، تدعيما لتطلعاته فى قيادة العالم بعد الحرب. ولاعتقاده الأكيد بأن الخطر يحيق بالولايات المتحدة - مع تغيرات العصر- إن هى عادت إلي عزلتها القديمة. وكان فى تقديره أن الأمم المتحدة - مع ترتيبات أخرى- أحد الضمانات التى تكفل للولايات المتحدة أداء دور محورى فى قيادة العالم مستقبلا.

يرى معارضوه أن روزفلت ليس إلا سياسيا غوغائيا (ديماجوج) ضخم سلطات الرئاسة حتى صارت ديكتاتورية، واحتال فى الحال حتى أخضع المحكمة العليا لمشيئته. وخلافا للعرف أو الدستور غير المكتوب، ابتدع سابقة حكم الفرد الواحد إلى ما لا نهاية، بتولى منصب الرئاسة ثلاث فترات، ثم دخل فى الرابعة، حتى أزاحه الموت. ومن أجل ذلك تم بعده تعديل المادة الثانية

والعشرين من الدستور لقصر الرئاسة على فترتين اثنتين فقط، ولا تزيد (كل منهما عن أربع سنوات لمن يتم الرئاسة).

وقال آخرون : بعد أن وعد روزفلت الناخبين «بميزانية متوازنة»، أسرف وهو فرح فخور- إسراف اللا مسئول فى الإنفاق على نحو لم يسبق له مثيل وبرنامجه فى العطاء والهبات شجع الكتل الجماهيرية على التراخى والكسل، بدلا من حثها على الإقدام والعمل.

واستمرت آثار هذه السياسة الخرقاء قائمة حتى نهاية القرن، وبسببها انعكست ظلال البيروقراطية الحكومية على حياة المواطن الأمريكى كما أن سياسة «التعامل الجديد» التى زعمت الشفاء من كل الأمراض الاقتصادية

لم تكن فقط باهظة التكاليف، وإنما فشلت فى القضاء على البطاله والكساد. ولم يبدأ الانتعاش الاقتصادى إلا مع الإنتاج الحربى أثناء فترة الحرب (العالمية)، فتنفست الأمة بعد أن كادت تختنق من ضعف خطير وهزال، نتيجة لست سنوات من سياسة روزفلت التى تفتقر إلى الخبرات الأساسية الاجتماعية

وقال غيرهم : تنبه روزفلت إلى تهديدات الفاشيست بعد فوات وقت طويل، حال دون اتخاذ إجراءات فعالة ومجدية. وفى المقابل، فشل فى اتخاذ الاستعدادات المناسبة والضرورية لدخول أمريكا الحرب.

لم يفعل شيئا مطلقا لتهدئة هتلر أو استمالته ف يؤ] (١٩٣٨)، أو فى أى مكان آخر. وأثناء الحرب الأهلية الإسبانية (١٩٣٦) أزر روزفلت حظر تصدير السلاح إلى اسبانيا، فضعفت قوة الموالين للملكية، وضمن فرانكو ومن معه (الفاشيست) إحراز النصر.

ومأساة أخرى : جاء هجوم اليابانيين على الأسطول الأمريكى فى بيرل هاربر إما لعجز وعدم صلاحية القيادة العسكرية الأمريكية، وإما لرغبة متعمد

فى التضحية بأرواح الضحايا والأسطول فى تلك المعركة المروعة من أجل مكسب سياسى لا أخلاقى.

بل إن البعض يرجح أن الرئيس (روزفلت) كان على علم بعزم اليابانيين قبل هجمتهم، ورحب به لاتخاه وسيلة لإقناع الشعب الأمريكى بقرار كان يكنه في نفسه : هو دخول أمريكا الحرب مع الحلفاء وقيادته لهم.

وأثناء الحرب، وافق بلا تردد على اعتقال أكثر من مائة ألف مواطن أمريكى من أصل يابانى، ووضعهم - بلا ذنب ولا مبرر- فى معسكرات تحت التحفظ، مخالفا بذلك الدستور والقواعد الأخلاقية والقيم الإنسانية. وأيضا أثناء الحرب، صدق بسذاجة وعود السوفييت حلفاء أمريكا.

وفى مؤتمر يالتا (الذى عُقد فى نهاية الحرب لوضع سياسة السلام الدائم، وتقسيم مناطق النفوذ بين الدول العظمى)، أجاز لستالين بسط نفوذه المهيمن على شرق أوروبا. وفى هذا المؤتمر كانت صحة روزفلت متدهورة، فكان بادى الهزال والضعف، وذهنه شارد مختل، وكان يجد صعوبة بالغة فى التركيز والاستيعاب.

واتفق مع طبيبه الخاص أن يكتم عن الشعب الأمريكى حقيقة حالته المرضية، كى لا تفلت منه فرصة الحصول على فترة رئاسة رابعة، وحتى نائبه - هارى ترومان- أخفيا عنه تلك الحقيقة الخطيرة. وكان أولى بروزفلت - ومن صميم مسئولياته - أن يعد خلفه للمهام والمسئوليات الجسيمة التى سوف يتحملها- وربما فجأة - فى ظروف محلية وعالمية بالغة التعقيد والخطر.

بائع أربطة العنق الذى دمر هيروشيما

(هارى ترومان)

فى قائمة رؤساء الولايات المتحدة الأمريكية، يذكر «هارى ترومان» - بائع الخردوات وملابس الرجال فى ولاية ميسورى - على أنه «رجل القرار». ومهما طال الزمن، فسيظل يذكر فى التاريخ على أنه الرجل الأول الذى تحمل شخصيا مسئولية استخدام السلاح النووى. لكن التاريخ - بمرور الزمن - يغير من الصورة ويبدد، يضيف ويحذف، ويوضح أو يشوه.

والأسباب فى أحسن الأحوال كثيرة، منها : ظهور حقائق أو وثائق جديدة، شهادة من كان غائبا أو غافلا أو خائفا محترزا، ارتفاع مستوى الأمانة والحيدة في التناول والتحليل والنقد، خاصة بعد انقضاء وقت - قد يمتد إلي سنوات وسنوات - يخبو فيه الحماس المفرط، والميل المشطط، والحقد الدفين.

ثم إن معظم الوقائع الكبرى ، والأحداث اليومية، يصدر عن «إنسان». وهل من الميسور - أو حتى من الممكن - معرفة كل البواعث والرغائب والمكاره والمحاذير التى تتنازع فكر ونفس «إنسان» أو مجموعة من الناس فى موقف ما، واكتشاف «خائنة الأعين وما تخفى الصدور»؟؟

فى الثانى عشر من أبريل ١٩٤٥م تولى ترومان رئاسة الولايات المتحدة الأمريكية خلفا لروزفلت، فبدا للمراقبين أن إيقاع الزمن بالأحداث يتسارع فى الثامن من مايو تستسلم ألمانيا (فى نهاية الحرب العالمية الثانية). وفى السادس عشر من يوليو يقع انفجار فى «ألاموجوردو» بولاية نيومكسيسكو، يعلن- فى تكتم شديد - عن نجاح أول اختبار لسلاح مدمر مهلك خطير، لم يكن ترومان نفسه يعلم شيئا مطلقا عنه قبل ثلاثة شهور.

ومع ذلك، عندما اقترحت عليه لجنة مكونة من كبار الساسة والعلماء الذين عهد إليهم الإشراف على هذا السلاح الذرى الجديد، أن تقذف به اليابان لكى تستسلم بدورها، لم يتردد لحظة. يقول في «مذكراته» : «لم يتطرق إلى شك مطلقا فى أننا سنستخدم حتما هذا السلاح. أردت فقط أن يطلق على هدف عسكرى..». واختار هو بنفسه -على الخريطة- أربع مدن يابانية: أولها هيروشيما، ثم كوكورا، ثم ناجازاكى، والأخيرة نيتجاتا.

فى السادس من أغسطس ضربت هيروشيما بأول قنبلة ذرية فى تاريخ الحرب النووية. وأعقبتها قنبلة ناجزاكى فى التاسع من أغسطس. وأنقذ الضباب مدينة كوكورا من القذف. واضطرت اليابان فورا إلى الركوع والاستسلام بعد إبادة المدينتين فى دقائق، وسقط مئات الآلاف من القتلي (تبخر بعضهم تماما) والجرحى والمصابين بحروق وتشوهات خطيرة مفزعة.

وبعد عشر سنوات مما حدث، سئل هارى ترومان عما إذا كان إسقاط القنبلة الذرية أهم قرار اتخذه فى حياته، قال : «إن هذا محض اختلاق. ما هى إلا سلاح مثل قطعة ذخيرة للمدفعية. إن إلقاء هاتين القنبلتين على اليابان أنهى الحرب، وأنقذ أرواح نصف مليون شخص». (يقصد من الجنود الأمريكيين الذين كان من المتوقع أن تحصدهم المعارك التقليدية الضارية لو أن القتال استمر دائرا مع الجيش اليابانى العنيد الشرس. وكان أرواح مئات الآلاف من المدنيين اليابانيين لا قيمة لها!!).

حياته الشخصية:

فى قرية صغيرة -لامار- وُلد . إنها من الضآلة بحيث إن شوارعها ضيقة لا تحمل أسماء، وبيوتها لا تعرف الأرقام. أمام بيت بأطراف تلك القرية تنتصب شجرة صنوبر، ارتفاعها نحو أربعين مترا، وعلى بوابة البيت الريفى المتواضع

علقت حدوة بغل، لعلها تجلب الحظ السعيد. هذا كل ما تبقى من شواهد تذكر بيوم ميلاد هارى ترومان -هنا فى هذا البيت- يوم الثامن من مايو عام ١٨٨٤.

خجول متسامح ، صفتان غلبتا عليه منذ صباه، ولن يتخلى عنهما فيما بعد. إلا أن قوته تكمن فى إصراره العنيد. ومن خلاله، بزغ فى عالمه الداخلى . هدف يتألق خيالا ويشع، لا يغيب ولا يحتجب : الوصول .. بمعنى أن يصبح «شيئا مذكورا».

أبوه بائع خيول . أما هو - هارى - فبغيته أن ينخرط فى سلك الجيش، ولكن لسوء حظه، كان طريقه إلى هذا الأمل مسدودا . فنظره ضعيف أقل كثيرا من المستوى المطلوب. لكنه لا ييأس أو يستسلم لخطأ لم يرتكبه. يحاول ويجرب، متنقلا من موقع إلي موقع: خادما فى حانة ليلية، مسجلا للأرقام فى مصرف، عاملا فى مزرعة ، ثم إذا به يظهر فى فرنسا أثناء الحرب العالمية الأولى - عام ١٩١٨- متطوعا بفرقة للمدفعية. فلما انتهت الحرب ، وعاد إلى بلده، افتتح متجرا صغيرا لبيع القمصان وأربطة العنق (الكرافتات) بمدينة كانساس . وجاء المال، وتضاعف الربح. لكن الكساد الناجم عن الأزمة الاقتصادية الطاحنة ١٩٢٨ أطاح بكل ما يملك، وترك له الإفلاس. وكان قد تزوج عام ١٩١٩ من «بس ولاس» وأنجبا ابنة واحدة «مارجريت».

وينتخب قاضيا فى ولايته «ميسورى»، ثم عضوا بمجلس الشيوخ (سناتور بالكونجرس)، رغم معارضة جماعة كوكلوكس كلان العنصرية الإرهابية المتطرفة . لقد تجاوز سن الخمسين، وأصبح قادرا على تسوية ديونه المتراكمة. فلما استراح نفسا، وهدأ بالا، وانتعش دخلا، نشطت قدراته السياسية ولمعت ، فاختاره (من الحزب الديموقراطى) روزفلت نائبا لرئيس الولايات المتحدة الأمريكية. فلما مات روزفلت (١٩٤٥)، الرئيس ، وأجمع معظم الشعب الأمريكى (٨٧٪) على أنه الرجل المناسب تماما للرئاسة.

فى الرئاسة :

رغم تحقيق طموحه فى «الوصول» من قاع الريف إلى قمة السلطة والإقامة بالبيت الأبيض، إلا أنه– في مظهره وسلوكه– كان يميل إلى أن يبدو فى صورة المواطن العادى، ولذا، لم يكن غريبا أن يتصف بالنزعة العاطفية، والانفعالية، وسرعة التغير، ولكن دائما فى بساطة وتبسم.

عندما بلغه أن روزفلت على وشك الموت، وأن عليه أن يستعد– كنائب للرئيس– أن يحتل مكانه ويقود أكبر تحالف دولى عسكرى فى التاريخ (فى أواخر الحرب العالمية الثانية) قال للصحافيين الذين هرعوا إليه فى الثانى عشر من ابريل ١٩٤٥: « إن السماء توشك أن تسقط على رأسى . صلوا من أجلى». ولم تفارقه حيويته، ولم يخب نشاطه الذي لازمه فى المهن المتنوعة والأعمال التى مارسها من قبل واكسبته خبرات ثمينة: فى المتجر، وفى الغوص، وفى المجلس المحلى (البلدى) ، وفى القضاء (وكان يتوق إلى أن يصبح عازفا موسيقيا بارزا ماهرا أو ضابطا بالمدفعية).

عُرف عن ترومان فى الأوساط السياسية، الأمانة (فى بيئة سياسية اشتهرت بالفساد)، والإدراك الصائب ، والحصافة والعمل الشاق، وقد استفاد كثيرا من عضوية مجلس الشيوخ بالكونجرس (مرتين : عام ١٩٣٤، وعام ١٩٤٠)، ومن رئاسة لجنة بالمجلس لدراسة ومتابعة الإنتاج الحربى.

تولى الرئاسة الأمريكية فى ظروف صعبة محليا ودوليا، إذ كان عليه يضع على الفور نهاية للحرب العالمية الثانية التى تقاتل فيها أمريكا بكل ثقلها وأثقالها(من الجنود والأسلحة المختلفة) إلى جانب الحلفاء ضد المحور، وأن يهيىء الشعب والدولة للتسوية النهائية، ولمرحلة مابعد الحرب.

فى بوتسدام التقى الزعماء الثلاثة ترومان ، وتشرشل، وستالين لتقرير

مصير العالم (وذلك فى ٢٨ يوليو ١٩٤٥) بعد استسلام ألمانيا بدون قيد ولا شرط (فى ٧مايو). ومن طريف تعليقات ترومان على هذا المؤتمر قوله : «إن ستالين يخدعنا! فهو يشرب النبيذ الخفيف على أنه فودكا. أما أنا، فقط اضطررت أن أشرب خمسة وثلاثين نخبا».

ولئن كان ستالين يغش مازحا فى الشراب مع صاحبى «الحرب ترومان وتشرشل، إلا أنه كان عازما - في جد وحزم- على بسط نفوذه وسطوته، بلا مداراة أو موارية. على أكبر مساحة من أوروبا، ثم فرض الحصار على برلين فى يونيو ١٩٤٨. فكان رد ترومان إقامة جسر جوى متواصل إلى برلين لإسقاط الضروريات بالمظلات إلي الشعب الألمانى المحاصر (الأغذية والأدوية والملابس واحتياجات الأمهات والأطفال). فاضطر الدب الروسى العنيد إلي رفع الحصار بعد أحد عشر شهرا.

فى يونيو ١٩٥٠ تهاجم كوريا الشمالية الشيوعية أراضى كوريا الجنوبية ذات الميول الغربية الرأسمالية. كان ستالين يقف بقوة وراء هذا الهجوم الشمالى. وهدفه واضح : إزاحة «الجيوب» غربية النزعة، المجاورة لروسيا ، والتغلغل السوفييتى إلي رحاب آسيا. وفى يوم أحد (عطلة) مأساوى شديد الوطأة، اتخذ ترومان قراره بارسال قوات أمريكية مقاتلة (بمعداتها الثقيلة بحرا وأرضا وجوا) لمساندة كوريا الجنوبية، وعلى رأس تلك القوات بطل معارك الباسفيك (المحيط الهادى) المنتصر(فى الحرب العالمية الثانية) الجنرال ماك آرثر.

كان الموقف صعبا محيرا فالطقس شتاء قاس قارس، لكثرة العواصف والأمطار الغزيرة والثلوج، مع المرتفعات الجبلية الشاقة الوعرة. وكوريا الشيوعية الشمالية ليست وحدها : فالروس يدعمونها سرا من الخلف، والصين تعضدها علانية من أمام فلما عيل صبر ماك آرثر، وسقط كثير من الجنود الأمريكيين

ضحايا المعارك الضارية فكر- جديا- فى استخدام السلاح النووى لضرب الصين، فلما عارضه السياسيون الأمريكيون، وحذره ترومان من التفكير فى هذا الاتجاه المتطرف الأحمق، أصر الجنرال علي تقديره، وأثار جدلا علنيا صاخبا صارخا داخل أمريكا، التى لم تلتئم جراحها وتسكن أحزانها على ضحاياها بعد، من الحرب العالمية الثانية.

واضطر ترومان -الرئيس- إلى السفر بنفسه لمقابلة ماك آرثر -جنراله- لردعه وزجره، حتى لا يدفع العالم إلى حرب عالمية ثالثة، وفى هذه المرة بالسلاح النووى. وأصدر ترومان أمرا فى الحال بعودة ماك آرثر- معزولا- إلى أمريكا التى استقبله شعبها فى نيويورك بحفاوة جماهيرية بالغة، ولكنها فى حقيقة الأمر خادعة، لأن انفعالات الجماهير الوقتية لا تحيط غالبا- خاصة فى المواقف والأزمات الخطيرة الطارئة - بكل الأبعاد والحقائق والقرائن، وما سوف يترتب عليها مستقبلا. وعلى أية حال، هذه مسئولية «ولى الأمر» أولا وأخيرا- وفي نطاق اختصاصاته - والقرار الذي يتخذه هو الذى يحسب له أو عليه، وفقا لحكم التاريخ.

لقد اختلف السياسيون والمؤرخون كثيرا - ولا يزالون - فى الحكم على قرار ترومان بضرب اليابان بالقنبلة الذرية، لكنهم يجمعون على أن الرجل جنب العالم ويلات أزمة خطيرة أثناء الحرب الكورية، كادت تنزلق به (أى العالم) إلي حرب إبادة مهلكة لا تعرف نتائجها.

ولن ينسى العرب لترومان أنه أصدر قرارا باعتراف الولايات المتحدة الأمريكية بقيام «دولة» إسرائيل فى مايو ١٩٤٨ بعد ساعات من خروج آخر جندى بريطانى من فلسطين (كانت تحت الانتداب البريطانى)، فكان (ومعه الاتحاد السوفيتى) أول اعتراف بهذه الدولة التى «زرعت» عنوة وغصبا وإقحاما فوق الأراضى العربية الفلسطينية، وفى قلب العالم العربى المسالم - أو الضعيف الممزق أنذاك - ومازالت من يومها مصدر قلاقل ومتاعب وإزعاج وحروب.

وضع ترومان «برنامجا» للحد من انتشار الشيوعية، ومشروع «مارشال» لمساعدة اقتصاديات وإعمار الدول التى نكبت بالحرب العالمية الثانية. وهذا المشروع ساعد أوروبا الغربية (بما فيها ألمانيا) على النهوض والانتعاش، وقد منع ستالين دول الكتلة الشرقية الأوروبية التى كانت تحت سيطرته ونفوذه ، منعها من قبول تلك المساعدات.

حظى ترومان باستحسان الشعب الأمريكى لسياسته، وقد فوجىء هو بنتائج انتخابه لفترة ثانية عام ١٩٤٨ بأغلبية ضئيلة. ومن الطريف أن صحيفة «شيكاغو تريبيون» الأمريكية تسرعت ، فأخطأت فى نشر النتيجة النهائية لتلك الانتخابة، فصدر عنوانها (المانشيت الرئيسى فى الصفحة الأولى يعلن عن فوز منافس ترومان (وهو توماس ديوى). يقول المانشيت «ديوى يهزم ترومان». وفى ذاك الصباح ظهر ترومان أمام الصحافيين مبتسما (ساخرا وبيده تلك الصحيفة، فكانت سقطة لا تنسى.

اتسمت فترة رئاسته الثانية ببداية «الحرب الباردة» مع روسيا السوفيتية وتوابعها من الدول الشيوعية، وإنجاز «حلف شمال الاطلنطى»، وإرسال قوة من الأمم المتحدة إلى المنطقة الفاصلة بين الكوريتين . وفى الداخل : أبدى اهتماما خاصا بإعادة تسليح الجيش الأمريكى على نحو أحدث وأفضل، وتنمية الاقتصاد.

فى ٢٩ مارس ١٩٥٢، أعلن ترومان أنه لن يرشح نفسه مرة أخرى لانتخابات الرئاسة. وبعد ترك البيت الأبيض، عاد إلى بيته بمدينة «إندبندنس» – أى الاستقلال– بولاية ميسورى، متفرغا لكتابة مذكراته، إلى جانب الإشراف على المكتبة العامة التى تحمل اسمه فى تلك المدينة. وفى السادس والعشرين من ديسمبر عام ١٩٧٢ توفى بمدينة كانساس بالولاية نفسها .



الفصل السابع

قـــادة أفريقيـــا

كوامى نكروما

مات مسموما

كتاب مثير صدر حديثا عن كوامى نكروما الزعيم الأفريقى العظيم، أول من دعا للجامعة الأفريقية وإنشاء حكومة موحدة لأفريقيا، منذ مطلع الأربعينات قبل استقلال القارة الأفريقية بسنوات عديدة، وهذه الأفكار التى آمن بها منذ الصغر وعمل على تحقيقها بعد أن أصبح أول رئيس لغانا هى التى جعلت الغرب يكرهه، وجعلت رفاقه الزعماء الأفارقة يخشونه، وهى أيضا ما عجلت بنهايته، فلم يقبلها المستعمر الأجنبى ولم يرحب بها الرؤساء المحليون.

الكتاب يحمل عنوان «كوامى نكروما سيرة جديدة كتبته «جان ميلن» الباحثة الاسترالية المولد البريطانية الجنسية التى صاحبت نكروما على مدي خمسة وعشرين عاما منذ أن قابلته عام ١٩٥٧ حتى وفاته عام ١٩٧٢، وظلت تعمل قريبة جدا منه باعتبارها مساعد باحث له ثم ناشر لكتبه.

«وجان ميلن» تبلغ الآن ٧٩ عاما، وسبق أن أصدرت كتابا عن نكروما سطرت فيه سيرته الذاتية حتى مماته، ولكنها فى كتابها الحديث الأخير ألقت أضواء أكثر حول نهايته، وكشفت كيف خططت وكالة المخابرات الأمريكية للانقلاب بالاطاحة بنكروما، وأخطر من ذلك اتهمت المخابرات الأمريكية بقتله بالسم البطىء.

تبدأ «جان ميلن» الكتاب فور وصول الرئيس الغانى إلى بكين عاصمة الصين فى ٢٤ فبراير ١٩٦٦، بعد رحلة طيران طويلة من بانجون (فى بورما) ، استقبله فى المطار السفير الصينى فى أكرا وقال له: «سيدى الرئيس لدى اخبار سيئة لقد حدث انقلاب فى غانا». وكان نكروما حينذاك يقوم ببعثة سلام لهانوى بدعوة من الرئيس الفيتنامى هوشى منه الذى كان ينشد طريقا للسلام يخرجه

من الحرب مع أمريكا. فى البداية ظن نكروما أنه أخطأ السمع ثم تأكدت له الحقيقة.

كان هذا أول انقلاب وأكثر دموية يحدث فى تاريخ غانا، ولا أحد يعرف عدد من قتل من الجانبين، ولكن يقدر العدد بنحو ١٦٠٠ قتيل، فضلا عن بضع مئات من الجرحى. ورغم أن الانقلاب كان مفاجأة لنكروما فإن سحبه ظلت تتجمع لمدة طويلة قبل أن يترك أكرا. ولعل اقتناع نكروما بالاشتراكية وراديكاليته فى الدعوة للجامعة الأفريقية كانتا من أهم الأسباب التى عجلت بالاطاحة به. والحقيقة أن نكروما لم يكن وحده من الزعماء الأفارقة من آمن بالاشتراكية وقتها، خاصة قبل أن تتكشف أخطاءها بعد سقوط برلين وتفكك الاتحاد السوفيتى، أن الآباء المؤسسين لأفريقيا تصوروا أن الخلاص يكمن فى الاشتراكية بالنظر إلى ما شاهدوه أيامها من أن الاتحاد السوفيتى قد انتقل بالاشتراكية إلى أن يصير قوة عظمى بعد ٤٠ سنة فقط من الثورة الروسية منذ عام ١٩١٧.. .كان الأفارقة لديهم العذر فى هذا الاعتقاد فى ذلك الوقت.

وكانت الجريرة الأخرى لنكروما هو اتجاهه نحو حكومة موحدة لأفريقيا، واتاحته فرص لتدريب الثوار داخل بلده وانشاؤه قواعد لاعداد المقاتلين الأفريقيين من أجل الحرية واستضافته للاجئين السياسيين من جنوب أفريقيا وموزمبيق وروديسيا وأنجولا وغينيا بيساو.. الخ وهى الجهود التى أفرزت القادة الوطنيين أمثال سام نجوما فى ناميبيا وروبرت موجابى فى زيمبابوى وكنيث كوندا فى زامبيا وكاموزو باندا فى مالاوى وفرانس فانون فى الجزائر، وغيرهم كثير أما أنهم زاروا غانا أو عاشوا فيها، وكل ذلك خلق مشاكل بين نكروما وبين الغرب إذ أن ظهور أفريقيا قارة قوية موحدة لها صوت قوى فى الشئون الدولية والقادرة على إدارة شئون نفسها كان يشكل أخبار سيئة للدول العظمى.

وقد كتب نكروما بعد الاطاحة به «انهم يريدون أن يحطمونى أنا وغانا، لأننا نقف فى مقدمة الصراع الأفريقى من أجل التحرر». ولكن «الاستعمار الجديد آخر مراحل الاستعمار» الذى كشف فيه عن أعمال المؤسسات الدولية المالية الاحتكارية أغضب حكومة الولايات المتحدة ورأت فى هذا الكتاب خطرا، وتسبب فى قطع المعونة عن غانا التى كانت تبلغ ٣٥ مليون دولار. وتعلق جان ميلن قائلة ومنذ هذا التاريخ صارت أيام نكروما معدودة فى الحكم.

وطبقا للشهادات التى وردت فى كتب حررها مسئولون فى وكالة المخابرات الأمريكية فان ميزانية المخابرات الأمريكية بالنسبة لأكرا زادت وذلك من أجل الاطاحة السريعة بنكروما. بدأوا بتغيير السفير الأمريكى الأبيض فى أكرا وأتوا بدلا منه بسفير أمريكى أفريقى هو فرانكلين وليامز الذى كان رفيقا لنكروما فى جامعة لنكولن سنة ١٩٤١. وبعد الانقلاب كتب نكروما فى كتابه «الأيام السوداء فى غانا» عن خيانة رفيق دراسته له وهو اتهام أزعج السفير وليامز إزعاجا شديدا.

وقد حاول د. مارفين دوتش الذى كان رئيسا لجامعة لنكولن أن يبرىء هذا السفير الأمريكى وهو على أبواب الخروج من عمله، فكتب فى ٢١ يوليو عام ١٩٦٩ رسالة لنكروما قال فيها : « وأنا استعد لترك عملى أود أن أكتب كلمة فى صالح فرانكلين وليامز، أن مستر وليامز هو شخص مرح ونشيط، وأنا لم أره مصدوما بمثل ما رأيته بسبب ما شعرت أنت به من اشتراكه فى أحداث غانا، وقد أكد لى شخصيا أنه لم يكن لديه أى علم بالانقلاب». ولكن نكروما لم يكن مقتنعا بهذا الكلام وقال لجان ميلن أنه يستبعد تماما أن يكون وليامز غير عالم بما يحدث فى سفارته من ضباط المخابرات الأمريكية.

وقد ذكرت «جان ميلن» فى كتابها أنه بات مقبولا الآن بشكل عام أن وكالة المخابرات الأمريكية هى من خططت للانقلاب، وتأكد هذا الاشتراك فى

كتاب «البحث عن أعداء» الذي كتبه عضو سابق فى المخابرات الأمريكية هو جون ستو كويل ونشر عام ١٩٧٨، كشف أن مقر وكالة المخابرات الأمريكية فى أكرا أعطيت ميزانية كبيرة، واستبقت علاقات وطيدة مع المتآمرين فى الانقلاب، وفى داخل رئاسة وكالة المخابرات فى أمريكا فان مقر أكرا أعطى صلاحيات كاملة، وأن رئيس هذا المقر «هورادبن» كوفىء على نجاح الانقلاب بأن رقى إلى منصب رئاسى فى الوكالة.

كيف حدث الانقلاب ؟

اعتمد نجاح الانقلاب على وجود نكروما بعيدا عن غانا، وكانت بعثة السلام لهاندى فرصة ممتازة. أيد البعثة فى البداية مؤتمر رؤساء وزارات الكومنولث عام ١٩٦٥ ولكنها أجلت بسبب أن هارولد ولسون رئيس الوزراء البريطانى كان يريد أن يرأس البعثة فى حين أن هانوى لم تقبل إلا نكروما.

وقد أرسل الرئيس هوشى منه دعوة شخصية لنكروما ليرأس وفدا آخرا، وكان نكروما حينئاك يخطط لموضوعات تتعلق بالتفرقة العنصرية لجنوب أفريقيا ولطرد جنوب أفريقيا من الكومنولث، وكان رصيده العالمى كبير جدا فى هذا الوقت.

وبينما كان نكروما يستعد للذهاب إلى فيتنام فى يوليو ١٩٦٥ أبلغه هوشى منه أن تأمينه فى هانوى لا يمكن ضمانه إلا إذا أوقف الأمريكيون قصفهم لفيتنام. فأرسل نكروما وزير خارجيته إلى واشنطن ليطلب من الرئيس الأمريكى لندون جونسون أن توقف أمريكا قصفها لهانوى ليستطيع الذهاب إليها، (وهذا يشبه طلب صدام حسين الاذن الأمريكى لغزو الكويت).

وقد وجدت المخابرات الأمريكية فى هذا الطلب فرصة ذهبية لاخراج نكروما من أكرا، فاكد له الرئيس جونسون أنه سيكون مؤمنا تماما فى هانوى وأن هوشى منه إنما يخلق الأعذار.

وقبل ثلاثة أسابيع من مغادرة نكروما لأكرا طبقا لما تذكره جان ميلن فان الرئيس جونسون أرسل مبعوثا هو مينون وليام إلى أكرا ليشجع نكروما على الذهاب، حتى تحقق وكالة المخابرات الأمريكية خططها التى كانت تعتمد على وجود نكروما خارج غانا.

وهكذا سافر نكروما فى ٢١ فبراير سنة ١٩٦٦ وبعدها بيومين حدث الانقلاب، وبعد أشهر قليلة نشرت صحيفة ايجبشيان جازيت القاهرية أن واحدا من قبيلة نكروما (قبيلة انزيما) الذي كان همزة الوصل بين المخابرات الأمريكية وبين رجال الانقلاب المحليين قد قتل لأنه يعرف كثيرا عن وقائع الانقلاب، وكان اسم هذا القتيل أميهيا.

وفى ٢ نوفمبر سنة ١٩٦٨ كتب نكروما إلى شيرلى ديبوا زوجة دى بوا التى كانت أرسلت له قصاصة الصحيفة المصرية (ايجبشيان جازيت) والتى ذكرت أن أميهيا. قتل حتى لا يتكلم، كتب لها نكروما أن لديه معلومات من مصادر موثوق بها بأن أميهيا قتل لهذا السبب.

وبعد ذلك بعام عندما ذهب رئيس توجو «أياديما» ليزور حكومة الانقلاب فى غانا كتبت جان ميلن تقول أنه زار سد فولتا والمصانع فى أكرا وتساءل من فعل كل ذلك فذكر له الموجودين أنه نكروما فرد عليهم رئيس توجو «ولماذا قمتم بالإنقلاب عليه ؟ لم تكن هناك حاجة للانقلاب». وبسبب هذا التعليق ساءت العلاقات وألغى حفل العشاء الذى كان سيقام على شرفه.

نكروما يذهب إلى غينيا :

من بكين تلقى نكروما دعوة من الرئيس سيكوتورى زعيم حركة الاستقلال فى غينيا ورئيسها ليأتى ويعيش فى كوناكرى، كما تلقي دعوات مماثلة من رئيس تانزانيا جوليوس نيريرى ورئيس مالى موديبو كيتا والرئيس عبد الناصر.

واختار نكروما كوناكرى لقربها من غانا لأنه كان يأمل أن يعود سريعا إلى السلطة فى بلده.

كتبت جان ميلن تقول : ذهب نكروما إلى كوناكرى بأرصدة قدمها له الروس عندما ذهب إلى موسكو فى طريقه من هانوى إلى كوناكرى. كما قدم له الصينيون بعض المعونات. وأرسل له رئيس أوغندا ملتون أوبوتى والرئيس نيريرى مبعوثين يحملون حقائب دبلوماسية تحتوى على نقود فقد كان كل منهم يريد أن يعود نكروما إلى أكرا، وكانوا واقعيين إلى حد إدراكهم أن أمرا كهذا لن ينجز بغير المال.

لم يكن لنكروما أرصدة فى بنوك أجنبية. وحسابه فى بنك باركليز فى أكرا الذى كانت تدفع فيه راتبه عندما كان رئيسا للدولة، هذا الحساب جمدته حكومة الانقلاب، لذلك كان فى حالة اعتماد على كرم أصدقائه السياسيين.

وبصرف النظر عن هؤلاء الذين يطلبون المال لينفذوا مخطط العودة إلي الحكم، فقد واجه نكروما نفقات تتعلق باحتياجات أنصاره الذين كانوا معه، فكان نكروما يؤدى لهؤلاء الغانيين راتبا أسبوعيا يمثل نصف ما كانوا يحصلون عليه فى غانا، على أساس أنهم سيحصلون على النصف الآخر عندما يعود نكروما إلى غانا.

ولكن لم يحدث هذا، فعندما ذهب نكروما إلى كوناكرى جذب انتباه وكالات الأنباء الغربية إلى مكانه، وكانت رسائله يضطلع عليها الجواسيس واقتحم مقر اقامته فى كوناكرى بغزاة من البرتغاليين واخترقوا الأشخاص المحيطين به. ولكن نكروما عاش رغم ذلك حتى مات الطاهى الخاص الوفى له أموه فى ٢٠ يوليو ١٩٦٧

عندما مات آموه صار من الواضح أن نكروما سيتعرض لخطر شخصى

كبير، حتى أن مدام سيكوتورى طلبت أن يحل طاهى معين محل آموه ولكن حل محله طهاة آخرون، تقول جان ميلن «عندما ذهبت إلي المطبخ تحقق لى أنه لا أمل من التأكد مائة في المائة أن طعام نكروما مأمون. وبصرف النظر عن الطاهى فقد كان هناك عدد من الأشخاص موجودين فى المطبخ وآخرون يذهبون ويجيئون، وعندما بدأ نكروما يشكو من مشاكل فى المعدة بدأت أخشى على صحته».

وكتبت أيضا « فى نهاية واحدة من زياراتى لكوناكرى وعندما كنت أشارك نكروما فى وجباته عانيت من آلام حادة فى المعدة مع ارتفاع فى الحرارة لمدة ستة أسابيع بعد عودتى إلى لندن. كنت مريضة بشكل خطير وتنتابنى أعراض تشبه أعراض مرض التيفويد، وخضعت لفحوص مكثفة فى مدرسة لندن لطب الأمراض الاستوائية. وفشلت هذه الفحوص فى بيان حقيقة المسألة أو تفسيرها، حتى الأطباء الذين زاروا منزلى وفحصوا الأشياء التى استعملها فشلوا فى معرفة السبب».

ثم انهارت صحة نكروما بالتدريج، فى البداية عالجه طبيب روسى ذكر أن نكروما يشكو من اللومباجو وهو مرض يسبب آلاما أسفل الظهر. وقد حاول سيكوتورى وعدد من الأصدقاء اقناع نكروما بأن يسافر للعلاج فى الخارج ولكنه لم يكن متحمسا حتى لا يسبب سفره تكاسل الغانيين واسترخائهم فى العمل للعودة إلى السلطة.

فشل العلاج :

ولكن بعد ذلك فى عامى ١٩٧٠/٦٩ عندما ساءت صحته طلب نكروما من السوفييت مرتين أن يذهب لتلقى العلاج عندهم، فلم يسمحوا له بذلك، وبدلا من استضافته أرسلوا إليه اثنين من الاخصائيين إلى كوناكرى يفحصوه،

ونصحوه بأنه لا يوجد سبب يستدعى السفر، وأنه من الناحية السياسية فالوقت غير مناسب بأن يترك غينيا.

وتذكر جان ميلن «لم أكن فى كوناكرى عندما وصل الأطباء الاخصائيون، ولكن نكروما كتب يوم سفرهم يذكر لى نتيجة زيارتهم. قال سواء نصح الأخصائيون أم لم ينصحوا فأنا لا أدرى، ولكنهم اتبعوا العلاج الذى أوصى به الطبيب البلغارى الذى فحصنى قبلهم»

ان طبيعة العلاج لم تكن واضحة، ولكن فى عام ١٩٧١ عندما ذهب نكروما إلى بوخارست فى رومانيا، فان الطبيب الاستشارى مادرجاك ذكر لجان ميلن أن نكروما عولج بالضبط بعكس ما كانت تتطلبه حاجته، لم يذكر اسم المرض ولكنه قال انه انتشر فى جسمه. وقالت جان ميلن أن ابن نكروما الأول فرانسيس وهو طبيب على تأهل عال ذكر لها عندما زارته زيارة قصيرة عام ١٩٧٣ لقد كان هناك اهمال جسيم فى علاج والده فى غينيا.

وتضيف جان ميلن «أنه من غير المقنع أو المتصورألا يعرف الأخصائيون الروس بمرضه الخطير بعد أن فحصوه عام ١٩٧٠، وأنا أشك فى ذلك أنهم كانوا لا يريدون أن يعادوا النظام الانقلابى فى غانا بدعوة نكروما إلى الاتحاد السوفيتى، كان الروس قد أعادوا فتح سفارتهم فى غانا، كما كانوا لا يوافقون على خطط نكروما الثورية ولا على أفكاره بالنسبة للكفاح المسلح حتى قبل عام ١٩٦٦ إذ كان نكروما يتجه أكثر فأكثر للاعتماد على الصينيين والفتناميين، وكان ثمة توتر شديد بين الاتحاد السوفيتى والصين فى ذلك الوقت».

وفاته:

أخيرا استمع نكروما لنصيحة أصدقائه القريبين وأن يترك كوناكرى الذى أقام بها منذ أن أطيح به فى فبراير ١٩٦٦ يتركها لينشد العلاج الطبى فى

الخارج. كان يتوقع أن يذهب إلي موسكو ولكن أصدقاء فى الحكومة السوفيتية نصحوه بعدم الحضور إليهم.

وأخيرا فى منتصف أغسطس سنة ١٩٧١ هبطت طائرة تحمل نكروما لبوخارست فى رومانيا، وتقول جان ميلن أنها اتصلت بطبيب انجليزى عندما عادت إلى انجلترا، وعندما سمع الطبيب وصف حالة نكروما توقع أنه يعانى من سرطان العمود الفقرى الذى انتشر فى البروستاتا والدم. وأخبرها إذا كان هذا التشخيص صحيحا فانه يتوقع له حياة لا تزيد عن ستة أشهر.

تقول جان ميلن أنها وصلت إلى بوخارست فى ١٢ اكتوبر سنة ١٩٧١، كان منظر نكروما فى المستشفى يبعث على الحزن، كان يجلس على كرسى كبير وظهره إلى الضوء ينظر بأسى، لم يكن يستطيع الحركة ليترك الكرسى وبقى جالسا عليه ستة أسابيع، كان شعره رماديا وكل شىء فيه رماديا، قدمه وسيقانه نحيفة من طول الجلوس، وكان بياض عينيه ناصعا ويداه وجلد بشرته شاحبة، وذكر لها أنه مر عبر الجحيم فى الأشهر القليلة الماضية. كان كل هذا يعطى انطباعا بأنه ذاهب بعيدا.

وأخيرا أتت النهاية فى الساعة ٨٫٤٥ دقيقة صباح ٢٧ ابريل ١٩٧٢ الرجل، الذى كان فى صحة جيدة ويزيد عن ٧٥ كيلو تناقص وزنه حتى صار ٥٧ كيلو وتوفى.. وهكذا مات نكروما فى أرض غريبة وعاش فى أرض غريبة أيضا ست سنوات قبل وفاته.

نكروما المتمرد:

رغم أن نكروما يرقد فى قبره منذ ٢٨ عاما فانه اليوم صار أكبر فى تقدير المواطنين فى غانا وللأفريقيين، كما صار أكبر فى أعين العالم الغربى الذى كان يخاصم كل مشروعاته ويعمل على افسادها.

كانت لنكروما آمال كبيرة لغانا ولكل أفريقيا، كان يبغى أن يبنى بلدا نموذجيا تستهدى به أفريقيا والأفريقيين ويثير الالهام لديهم. كان لديه المال وكانت غانا بلدا غنيا وكانت بريطانيا تكسب من وراءها قبل الاستقلال، وإذا عدنا إلى الوراء سنة ١٩٤٦ طبقا للسجلات البريطانية فان غانا التى كانت تسمى ساحل الذهب كان لديها أرصدة فى بريطانيا تبلغم ١٠٠ مليون دولار.

وبين عامى ١٩٤٧- ١٩٤٨ تظهر البيانات أن بريطانيا حصلت على ٧٢ مليون دولار من تصدير كاكاو غانا إلى الولايات المتحدة، وكان الكاكاو واحدا من المنتجات الكثيرة التى كانت تصدرها بريطانيا ومن هذه المنتجات البوكسيد والنحاس والذهب والماس، وإذا كانت بريطانيا تكسب ٧٢ مليون دولار من تصدير الكاكاو وحده فكم كانت تحصل لندن من تصدير المنتجات الأخرى وخاصة الذهب (ولم يكن اسم ساحل الذهب قد أطلق على غانا بغير سبب).

ونفس السؤال يمكن أن يوجه إلى فرنسا والبرتغال وايطاليا كم كانوا يحصلون عليه من مستعمراتهم. وهذا مما نعلم منه لماذا لم يكن نكروما محبوبا من الغرب، إن كفاحة من أجل استقلال غانا وأفريقيا أفقد السادة الاستعماريين فجأة مكاسب مالية ضخمة كانت تهب من المستعمرات الأفريقية إلى أوربا مباشرة.

وأن خططه الماركسية جلبت له الأسوأ من ناحية الغرب، وكانت بريطانيا وأمريكا يشكون دائما فى أنه ماركسى، وفى خضم الحرب الباردة بين الغرب والسوفييت رأى الغرب أنه لابد من كسر أجنحة نكروما وأن تكسر أجنحته بالسرعة قبل أن يحلق فى أجواء أفريقيا.

وعمل الغرب ترتيبه لافشال خطط نكروما السياسية والاقتصادية، وكانوا يعلمون أن غانا هى نجم أفريقيا فى ذلك الوقت فاذا سمحوا لنكروما أن يحقق طموحاته فى خطط التنمية التى كان من شأنها أن تحول غانا فى بداية

السبعينات إلى بلد مصنع أو نمر اقتصادى وساعتها ستتبعه أفريقيا كلها فى طريقه، وهذا مما كان سيهدد مصالح الغرب السياسية والاقتصادية فى القارة الأفريقية وسيصبح صندوق النقد الدولى والبنك الدولى بغير مصداقية وقتها.

كانت احدى طرق الغرب لجذب نكروما إلى أسفل هو التعامل مع السعر العالمى للكاكاو وأن الطلب العالمى على الكاكاو تجاوز العرض فى منتصف الخمسينات فارتفع السعر عاليا، وفى عام ١٩٥٥ كانت صادرات الكاكاو تمثل ٦٨٪ من تجارة غانا الخارجية، ومن ثم فان نكروما بعد الاستقلال قد ورث قدرة تمويلية جيدة من شأنها أن تحول غانا سريعا إلى نمر اقتصادى.

عندما خاض نكروما خطة التنمية السبعية (سبع سنوات) فى بداية الستينيات بعد خطة تنمية خمسية أنجزها كان يقف السعر العالمى للكاكاو عند ٤٨٠ جنيه استرلينى للطن. وفى عام ١٩٦٦ عندما أطيح به كان سعر الكاكاو قد انهار إلى ٦٠ جنيه استرلينى للطن. وإذا عرف أن الكاكاو كان هو الانتاج رقم واحد فى التصدير من غانا فيمكن أن نتخيل أثره على الاقتصاد فى عهد نكروما، ولماذا فشل إذا كان قد فشل.

وفى هذا السياق يتضح لماذا كان نكروما المحبوب الأول والمكروه الأول، ولماذا لا يوجد زعيم أفريقى آخر كتب عنه كما كتب عن نكروما.

المعجبون به كان لهم رمزا كبيرا. كتب بيتر ابراهامز الكاتب الشهير فى جنوب أفريقيا كتب عنه عام ١٩٥٤ أن نكروما كان مثل البرج العالى برأسه وأكتافه يعلو بهما على أى سياسى آخر لدى الجماهير الأفريقية.

وقد تنبأ بذلك س ل. ر. جيمس الكاتب المؤرخ المولود فى ترنداد إذ قدم نكروما عام ١٩٤٥ إلى جورج بادمور الكاتب المعادى للاستعمار فى الكاريبى والمحرض الكبير ضده قدمه له بهذه الكلمات «يا جورج ان هذا الشاب يأتى

إليك انه ليس لامعا ولكن مع ذلك أصنع ما تستطيع من أجله لأنه مصمم على أن يطيح بالأوربيين من أفريقيا».

وبالنسبة للأفريقيين فان اسم نكروما صار لعدة سنين رمزا للفكاك من التبعية والالحاق الذين عانوا منها لعدة قرون.

ولكن بالنسبة لغير المعجبين به فقد كان نكروما فى نظرهم مستبدا غير عادى، وصفه الكاتب الآسيوى الكينى على مصراوى بأنه قيصر لينينى. وقال عنه المؤرخ البريطانى هيوستون واطسون عام ١٩٦٦ ان نكروما يحوز علي هستيرية هتلر وغطرسة موسولينى أكثر من العبقرية الباردة للينين.

وكتبت الكاتبة الأمريكية ماريكا شرود التى تؤرخ لتاريخ السود في مجلة التايمز تقول ان أسلوب نكروما فى الاستبداد كان أسلوبا قاسيا وشاملا، وأن الآراء حوله تتراوح بين أنه شبه اله أو أنه شيطان، وأن أهميته العالمية والوقت الذى ظهر فيه نجمه فى البلاد الأفريقية المستقلة حديثا أثر كل ذلك فى تصورات الناس عنه، ولا شك أن نكروما كان شخصية هامة جدا فى أفريقيا وللشعب الأفريقى فى الفترة ما بين سنة ١٩٤٨-١٩٦٦.

مع اشتداد المعارضة لنكروما داخل بلده والعداء الغربى له، أصبحت الأمور صعبة بالنسبة له فشدد أكثر من قبضته واستخدم قانون الاشتباه ضد خصومه ومؤيديه على السواء، خاف الشعب من قائده وأتت الاطاحة به فى ٢٤ فبراير١٩٦٦ بمثابة انفراجة للغانيين الذين لم يكونوا يدركون الضغوط العالمية التى كان يواجهها نكروما، ومن ثم بدأت عملية الهدم لذكراه فحل حزبه وأبيدت كتبه وكل شىء ينتمى إليه.

ورغم ما قيل عنه وعن فترة حكمه التى لم تستمر سوى تسع سنوات، فإن نكروما سقط وغانا من أكبر الدول الصناعية فى غرب أفريقيا. رغم أنه يجاورها

نيجيريا وكوت ديفوار (ساحل العاج) وهما نموذج للنمط الرأسمالى فى التنمية. كما كانت غانا تتمتع بأكبر مستوى لدخل الفرد وأولى الدول المنتجة للكاكاو فى أفريقيا وصاحبة مشروع سد الفولتا.

كذلك لم يكن سقوط نكروما مخلصا لغانا، فرغم تعدد الحكومات العسكرية ومحاولات الحكم المدنى على النمط الغربى، إلا أن النتائج الاقتصادية كانت عكسية تماما فقد بلغ ارتفاع الأسعار فى غانا حدا لم تشهده كل دول العالم، وصل التضخم إلى ٣٠٠٪ وبلغت ديون غانا للدول الرأسمالية ملايين الدولارات، وعقد الدائنون حلقات خاصة لمعالجة الموقف فى لندن وباريس دون جدوى، وترك الأمر لصندوق النقد الدولى ليفرض شروطه على الحكومة.

ظل نكروما يردد -وهو فى منفاه بكوناكرى بغينيا- ان المخابرات الأمريكية والبريطانية والألمانية والإسرائيلية هى التى خططت للانقلاب، ولم يصدقه أحد حتى تكشفت الشواهد من وكلاء المخابرات الأمريكية أنفسهم الذين اعترفوا بأن نكروما أُطيح به بموجب خطة رسمها الأمريكيون وساهم فيها بنو عمومتهم فى أوربا، وأن أهم أسباب الاطاحة به أن الغرب كان يعارض توجه نكروما إلي توحيد أفريقيا فهم يدركون أن هذه الوحدة تهدد سيطرة الغرب الاقتصادية والسياسية على أفريقيا، لذلك كان لابد أن يذهب نكروما المدافع الرئيسى عن وحدة أفريقيا.

وساعدت عدم شعبية نكروما فى بلده فى ذلك الوقت مع المشاكل الاقتصادية التى ظهرت بسبب انهيار سعر الكاكاو أن جعلته فريسة سهلة، ولم تحتاج وكالات الاستخبارات الغربية إلى أكثر من عدد قليل من مخالب القطط من جيش غانا والبوليس وشرطتها لاتمام المهمة.

وتختم الكاتبة جان ميلن كتابها: ولكن بعد ٢٥ عاما تذكرت غانا الحكمة التى وردت فى الانجيل القائلة لا كرامة لنبى فى بلده، وفى الذكرى الأربعين

لاستقلال غانا عن الاستعمار البريطانى أقامت الحكومة الغانية احتفالاً مهيباً نقلت فيه جثمان الرجل العظيم إلى النصب الجديد الذى شيدته فى نفس البقعة التى أعلن فيها نكروما استقلال بلده فى ٦ مارس ١٩٥٧، وأطلقت اسمه على الجامعة، وهكذا صار نكروما البطل رقم واحد فى غانا بعد أن دار الزمن دورة كاملة ليعيده إلى هذا الوضع.

فارح عيديد

أمير حرب أم زعيم وطنى

«ان الموت أحيانا يفسح الطريق للسلام» هذا ما قاله أحد مسئولى الأمم المتحدة تعليقا على وفاة الزعيم الصومالى محمد فرح عيديد.

كذلك قابلت الولايات المتحدة نبأ وفاة عيديد بنوع من الارتياح وقال نيكولاس بيرنز المتحدث باسم الخارجية الأمريكية «لا ريب فى أن غياب عيديد عن الساحة سيساعد على استتباب السلام والأمن فى الصومال ووضع حد للنزاع هناك».

وفارح عيديد يصنف العدو رقم واحد للولايات المتحدة فهو الذي الحق بأمريكا أكبر هزيمة بعد فتنام وأجبرها على مغادرة الصومال عام ١٩٩٤، وتكللت مهمتهم بفشل مهين، مما دعا الولايات المتحدة رصد مكافأة مالية بعشرات الآلاف من الدولارات لمن يقبض عليه حيا أو ميتا، ومع ذلك لا جبروت القوات المسلحة الأمريكية ولا اغراء المال الوفير جعل صوماليا واحدا يرشد عن مكان عيديد، وأدت هزيمة الولايات المتحدة –التى انفردت بزعامة العالم بعد انهيار الاتحاد السوفيتي– ان تتفادى الخوض فى صراعات أخرى فى العالم(١).

فمن هو هذا الرجل الذى حماه شعبه؟ هل هو أمير حرب كما يصفه الغرب أشعل نيران الحرب فى الصومال وهدد سلامتها وأمن شعبهما، أم كان زعيم وطنى ظهر فى غير عصره، هل هو بطل قومى أم مجرد مجرم حرب، هل هو محرر الصومال أم مجرد رجل متعطش للسلطة، زعيم وطنى أم رئيس قبيلة، قيادة اسطورية أم شخصية دموية كريهة ؟

(١) أما الآن فقد عادت الولايات المتحدة إلى البلطجة السياسية والعسكرية وبدأت فى شن حروب صليبية على العالم العربى والإسلامى، فهل يستيقظ المسلمون .

أيا من كان فقد حملته واشنطن والأمم المتحدة مسئولية دماء الصومال وأزمته الراهنة وسعت لالقاء القبض عليه ومحاكمته كمجرم حرب ارتكب جرائم ضد الإنسانية ولكنهم فشلوا فى الايقاع به رغم المكافأة السخية التى رصدوها لمن يرشد عنه(١).

ولفظ عيديد فى اللغة الصومالية يعنى شديد البأس أو صعب المراس.. وربما تنطبق هذه الأوصاف على حامل الاسم فهو رجل عسكرى من قبيلة الهوية، شغل منصب سفير الصومال فى الهند لسبع سنوات فى عهد الرئيس المخلوع سياد برى، وكان رجلاً طموحاً متديناً مغرماً بالآداب ويقرض الشعر ويتكلم خمس لغات منها الانجليزية والايطالية والروسية ويستطيع أن يخاطب الجماهير عدة ساعات فيستحوذ على عقولهم ويلهب افئدتهم ويقنع من يستمع إليه حتى ولو كان من المعارضين له.

هذا الرجل كان يمكن أن يكون رئيسا للصومال إذا اغتنم الفرصة بعد سقوط «برى» وظل فى العاصمة مقديشيو. ذلك أنه هو القائد الذى أطاح بالديكتاتور السابق. وبعد هزيمة برى فى يناير ١٩٩١ وهروبه إلى كينيا مصطحبا معه كل احتياطى الذهب الخاص بالدولة ارتكب عيديد خطأه الكبير وبدلا من أن يدخل مقديشيو ويدعم وضعه فيها فضل مطاردة «برى» إلي خارج البلاد ومكن ذلك حليفه وقتها ومنافسه بعد ذلك على مهدى محمد من السيطرة على العاصمة.

ومنذ ذلك الوقت ظل الاقتتال دائراً بين الرجلين للسيطرة على السلطة، اعتمد عيديد على زعامته والتأييد الشعبى له واستند مهدى على القوى الأجنبية الخارجية التى تحولت أغلبها من قوات تدخلت لانقاذ الصومال إلي قوات مقاتلة

(١) وهذا خلاف ماحصل فى العراق مع صدام حسين الذى خانوه مرتين مرة حين سلموا العراق ومرة حين سلموه لأعدائه

تقتل وتفتك بشعب أعزل بائس. وهكذا تحول عيديد من مقاتل من أجل السلطة إلى مقاوم ومناضل من أجل استقلال بلاده وطرد القوات الأجنبية من أراضيها.

وهكذا وجد نفسه يقود الحرب الرابعة فى تاريخ الصومال بعد الاستقلال. وكانت هذه الحروب جميعا من أجل التحرر وجمع شمل البلاد ووحدتها.. فالصومال اقتسمته القوى الاستعمارية وصار خمسة أجزاء، توزعت بين ايطاليا وانجلترا وفرنسا وأثيوبيا. كانت الحرب الأولى ضد أثيوبيا وشنت فى أعوام ١٩٦٠، ١٩٦٤، ١٩٧٧ وكانت فى اطار استراتيجية عامة تهدف إلى جمع شمل أجزاء الصومال الخمسة فى دولة واحدة، وبعدها فشل الصوماليون فى إعادة توحيد أجزاء بلادهم. اندلعت الحرب الثانية ضد سياد برى بعدما وقع اتفاق سلام مع أثيوبيا عام ١٩٨٨، تنازلت بموجبه رسميا عن مطالبة الصومال باقليم أوجادين أحد الأقسام الخمسة. وكانت الحرب الثالثة بعد سقوط نظام برى وحدوث فراغ سياسى أثر الاطاحة به مما فتح باب الصراعات القبلية المدمرة على مصراعيه ولم يستطع أى من الأطراف تحقيق انتصار عسكرى على الآخر وتداعى ما تبقى من أعمدة الدولة.

أما الحرب الرابعة فهى التى قادها عيديد ضد الوجود الأجنبى فى الصومال وتدخل القوات الأمريكية فى حملة إعادة الأمل ثم قوات الأمم المتحدة فى حملة يونيصوم ٢ وأطاحت بالرئيس سياد برى الذى كان يصور بأنه يأتى الدولة الحديثة فى الصومال، وبدلا من أن يوحد بلاده اندلعت المواجهات القبلية العنيفة ضده سرعان ما تحولت إلى حرب أهلية لازالت تزلزل أنحاء الصومال.

الحقيقة أن الرئيس برى لم يسقط فى يناير ١٩٩١، فقد سقط فعليا هو ونظامه منذ أن انفجرت الحرب الأهلية فى البلاد فى مايو ١٩٨٨ بعد فشله فى حرب الأوجادين وأصبحت المشكلة التى تواجه الصومال هى كيفية عودة الوحدة الوطنية للشعب الصومالى وتوحيد جبهات المعارضة لصالح الوحدة الوطنية. بعد

أن رجعت عجلة الزمان بالصومال إلى الوراء، وبعد عقدين من حكم الرئيس المخلوع برى أصبح المطلب هو وحدة الشعب الصومالى بدلا من وحدة التراب الصومالى، وهو الشعار الذى كان أمل الصوماليين عندما قبض «برى» على زمام السلطة فى اكتوبر ١٩٦٩.

عندما قامت ثورة اكتوبر ١٩٦٩ بزعامة سياد برى، رحب الشعب الصومالى بالانقلاب العسكرى بحماس لينهى مظالم حكم مدنى غير مستقر استمر تسع سنوات منذ نال الصومال استقلاله عام ١٩٦٠، ورأى فى قائد الانقلاب محمد سياد برى الزعيم الوطنى الذى سيحقق حلمه فى استقرار الأوضاع فى البلاد وتوحيد التراب الصومالى. وكما سبق القول كانت القوى الاستعمارية قد قتتت الصومال إلى خمسة أجزاء، اثنان وقعا فى قبضة بريطانيا وواحد لفرنسا وجزء لأثيوبيا والخامس لايطاليا. وفى عام ١٩٦٠ استقل جزءان هما الايطالى وواحد بريطانى وأقاما جمهورية الصومال. وبقيت معركة تحرير بقية أجزاء الصومال وتوحيده هو الأمل والحلم للشعب الصومالى.

والحقيقة أن محاولة تحقيق هذا الحلم إلى واقع كلف برى الكثير، وكانت طموحاته هذه هى جوهر أزماته، كما كان فشله فى حروب التوحيد أحد العوامل التى بلورت المعارضة ضد نظامه وأطاحت به فى النهاية.

جذور الأزمة :

عندما تولى سياد برى السلطة عام ١٩٦٩ وجد نظامان متناقضان هما النظام القبلى التقليدى القائم على الرعى والمقايضة والنظام الحضرى الذي ارتبط بأجهزة الدولة ومشاريعها وارتبط انتاجه بالسوق المحلية والعالمية.

لم تعمل الدولة على مزج هذين النمطين في اطار خطة للتنمية، بل ان تدخلها عبر النمط التقليدى الأول اصطدم بزعماء القبائل فى اطار عمليات تأميم

الصادرات والواردات، وأدى ذلك إلى دخول أجهزة الدولة فى معركة مع شيوخ القبائل وأعدم بعضهم وأضيرت مصالحهم الاقتصادية وأوضاعهم الاجتماعية بفقدانهم تجارتهم للماشية مع أسواق الخليج والسعودية ومصر.

وكانت النتيجة هى التماسك القبلى وعزلته عن أجهزة الدولة والاعتماد على تهريب الماشية وتجارتها مع الدول المجاورة. وبالنسبة للنمط الإنتاجى الثانى المرتبط بأجهزة الدولة فقد شابه أيضا خلل فى توزيع برامج وخطط التنمية، تمثل فى اهمال شمال البلاد تنمويا فشيدت مشاريع تنموية فى جنوب ووسط الصومال آبان الحركة الانشائية العمرانية التى قادتها الدولة بمساعدة الاتحاد السوفيتى (سابقا).

بينما ظل الشمال برغم الجهد الفردى الذى بذله أبناؤه المغتربون ورغم العلاقات التجارية مع جيبوتى ودول الخليج ظل غاية فى التردى والتخلف مقارنة بالجنوب والوسط، وتزامن مع هذا الخلل فى إدارة وتوزيع مشاريع التنمية مع ما أسماه الشماليون بعمليات تنظيف المناصب العليا فى الإدارة الصومالية والجيش من الشماليين، وترتب على ذلك اثارة النعرات القبلية بين الشمال والجنوب.

ومن ناحية أخرى يمكن القول أن النزاع السياسى الذي أدى إلى الحرب الأهلية فى الصومال لم يكن أصلا بين العشائر فحسب بل كان فى جوهره نزاعا على المصالح بين ثلاث مجموعات اقتصادية فى المجتمع هي الرحل والريفيون والحضر.

كما ينبغى التأكيد على أن السياسين والقادة العسكريين ينتمون إلى الشريحة العليا فى النظام الاجتماعى التى تشمل فقط سكان المدن بمن فيهم الأقلية المتعلمة والتى لا تشكل أكثر من ٢٠٪ من السكان.

وفى المقابل فإن القيادة التقليدية- بالرغم من اضعافها طوال ما يزيد عن ٣٠سنة من الحكم شبه الحديث وتقويض سلطتها طوال أكثر من عقدين من الديكتاتورية العسكرية لاتزال تتمتع بالنفوذ والاحترام لدى الأغلبية السكانية من الرحل الذين يشكلون ٨٠٪ من السكان.

وبسبب الاحباط لفشل نظام الحكم الحديث المتمثل فى المؤسسات الحكومية والدولة لجأ الصوماليون إلى نظامهم القديم وهو التنظيم القبلى أو العشائرى. ومن جهة أخرى عمل نظام برى على ازكاء الخلافات بين هذه القبائل لتحقيق أهدافه، وبث عدم الثقة بين مختلف العشائر والفصائل. وقد أدى هذا الأسلوب إلى خلق نزعة الشك والريبة ليس بين القبائل فحسب بل إزاء أى سلطة مركزية وأصبح الشعب متشككا فى حيدة أية سلطة مركزية، ويظهر ذلك بوضوح ما قام به الصوماليون من تدمير كافة رموز الدولة وهياكلها ومؤسساتها فى سباق حربهم ضد نظام برى.

وبالنسبة للوضع الاقتصادى فقد شهد فترة الثمانينات أزمة اقتصادية تعود للأسباب الآتية :

١- حدثت تغيرات ملحوظة فى أسعار تصدير الماشية الصومالية بسبب المنافسة الاسترالية الشديدة على السوق السعودية التى كانت تستوعب ٩٠٪ من الانتاج الصومالى. وأدى خوف الصومال من فقد هذه السوق إلى تخفيض أسعارها، بالإضافة إلى قلة الإنتاج بسبب انتشار المواجهات المسلحة مع النظام. وترتب على خفض الأسعار وتقليل التصدير انكماش دخل البلاد من العملة الصعبة. كما أثرت حرب الخليج الثانية على استيعاب السوق العربية للانتاج الصومالى مما ضاعف من الآثار السلبية للأزمة على دخول الرعاة والمنتجينوالتجار.

٢- أثر الجفاف الذى اجتاح شرق افريقيا وبخاصة القرن الأفريقى على انتاج الثروة الحيوانية، كما هلكت ثروة الموز الصومالى الذى يمثل نسبة هامة من صادرات البلاد.

٣- لجأت أجهزة الصومال بعد أن فقدت جزءا هاما من قدراتها الاقتصادية بسبب الحرب مع أثيوبيا لاستعادة الصومال الغربى إلى الاستدانة من المؤسسات المالية الدولية، فى عام ١٩٧٩ بلغ العجز فى ميزان المدفوعات ٢٢٠ مليون دولار، وارتفع عام ١٩٨٦ إلى ٣٧١ مليون دولار، بينما وصل عام ١٩٨٨ أكثر من ٣٨٠ مليون دولار. ويعادل هذا الرقم الأخير خمسة أضعاف داخل الصادرات الصومالية. وارتفعت نسبة التضخم فى نفس العام إلى ١١٠٪ فى بلد لا تكفى كل صادراته لتغطية نصف قيمة خدمة ديونه البالغة ٣ مليار دولار. وكنتيجة مباشرة لذلك عم البؤس ليصير الدخل السنوى للفرد ٣٨ دولار. واستفحلت البطالة واختفت الخدمات الاجتماعية.

٤- ساهمت الهزيمة العسكرية لنظام برى في حربه مع اثيوبيا والتى استمرت من سنة ١٩٧٤ حتى ١٩٧٨، ساهمت فى فقدان النظام للشرعية السياسية. وبالإضافة إلى ما خلفته هذه الحرب من لجوء أكثر من ربع مليون نسمة إلى الشمال الفقير ليزيد من مشاكله مع النظام، فإن قضية الوحدة الصومالية تعرضت لنكسة كبرى بالهزيمة أمام اثيوبيا.

ومثلما اشترطت كينيا توقيع اتفاقية للحدود عام ١٩٨١ حاولت أثيوبيا اجبار الصومال على الاعتراف بالحدود القائمة فى اتفاقية ابريل ١٩٨٨ كشرط لتطبيع العلاقات بين البلدين، وقادت تداعيات الهزيمة ونتائجها إلى سيطرة العسكريين على المناصب القيادية فى المحافظات والادارات الحكومية وصارت المناصب السياسية العليا فى يد الجنوبيين. وبالذات بين أبناء عائلة برى من قبيلة المريجان الصغيرة.

ومثلما تعرضت قضية وحدة التراب الصومالى إلى تلك النكسة، تعرض أيضا الوفاق الوطنى إلى الانقسام أمام جبروت الحكم الفردى وتطبيقه لسياسة قبلية. تقوم على تمير قبيلة واحدة ومنحها امتيازات خاصة وضرب الآخرين، وأدى ذلك إلى تدهور الحالة الأمنية وتزايد الاعتقالات، وولد هذا الاضطهاد السياسى والاجتماعى الذى اتخذ طابعا عنصريا وقبليا انبثاق الحركات المسلحة للتخلص من النظام القائم.

بروز المؤتمر الصومالى الموحد :

تشكلت جبهة المؤتمر الصومالى الموحد الذي تزعمها فارح عيديد وكان منافسه (على مهدى محمد أيضا عضو بارزا فيها) تشكلت عام ١٩٨٩ فى روما من تجمع سياسيين قدامى وضباط سابقين من قبائل الهوس فى وسط البلاد وحول العاصمة مقديشيو ومن الجنود المنسحبين من الجيش الصومالى. وأعلنت قوات المؤتمر بقيادة فارح عيديد الحرب على سياد برى واستطاعت مع القوى الأخرى (المتمثلة فى ثلاث جماعات رئيسية مقاتلة هى الحركة الوطنية الصمالية التى تسيطر على الشمال، والجبهة الديمقراطية لانقاذ الصومال التى تسيطر على الإقليم الشرقى والجبهة الوطنية لتحرير الصومال التى تسيطر على الإقليم الغربى).

استطاع المؤتمر الصومالى الموحد بهذه القوى وبإرادة الشعب من الاطاحة بالرئيس برى والسيطرة على العاصمة وطرده منها. ولكن ما ان استولى المؤتمر على السلطة حتى انشق إلى فصيلين أحدهما بزعامة فارح عيديد والثانى بزعامة على مهدى محمد.

فبعد ساعات من الاطاحة بالرئيس برى قامت جماعة من قادة المؤتمر بالسيطرة على راديو مقديشيو دون موافقة الجنرال عيدبد الذى كان يقود

المعركة ضد القوات الحكومية. وبدون علمه أيضا، وكذلك دون موافقة اللجنة المركزية للحزب.

واستطاعت هذه الجماعة التى تمثل الطبقة الثرية - فهم أساسا من رجال الأعمال والتجار والأغنياء- استطاعوا مع تأييد سياسى وعسكرى قليل أن يقبضوا على السلطة ويعينوا على مهدى محمد رئيسا للصومال خلفا لسياد برى.

ولم يقبل ذلك الجناح العسكرى الذى يقوده فارح عيديد ورفض هذا التصرف وقال انه لم يؤخذ رأيه فى موضوع تعيين رئيس الجمهورية وأن سياسة الأمر الواقع هذه لا يقبلها مهما كانت العواقب.

التدخل الأجنبى :

دار الاقتتال بين الرجلين، اعتمد عيديد على زعامته والتأييد الشعبى له واستند على مهدى محمد على القوى الأجنبية الخارجية التى تحولت من قوات تدخل لانقاذ الصومال إلي قوات تقتل وتفتك بشعب أعزل بائس، وتحول عيديد من مقاتل من أجل السلطة إلى مدافع عن استقلال بلاده ومجاهد لطرد القوات الأجنبية من أراضى الصومال، وهكذا وجد نفسه يقود الحرب ضد الوجود الأجنبى للقوات الأمريكية فى حملتها التى سمتها إعادة الأمل (يونيصوم ١) ثم قوات الأمم المتحدة فى حملتها يونيصوم٢.

وقصة الوجود الأجنبى فى الصومال، تعود إلي فترة الحرب الباردة عندما كان للاتحاد السوفيتى مواطئ أقدام قوية فى منطقة القرن الأفريقى التى تمثل شرق أفريقيا وجنوب الجزيرة العربية ومدخل البحر الأحمر. وكان للاتحاد السوفيتى نفوذا قويا فى اليمن الجنوبى وفى أثيوبيا (أيام حكم مانجستو) وفى الصومال (سياد برى) فلما انهار الاتحاد السوفتى وبدأت الحكومات المعتمدة

عليه فى القرن الأفريقى تتساقط الواحدة تلو الأخرى، أرادت الولايات المتحدة أن ترث هذا الميراث وتدعم نفوذها فى هذه المنطقة الخطيرة. وجاء دور الصومال.

ومن جهة ثانية فان حركة جارنج الانفصالية فى السودان كانت فقدت دعمها الكبير الذى يأتيها من أثيوبيا بسقوط مانجستو، وبدأت حكومة السودان المركزية تسيطر على الجنوب وتكبد جارنج هزائم هددت بتصفية حركته تصفية نهائية، ولم يرض هذا السياسة الأمريكية بطبيعة الحال، ونظرت الولايات المتحدة إلى الصومال أن تكون موطئ قدم لها لتمد نفوذها إلى السودان ولتدعم حركة الجنوب الانفصالية.

بدأت الولايات المتحدة تتحرك، تدعم الحروب الأهلية فى الصومال وشنت حملة دعاية واسعة على الصومال وشعبه بأنه لا يستطيع أن يحكم نفسه بنفسه، ويتردى فى وهاد الجوع والعرى والقتل المتبادل فى حركة أشبه بالانتحار الجماعى، وبدت الولايات المتحدة فى صورة المنقذ المخلص «ميكى ماوس» الذي يرد الشر ويدفع الصومال إلى الحضارة والرخاء.

وتحت شعار انقاذ الصومال نزلت القوات الأمريكية أرض الصومال سنة ١٩٩٢ فى عملية سمتها إعادة الأمل، ولكن هذه العملية آلت سريعا إلى عملية جلب الموت وما بدا من أنها عملية تهدئة تحولت إلى حرب دامية واسعة النطاق بين القوات الأمريكية الغازية والقوات الوطنية.

وبينما كانت الطائرات الأمريكية المروحية تطلق النار على النساء والأطفال الأبرياء كان رجال عديد يحملون جثث الطيارين الأمريكيين الذين حصدتهم النيران ويجوبون بها الشوارع كنوع من مواكب المذلة لأمريكا.

وكان مشهد القتلى الأمريكيين وصورهم عبر شاشات التليفزيون الأمريكى كافية لأن تجبر كلينتون على اعلان سحب القوات الأمريكية من

الصومال وانهاء عملية إعادة الأمل، بعد أن خشيت أن تصبح الصومال فيتنام أخرى وسلمت الولايات المتحدة المهمة للأمم المتحدة بأن تقوم بدورها فى اخضاع الصومال وهو ما عرف بعملية يونيصوم٢

والمؤسف أن الأمم المتحدة عندما استلمت الأمر شجعت فصائل مقاتلة لم تكن موجودة أصلا أثناء الصراع من أجل الاطاحة ببرى. كما يصعب القول بأن أيا من هذه الفصائل تمثل أى شخص سوى رؤسائها، واعترفت بهم لاضعاف عيديد والجنرال جسى وهما القيادتان الأساسيتان اللتان أطاحتا بديكتاتورية برى.

وتحقيقا لهذه الغاية أعملت القوات الدولية القتل والتدمير وحدث الصدام الدامى بينها وبين عيديد. كان الصدام الأول عندما نسفت القوات الدولية مقر عيديد ومركز قواته وقتل فى هذا الاشتباك ١٤ صوماليا. ولكن عيديد أفلت ونجا من هذه الغارة. ثم أصدرت الأمم المتحدة أمرا بالقبض عليه وقامت قواتها بتمشيط المدينة بالطائرات الهليكوبتر تفتض فى كل أنحاء المدينة عن الرجل. (ودمرت هذه الغارة مقر اذاعة مقديشيو الذى كان واحدا من المؤسسات القليلة جدا التى حوفظ عليها من المجموعات المقاتلة أثناء الحرب الأهلية وذلك لأنها ليست مجرد محطة راديو وإنما هى أيضا مقر وزارة للاستعلامات وهى أيضا دار للمحفوظات الوطنية والأرشيف والمكتبة الوطنية الصومالية التى تجمع آداب الصومال وثقافاتهم. ان هذه الثروة القومية التى حطمتها قوات الأمم المتحدة باغارتها على اذاعة مقديشيو قد دمرت إلى الأبد ثروة لا يمكن استعادتها).

ورغم الحصار الذى فرض على عيديد فقد كان الصحفيون يجدونه بسهولة ويجرون معه الأحاديث، وكانت خطبه وأقواله تتناقل فى الشوارع وبين الجماهير، ومع ذلك عجزت مخابرات الولايات المتحدة والأمم المتحدة عن ملاحقته

ثم حدث الصدام الثانى بين قوات عيديد والأمم المتحدة عندما حاولت قوات الأمم المتحدة مستخدمة الهليكوبتر تدمير أماكن سلاح عيديد وقد تكون هذه السياسة العمياء فى التدمير من الجو أضرت ببعض رجال عيديد وذخائرهم ولكنها تسببت فى قتل المئات من أفراد الشعب الأبرياء واستفزت المواطنين العاديين الذين شعروا أنهم يهاجمون من قوات أجنبية غريبة، وبدت قوات الأمم المتحدة تمثل قوات احتلال وتحولت من مخلص لهم إلى محتل لأرضهم.

وصارت عمليات يونيصوم ٢.١ فى عيون الصوماليين عمليات جلب للموت، وتفجرت الاشتباكات العنيفة بين قوات الأمم المتحدة وبين المواطنين الصوماليين العاديين. ولم يعد فى مقدور قوات الأمم المتحدة أن تسير فى شوارع مقديشيو وكان عليهم أن يستخدموا الهليكوبتر فى تنقلاتهم العادية حتى لا يظهروا أمام الشعب الكاره لهم. هذا الوضع الذى أصبح مستحيلا فى مقديشيو جعل الأمم المتحدة تطلب رأس عيديد. ولكن فشلت كل الجهود الدولية أن تقبض عليه أو تستميل أحدا من الصوماليين للارشاد عنه وكشف مكانه وهو أبلغ دليل على أن عيديد أصبح يمثل بالنسبة لشعبه بطلا قوميا تحميه الجماهير. فلم يفش أحد أمره رغم المكافأة لمن يرشد عنه.

والحقيقة أن الأمم المتحدة عندما تدخلت فى الصومال لم يكن لديها هدف واضح سوى القبض على عيديد. وقد انتقد ممثلها الخاص «محمد سحنون هذا التدخل وطالب بايضاح الأهداف السياسية للعملية، وقال أن هناك ٣ آلاف طفل صومالى على الأقل يموتون وقوات الأمم المتحدة تقف متفرجة وقد طرده بطرس غالى الأمين العام للأمم المتحدة وقتها.

ثم أرسل الأمين العام للأمم المتحدة مستشارا آخر هو «شنمايا حارنجان» الذى قام بجولة خاصة فى الصومال أعلن بعدها (هو أيضا أن الأمم

المتحدة تتصرف بشكل غير سليم فى الصومال وأن عملية يونيصوم ٢عجزت أن تفعل شيئا سوى قتل المئات من الأبرياء).

وأمام هذه الشهادات وتدهور الوضع الأمنى للقوات الدولية حاولت الأمم المتحدة احتواء الأمر بعقد مؤتمرات سياسية للقوى الوطنية. ولما كان عيديد أحد أطراف هذه القوى وبما أنه مطلوب اعتقاله بتهمة ارتكاب جرائم حرب ضد الإنسانية فقد نشأت عن ذلك مشكلة قانونية معقدة اضطرت الأمم المتحدة في سبيل حلها إلى الغاء قرارها باعتقال عيديد وعاد حرا طليقا وصار يمثل شعارا ورمزا للقومية الصومالية التى تدافع عن نفسها ضد القوات الأجنبية التى تطالب بدمه.

وأصبح بطلا قوميا ورمزا لدفاع الصومال عن نفسها ضد التدخل الأجنبى وزادت شعبيته بين أنصاره، فزار دول عدة لقى فى معظمها استقبال الرؤساء وزاد هذُ قناعته بأنه الرئيس الوحيد للصومال. ولكن لم يتح لعيديد أن يحقق هذا الحلم فقد أزعج سلوكه الرئاسى أقرب الأشخاص إليه وممول آلته الحربية «عثمان على حسنى» الملقب «عطو» فانشق عليه وتحالف مع خصمه اللدود «على مهدى محمد» الذى نصب نفسه أيضا رئيسا للصومال. وفى معركة مع فصيل على مهدى جرح عيديد وضاعف من شدة اصابته مرضه بالسكر، ثم أعلن وفاته متأثرا بجراحه.

لا جدال أن عيديد كان قوة رئيسية فى الصومال وكان رئيس الفصيل الكبير الذي ينطوى تحته قبائل كثيرة، البعض يعتقد أن وفاته ستترك فراغا سياسيا وأن اختفاءه سيحدث المزيد من التردى ويدفع إلى مجابهات حادة بين القوى والفصائل المختلفة، فى حين يأمل البعض الآخر أن يسمح زوال عيديد فى جمع الفصائل المتنافسة على مائدة مفاوضات تهيىء لوضع حد للنزاع فى الصومال.

ولكن الأمر ليس على هذا النحو من السهولة والبساطة فقد علق هيرمان كوهين وزير الشئون الأفريقية فى حكومة بوش التى تم لديها التدخل الأمريكى فى الصومال، علق قائلا أن القضية ليست مائدة مفاوضات ومصالحات واجماع بين الفصائل.

وإنما هى قضية شكل الحكم فى الصومال، إذ يجب أن يتوفر بديل عن المركزية القوية التى كانت تفرضها حكومة برى، فإذا وجدت حكومة ضعيفة تسمح بدور فعال للعشائر يمكن التوصل إلى نظام مستقر فى الصومال.

الحقيقة أن الدور الذى قام به عيديد فى الصومال يعيد إلى الأذهان الزعامات الأفريقية التى استطاعت أن تقاوم الاحتلال الأجنبى وتعيد صورة الزعامات الوطنية التى ظهرت بعد الحرب العالمية الثانية وقاومت وتصدت للاستعمار مثل نكروما وسيكوتورى وجومو كينياتا ونيريرى وغيرهم من جنوب الصحراء. وإذا كان عيديد لم يمتد به العمر ليحقق حلم استقلال بلاده ولم شمل ترابها فهذا لا ينفى عنه أنه كان زعيم التف حوله شعبه وحماه من القوات الأجنبية عندما طالبت برأسه. وإذا كان موته قد يفتح الطريق إلى السلام كما تقول الولايات المتحدة، فالسؤال أى سلام سيكون ؟ هل سلام يحترم السيادة الوطنية لشعب الصومال أم سلام «بكس رومانا» السلام الرومانى الناتج عن هيمنة منفردة لامبراطورية واحدة على العالم كله كما كانت روما فى فترة ما قبل الميلاد.

عيدى أمين .. مهرج أم زعيم

لم تثر شخصية أفريقية اهتمام الرأى العام بقدر ما أثارته شخصية الرئيس الأوغندى السابق «عيدى أمين». فقد دأبت الصحافة الغربية على الكتابة عنه بشكل يثير السخرية والحنق عليه.. قاهر الامبراطورية البريطانية.. ظهر.. اختفى .. عاد تقدم تقهقر.. ترك العاصمة.. اختبأ.. وهكذا تصوره كظاهرة من ظواهر التخلف.

فمن هو عيدى أمين ؟ أهو مهرج أم زعيم وطنى شاء أن يؤكد استقلال بلاده؟

الحقيقة أن «عيدى أمين» شخصية معقدة تحتاج إلى نظرة متعمقة لتقييمها. فهو من أغرب الرؤساء الذين حكموا فى القرن العشرين. ومن أكثرهم جرأة في اتخاذ قرارات غير متوقعة لا شأن به بالقوانين الدولية ولا بالسلوك الدبلوماسى، وهو لا يبال بسمعته ولا يهتم كثيرا بما يوصف به وما يطلق عليه.

جذب الأنظار بتصرفات تخلط الجد بالهزل ومواقف جريئة لا تؤمن بسياسة أوغندية ثابتة فالسياسة فى نظره فى تغيير مستمر حسب مواقف الدول منها. ومن هذا المفهوم كانت ردود فعله حادة وحازمة.

طرد النفوذ الصهيونى والأمريكى والبريطانى والكندى لتدخل هذه الدول فى سياسته، وطرد الأسيويين الذين كانوا يسيطرون على عصب الحياة الاقتصادية فى أوغندا كمحاولة لتحرير اقتصاد البلاد من الجاليات الأجنبية التى وصفها بأنها عميلة للاستعمار.

وكان هذا الاجراء - طرد الأسيويين - الذى اتخذه «عيدى أمين» فجر استيلائه على السلطة نقطة البداية فى محاربة الغرب له. انطلقت أبواق الدعاية الاستعمارية فى الهجوم عليه بل وفى الهجوم على كل اجراء يتخذه بلد أفريقى

لتحرير اقتصاده. وذلك عن طريق التركيز على أن كل اجراء يقصد به ضرب المصالح الأجنبية إنما هو لون من ألوان التفرقة العنصرية يمارسه السود ضد البيض!!

وقرار طرد الأسيويين قرار لم تتخه أوغندا وحدها بل سبقتها دول شرق أفريقيا فكينيا اتبعت سياسة تدريجية لاستبعاد الأسيويين عن مجالات الاقتصاد، سحبت تراخيص الاتجار من غير المواطنين وتشددت في منح أذونات الاقامة. وتجنبت تانزانيا مثل كينيا الإشارة إلى مسألة العنصر واتبعت سياسة التأميم وأصدرت قانونا بتحريم الاقطاع .

وكان هذا ضربة قوية للجالية الآسيوية أكثر من أى جالية أخرى. وكادت أوغندا تسلك نفس الطريق . ففى مايو ١٩٧٠ أعلنت حكومة «ميلتون أوبوتى» الرئيس الأوغندى الذى أطاح به «عيدى أمين» فى بداية عام ١٩٧١، أعلنت أنها عازمة على أفرقة الاقتصاد بحيث يصبح مع عام ١٩٧٧ أفريقيا تماما.

وفرضت قيودا على تجارة التجزئة وطلبت من غير المواطنين أن يحصلوا على تراخيص لمارسة هذا النشاط وحدت من منحها لهم، وأخذ الأسيويون من غير المواطنين فى الرحيل عن أوغندا بمعدل ألفى شخص كل شهر.

ولكم تستطع الدول الغربية أن تهاجم هذه الاجراءات وقتها فلا يجرؤ أحد على القول بأن التأميم اجراء عنصرى، حتى جاء قرار الرئيس «عيدى أمين» بطرد جميع الأسيويين فاستغلت الدوائر الغربية هذا الاجراء بشن حملة عنيفة عليه، وبدأت المؤامرات والانقلابات ومحاولات الاغتيال ضده. ففى عام ١٩٧٢ قام المنفيون الأوغنديون أنصار الرئيس السابق «ميلتون أوبوتى» الذين لجأوا إلى تانزانيا بمحاولة انقلاب فاشلة، وتمت مصالحة بين أوغندا وتانزانيا أدت إلى نزع سلاح رجال «أوبوتى» ومنعهم من التدريب فى تانزانيا.

وكان يمكن أن يعود حسن الجوار بين البلدين الأفريقيين إلا أن الرئيس «عيدى» اتخذ قراره الثانى الذى أثار تانزانيا وهو الخروج من منظمة شرق أفريقيا الاقتصادية التى كانت تتزعمها تانزانيا، وأدى هذا الانسحاب فى النهاية إلى حلها. يضاف إلى ذلك استضافة تانزانيا لأوبوتى وأنصاره فأخذ الخلاف بتعمق بين الرئيسين نيريرى وأمين.

ثم كان اجراؤه الحاد الثالث بتصفية الجيش الأوغندى التقليدى بأسلحته الغربية وبناء جيش جديد بأسلحة شرقية مع اقامة علاقات وثيقة مع الدول الاشتراكية، ولكنه وقع فى خطأ تشكيل هذا الجيش عنصريا فاعتمد على بعض القبائل من الشمال وخلق نوعان من الميليشيا الخاصة المتميزة من كل القوى الشعبية، فأثار ذلك عناصر الجيش الوطنى القديم وانضمت أغلب قياداته إلى صف أوبوتى.

واتجه «عيدى أمين» بعد أن قطع كل أوصال الصلة بالعالم الغربى إلى العرب والدول الإسلامية فقطع علاقاته بإسرائيل وأقام جسرا لعلاقات وثيقة مع بعض الدول العربية واعتمد فى سياسته على الأقلية المسلمة فى أوغندا رغم أنها أقلية لا تزيد عن ١٥٪ من تعداد السكان ودفع بها إلى المراكز القيادية وشكل مجلسا إسلاميا فاستفز ذلك مشاعر الباجندا التى تشكل الأغلبية فى أوغندا.

واجه «عيدى أمين» فوق هذه المشاكل صفعة قوية لاقتصاد بلاده، وذلك بانهيار سعر البن وهو المصدر الوحيد للعملات الأجنبية التى يعتمد عليها اقتصاد أوغندا. فبعدما كان فى عام ١٩٧١ أى عند تسلم أمين السلطة يبلغ ١٥٠ مليون دولار سنويا بلغ عام ١٩٧٩ سبع ملايين فقط (فى الوقت الذى تم تهريب جزء كبير منه). ولا يخفى أن انهيار سعر المحاصيل الأولية أو الامتناع عن استيرادها من أهم وسائل الضغط على دول العالم الثالث التى تعتمد على المحصول الواحد

فما من دولة حاولت السيطرة على انتاجها أو مواردها الأولية والتمسك باستقلال اقتصادياتها الا وهوجمت فى تجارتها الخارجية. والشواهد على ذلك كثيرة لعل أبرزها امتناع الغرب عن شراء محصول الكاكاو من غانا حتى سقط نظام نكروما الوطنى.

المهم أن «عيدى أمين» حوصر اقتصاديا وسياسيا واعلاميا. وضيق عليه الخناق وهو صاحب الدولة القارية المحرومة من السواحل ومن امكانيات التنمية فأصبح الرئيس أمين أشبه بمن وقع فى مصيدة مهما قفز قفزاته محدودة لا تعينه على الفكاك من ورطته.

لم يهتم «عيدى أمين» بحصاره، كما لم يهتم بما شاع حوله ولم يحسن حساب علاقاته الدولية وأصبحت سياسته مترددة، فلم يعد هناك مبادئ ثابتة للسياسة الأوغندية وإنما هى ردود أفعال لما يواجهه فانتشرت قوى معارضة متنوعة ضده حتى بلغ عدد المنظمات المعارضة له سبعا اتحدت جميعها فى جبهة واحدة. فعمل «أمين» على البطش بها والقاء التهم جزافا على كل شخصية سياسية معارضة فى أوغندا.

ولم تؤد هذه السياسات الا إلي تزايد المعارضة حتى أصبحت أغلب الشخصيات السياسية المعارضة ملتفة حول الرئيس السابق أوبوتى الذي قاد الحرب ضد «عيدى أمين». وكانت هذه العناصر من أقرب رجال أمين.

يضاف إلى ذلك الفقر الشديد الذى يعيشه أهل البلاد وامتناع سيارات نقل البترول عن الدخول عبر كينيا إلى أوغندا فأصبحت البلاد فى محنة حقيقية. وأصبح نظامه وشيك السقوط بين ليلة وأخرى حتى سقط، وعاد أوبوتى إلى الحكم ليسقط مرة أخرى على يد الرئيس موسوفينى.

ومهما قيل عن «عيدى أمين» فهو نوع من الزعامات القبلية التى شاعت أن

تحقق لبلدها درجة ما من الاستقلال الحقيقى، ولكنه سلك فى ذلك أسلوبا بدائيا ولم يحاول أن يخفض الرأس أو يتراجع أمام الضغوط الخارجية فتجمعت عليه السهام وكانت سهام الصحافة الغربية أشد السهام ضراوة. ولم يكن لدى الرئيس «أمين» ما يرد به سوى اتخاذ مزيد من الاجراءات الفجة كسجن أحد الصحفيين البريطانيين والحكم عليه بالاعدام ولم ينقذه الا اعتذار الحكومة البريطانية رسميا. ولم يكن مثل هذا الاجراء سوى تعبير انفعالى لما يعانيه «عيدى أمين» من الصحافة العالمية التى تخلق من البعض أبطالا ومن آخرين أقزاما.

بوكاسا الطاغية

سقط «جان بيدل بوكاسا» امبراطور أفريقيا الوسطى فى اكتوبر ١٩٧٩ أطاح به انقلاب غير دموى أثناء عودته من ليبيا، قاده «ديفيد داكو» الرئيس السابق الذى حكم البلاد منذ استقلالها فى عام ١٩٦٠ حتى عام ١٩٦٥.

وبسقوط «بوكاسا» اختفى من المسرح السياسى شخصية من أقبح الشخصيات التى أساءت إلى أفريقيا، فقد كان نظامه يقدم دليلا على اتهام العنصريين والاستعماريين بأن الأفريقيين لا يصلحون أن يحكموا أنفسهم.

جمع «بوكاسا» بين انفلات عيدى أمين وارهاب شاه ايران ودموية سوموزا. ويبدو أنه كان يدرك وهو يعد نفسه للسفر إلى ليبيا أن الانقلاب آت لا محالة لذلك جمع معه كل ثروته ومجوهراته الثمينة.

جاء بوكاسا إلى السلطة أثر انقلاب عسكرى وقع عشية رأس السنة عام ١٩٦٥. قاده ضد «ديفيد داكو» . وظل شخصية حاكمة نكرة حتى شدت غرابة تصرفاته وسكره اهتمام الصحافة الغربية.

كان بوكاسا قبل أن يصل إلى السلطة جنديا فى الجيش الفرنسى. خدم فترة فى فتنام. وأنجب هناك فتاة جعلته أضحوكة أفريقيا عندما أيقظ بوكاسا الشعب والسلك الدبلوماسى لاستقبال ابنته (مارتين) فى مطار«بانجى» ثم اكتشف أنها ابنة مزيفة وأن هناك فتاة ثانية بنفس الاسم جاءت هى الأخرى.

فى فترة حكمه أصبحت العاصمة «بانجى» من أكثر مدن العالم خوفا وارتعادا .. ففي عام ١٩٧٢ أعلن «بوكاسا» أن اللصوص سيعاقبون بقطع آذانهم وأيديهم. وقاد بنفسه جنوده حيث قاموا بضربهم حتى الموت. وفى اليوم التالى عرضت جثث القتلى والجرحى فى وسط «بانجى»

فى عام ١٩٧٤ أعلن «بوكاسا» اعتناقه للماركسية، وقام برحلة إلي عدد من الدول الاشتراكية رومانيا والاتحاد السوفيتى والصين وكوريا وتايوان. وفى عام ١٩٧٥ ذهب إلى ليبيا وأعلن اعتناقه للدين الإسلامى وغير اسمه إلى صلاح الدين. وبعد عدة أسابيع عندما لم تصله الدولارات الليبية أعلن ارتداده عن الإسلا وعاد إلى اسمه الأول جان بيدل.

وفى ديمسبر ١٩٧٧ نصب نفسه امبراطورا مدى الحياة. ولكن قبل أن تتم امبراطوريته عامها الثانى بدأ عرشه يهتز وساد الشعور بأن «بوكاسا» انتهى. ولم يكن هذا الشعور نابعا من أحلام شعب أفريقيا الوسطى الفقير، ولكنه كان يستند إلى ظاهرة السخط المعلن التى أخذت تنمو ضده، ومن تصرفاته الشاذة مثل الأمر الذى أصدره أن يرتدى كل تلاميذ المدارس زيا موحدا يشترى من محل تمتلكه زوجته الامبراطورة. وهو المحل الوحيد الذى يحتكر بيع هذا الزى الغالى الثمن. فقام التلاميذ الصغار بمظاهرات احتجاج على القرار الامبراطورى وسرعان ما انضم اليهم الجماهير الساخطة.

عندما اشتدت المظاهرات طلب «بوكاسا» من صديقه «موبوتو» رئيس دولة زائير المجاورة العون العسكرى ليستطيع إعادة الأمور إلى نصابها. وشوهدت القوات الزائيرية تحرس الشوارع بينما وضع قواته المسلحة داخل الثكنات. وقيل وقتها أن هذه الانتفاضة كانت أكبر اضطراب داخلى يحدث فى هذا البلد المغلق منذ أن نصب «بوكاسا» نفسه امبراطورا.

وبسبب الفساد وسوء الإدارة وفقدان الكفاءة ساءت الأوضاع الاقتصادية وأفلست البلاد تماما. وحدث انحطاط خطير فى كافة قطاعات الاقتصاد التى تجلب للدولة عوائدها وانخفض انتاج الماس من ٥٠٠ ألف قيراط إلى ٣٠٠ ألف، والقطن من ٤١ ألف قنطار إلى ٢٧ ألف، والبن (وهو أحد المصادر الأساسية للتصدير) من ١٢ ألف إلى ١١ ألف طن.

وترتب على ذلك أن لم تعد للدولة ميزانية سنوية، إذ اعتادت على وضع ما يسمى بالميزانية الشهرية تخصص كل شهر للنفقات الضرورية. وتوقفت الدولة عن دفع رواتب موظفيها فتجددت المظاهرات.

وثار الامبراطور غضبا بسبب قذف الأطفال المتظاهرين لعربته بالحجارة فأمر بقتلهم، أطلق عليهم الرصاص وطعنوا بالحراب وتركوا يحتضرون حتى الموت، وقيل أنه اشترك هو بنفسه فى المذبحة التى راح ضحيتها ١٠٠ تلميذ صغير حسبما ذكرت الصحافة.

وقد ركزت المذبحة الأنظار على سوء الأوضاع فى افريقيا الوسطى. علق «جورج بوكاسا» ابن الامبراطور «بوكاسا» المنفى فى باريس والذى كان قد سحب منه لقب الأمير بعدما اختلف مع أبيه حول تجارة العاج فاعتقله الأب ثم طرده من البلاد. علق الأمير قائلا« أن ما يجرى في البلاد لا يمكن تصديقه.. ان الناس يعيشون فى رعب ولا يجرؤون على الكلام أو الاعتراض خشية الاعتقال.. وأن الأجور لم تعد تدفع..

ولم يعد ثمة أحد حرا ولا أحد يزور أصدقاءه خشية أن يعتقل فى أى وقت.. ان الجيش لم يعد له وجود ولم يبق سوى الحرس الامبراطورى.. وان أولاد الامبراطور أنفسهم البالغ عددهم ٣٠ يقيمون فى سويسرا فيما عدا اثنين منهم اعتقل أحدهما أثناء المذبحة».

اثر الانقلاب هرب «بوكاسا» إلي فرنسا التى صنعته وساندته فى أحلك سنوات فساده وقسوته، ظن أنه سيجد فيها عيش رغد أو على الأقل حياة ميسورة ولكنه لم يلق سوى خشونة فى المعاملة وشظف فى العيش وعاش فى تقتير مادى حتى أنه عجز عن دفع فواتير الكهرباء والماء فى القصر الذى كان يقيم فيه فى ريف فرنسا.

منذ أن أطيح به ظل «بوكاسا» يردد أنه مستعد للعودة إلى بلاده ومواجهة

عقوبة الاعدام التى صدرت ضده غيابيا عام ١٩٨٠. وأن الحكومة الفرنسية هى التى تخشى عودته لأنه يعرف أسرارا كثيرة عنها ولديه الكثير الذى يفشيه عن فضيحة الماس التى أودت بالرئيس جيسكار ديستان وبسببها وصل ميتران إلى السلطة.

وفى عام ١٩٨٥ استطاع بوكاسا الهرب من منفاه بفرنسا بمساعدة أمريكية وعاد إلى بلاده بمحض ارادته وسلم نفسه لسلطاتها وصرح بأنه لا يخشى أن ينفذ فيه حكم الاعدام وأنه جاء ليثبت براءته أمام العالم وأنه لم يكن من أكلة لحوم البشر ولا متعطشا للدماء وأنه برىء من مذبحة الطلبة. ومن القصص الخيالية الملفقة التى تروجها عنه الصحافة الغربية بأن ثلاجته كانت تمتلىء بالجثث الآدمية وأنه كان يتلذذ بأكل لحم معارضيه وكان يختار كل يوم قطعة منها لغذائه وأخرى لعشائه.

ولم تتورع صحيفة «محترمة» مثل الديلى تلجراف البريطانية من أن تكتب على لسان القنصل البريطانى فى ذلك الحين «ويدكو برمان» أن بعض وزراء أفريقيا الوسطى اكتشفوا عقب مأدبة أقامها لهم «بوكاسا» قبل الاطاحة به بأيام أنهم التهموا لحم أحد زملائهم. هذا رغم أن الشرطى الفرنسى الذى كلف بالقبض على بوكاسا صرح لدى وصوله فرنسا أن بوكاسا لم يكن أبدا سفاحا أو متعطشا للدماء كما تصوره الصحافة.

أعيدت محاكمة «بوكاسا» وحكم عليه بالسجن ٢٠ عاما ولو كان ارتكب الجرائم التى اتهم بها لما أفلت من حبل المشنقة.

وبعد ثمان سنوات فى سبتمبر ١٩٩٣ أطلقت السلطات سراح «بوكاسا» وأدهش هذا الاجراء المفاجىء الجميع، ولكنه دلل على أن تخفيض الحكم بالاعدام ثم الافراج عنه والاستقبال الذى لاقاه عند خروجه من السجن فقد التف حوله أكثر من ثلاثة آلاف من مؤيديه وهتفوا باسمه، كل هذا كان مؤشراً على صدق كلام «بوكاسا» بأن السلطات الفرنسية هى التى ساهمت فى

اقصائه بعد حملة تشهير بررت أمام الرأى العام العالمى الاطاحة به.

ان الدول الكبرى وأجهزتها ومخابراتها وتدخلاتها فى شئون الدول الصغرى أمر معروف ووارد، كذلك الذى لا يمكن تجاهله أو انكاره أن «بوكاسا» كان حاكما فاسدا يكفى ما أنفقه من خزائن بلاده الخاوية من أجل الاحتفالات بتنصيبه امبراطورا، ولكنه أيضا لم يكن أفسد ولا أسوأ من غيره من الحكام الذين نالوا تأييد ومساندة الغرب لهم حتى الممات مثل موبوتو رئيس زائير الذى حكم أكثر من ٣٥ عاما وجرائمه معروفة بدءًا بمقتل الرئيس لومومبا وانتهاء بالمذابح التى راح ضحيتها ألف قتيل، وهى مذبحة جنوب كاساى ومذبحة باندوندو ومذبحة الطلبة فى مومباشى. هذا فضلا عن اختلاسه المال العام وكانت ميزانية البلاد توضع باسمه فى بنوك الخارج. وظل موبوتو يلقى التأييد والعون الدوليين.

ولكن خطيئة «بوكاسا» أنه كان يلعب على المكشوف.. لم يهرب أموال بلاده للخارج كما فعل رؤساء أفارقة لم يفرقوا بين المال العام والمال الخاص ولا بين أملاك الدولة وثرواتهم الخاصة وأشرفت خزائن دولهم على الافلاس بينما حساباتهم فى البنوك الأجنبية تتزايد بتزايد فقر بلادهم. وإنما كان ينفق ثروة البلاد على ملذاته وعلى الهدايا لرؤساء الدول ليساعدوه فى البقاء فى السلطة مثلما فعل مع الرئيس الفرنسى ديستان. وعندما أطيح ببوكاسا لم توجد له ثروات فى الخارج سوى قصر فرنسا الذى التجأ إليه وعجز عن دفع نفقات إدارته فقطعت عنه الكهرباء والماء عدة مرات.

وليس هذا دفاعا عن «بوكاسا» فقد كان حاكما جاهلا ظالما غبيا أحمق وصل إلى رئاسة البلاد فى غفلة من الزمان بمساندة فرنسا المستعمر القديم لبلده التى اختاره وأعدته لهذا الدور، وعندما حاول أن يمارس قدرا ضئيلا من السلطة أطاحت به وشنت حملة ضارية لتشويه وتسوىء سمعته التى ليس لها أصلا رصيد.

نلسون مانديلا .. سجين الحرية

كان اسمه عند الميلاد «روليها هلا» ومعناه المشاغب، ولم يكتسب اسمه المألوف نلسون مانديلا حتى يوم التحاقه بالمدرسة، ومع أنه كان لا يؤمن بأن الأسماء تصنع قدر الإنسان، ولكن عزا أصدقاؤه الزوابع التى واجهها إلي اسمه. وفى أول يوم له فى المدرسة قالت له المدرسة أن اسمه الجديد هو نلسون مانديلا، فقد كان البيض لا يريدون ولا يستطيعون نطق الأسماء الأفريقية ويعتبرونهاتخلفا.

ولد فى شهر يوليو ١٩١٨ فى «مفيزو» وهى قرية صغيرة في اقليم أومتانا، كانت سنة مولده نهاية الحرب العالمية الأولى، وزيارة وفد المؤتمر الوطنى الأفريقى إلى فرساى لكى يعبر عن معاناة الأفارقة فى جنوب أفريقيا.

كان والده رئيس قبيلة، وكان يمكن لمانديلا أن يعيش حياة هادئة، فهو من أسرة حاكمة هى عائلة تيمبو الحاكمة بمنطقة ترانسكاى بجنوب أفريقيا. وكانت هذه العائلة تحكم المنطقة قبل أن تخضع لسيطرة العنصريين البيض وقبل أن تفرض عليها قوانين التمييز العنصرى التى سلبت المواطن الأفريقى صاحب البلد والأرض كل الحقوق الإنسانية : حق العيش والتنقل والتملك والعمل، وفرضت عليه ألوانا من العبودية والسجن والتعذيب. كل ذلك بموجب دستور جائر وضعه الغزاة البيض يحرم على الأغلبية الساحقة أصحاب البلاد الأصليون ممارسة السيادة على أرضهم.

وقصة الاستعمار فى جنوب أفريقيا قصة مريرة، لعل بقعة فى العالم لم تشهد نوعا من الاستعمار الاستيطانى العنصرى الذى جثم علي البلاد منذ عام ١٩١٠ فقد كان اعلان اتحاد جنوب أفريقيا بمثابة عمل من أعمال انهاء الاستعمار من جنوب أفريقيا ليعطى لهؤلاء المستعمرين الغزاة (المستوطنين

البيض) مزيدا من الحرية فى البطش وتجريد الأغلبية من حقوقهم ومن صفة المواطن ليخضعها لتمييز عنصرى فادح متواصل.

فى ظل هذه الأوضاع البائسة اليائسة ولد مانديلا عام ١٩١٨ وأتيح له ضمن قلة معدودة أن يدرس الحقوق بجامعة جوهانسبرج، وبدأ يتدرب علي المحاماة والأعمال القانونية. ولكن منذ بداية عمله اصطدم بقيود القوانين التى تكرس التفرقة والتمييز العنصرى. وطبقا لهذه القوانين منع مانديلا من العمل كمحام فى جوهانسبرج إلا إذا حصل على إذن من السلطات. وبالطبع لم تمنحه السلطات هذا الاذن، بل أصدرت أوامرها بابعاده الى منطقة بعيدة لكى يستحيل على زبائنه أن يصلوا إليه خلال ساعات العمل المسموح بها

وفى عام ١٩٤٤ انضكم مانديلا لحزب المؤتمر الوطنى الأفريقى الذى نأسس عام ١٩١٢، وقام بالاشتراك مع الآخرين لصياغة برنامج العمل للحزب الذى يعتبر حد فاصل فى تاريخ جنوب أفريقيا، فقد أعلن البرنامج الكفاح الوطنى للسود عن طريق الاضرابات والمقاطعة والعصيان المدنى.

وفى عام ١٩٥٢ قاد مانديلا «حملة التحدى» التى اشترك فيها ٨٥٠٠ من المواطنين المتعددى الأجناس ضد القوانين والتشريعات غير العادلة. فألقت السلطات القبض عليه وحكمت عليه بالسجن لمدة تسعة أشهر مع ايقاف التنفيذ ووضعته تحت المراقبة وحظرت نشاطه.

ويصف مانديلا كيف اضطهدته الحكومة فى السنوات التالية. وكيف حرمته من حقه فى ممارسة مهنته أو اعلان معتقداته يقول: «لقد اصطنعت الحكومة القوانين واستخدمتها ضدى لتغل نشاطى. وفسرت الحكومة قوانينها بطريقة محسوبة جعلتنى أبدو كما لو كنت خارجها عليها، ووجدت نفسى أعامل كمجرم بلا جريمة. لقد جعلنى القانون مجرما ليس بسبب فعل ارتكبته وإنما بسبب ما أرمز إليه وأناضل من أجله»

ثم أدين مانديلا بتهمة الخيانة العظمى الخيانة العظمى لأنه يدعو إلى قيام دولة ديمقراطية غير عنصرية يتساوى فيها الجميع فى الحقوق والواجبات. وأثناء نظر القضية التى استمرت أمام المحاكم ٤ سنوات وقعت مذبحة شاريفيل (فى مارس ١٩٦٠) وهى المذبحة التى أثارت غضب العالم كله وأسفرت عن مقتل ٦٩ أفريقيا وجرح المئات

وبالرغم من براءة مانديلا من قضية الخيانة العظمى، إلا أن السلطات أصبحت تعتبر مانديلا خارجا على القانون بصفة دائمة. وصدر الأمر بالقبض عليه، واضطر مانديلا إلى الاختفاء واللجوء إلى العمل السرى. وقام بتأسيس منظمة «رمح الأمة» الجناح العسكرى لحزب المؤتمر الوطنى الأفريقى.

وأصدر مانديلا باعتباره رئيسا للمنظمة بيانا جاء فيه «لقد انقضى عهد المقاومة السلمية وحدها ولم يكن الخيار خيارنا، لقد رفضت الحكومة العنصرية كل مطلب سلمى بالقوة والعنف.

ان الأمم فى وقت تجد نفسها أمام طريقين لا ثالث لهما: الكفاح أو الاستسلام. وقد جاء هذا الوقت على جنوب أفريقيا. ونحن لن نستسلم وليست أمامنا فرصة أخرى سوى أن نضرب بكل ما يتاح لنا من قوة لندافع عن حقوق شعبنا من أجل مستقبلنا وحريتنا».

واستطاع رغم تخفيه أن يغادر البلاد، وأن يشارك فى المؤتمر التأسيسى لمنظمة الوحدة الأفريقية التى عقدت فى أديس أبابا عام ١٩٦٣. وقد أثار هذا العمل ثائرة السلطات فى جنوب أفريقيا واعتبرته تحديا لها. وبمجرد عودته ألقت القبض عليه فى أغسطس ١٩٦٣ بتهمة مغادرة البلاد بطريقة غير قانونية، وأدين وحكم عليه بالسجن مدى الحياة.

وقد عرض نظام جنوب أفريقيا العنصرى على مانديلا أن يفرج عنه مقابل

أن يغادر البلاد، ولكن مانديلا رفض واشترط هو لخروجه من السجن أن يطلق سراح جميع زملائه المسجونين السياسيين، وأن تعترف الحكومة بشرعية حزبه حزب المؤتمر الوطنى الأفريقى قائلا «أن حريتى وحرية شعبى شىء واحد ولا يمكن أن يفصلا ولست مستعدا لأن أبيع أو أساوم على حق شعب جنوب أفريقيا فى أن يعيش حرا».

كان يوم ١١ فبراير ١٩٩٠ يوما مشرقا من أيام نهاية الصيف فى جنوب أفريقيا. وفى الساعة الثالثة والنصف بعد الظهر أفرج عن سجين الحرية نلسون مانديلا بعد ٢٧ عاما سجنا متواصلا. ويصف مانديلا الخروج بقوله «عند بوابة السجن كان هناك مئات المصورين وكاميرات تليفزيون ورجال الصحافة وآلاف من المؤيدين.

وتملكنى الذهول والانزعاج فلم أكن أتوقع كل ذلك. وحينما دفع إلى فريق تليفزيونى بشىء غامق فروى الملمس تراجعت قليلا ظنا منى أن ذلك سلاح تم اختراعه أثناء تواجدى فى السجن. فأخبرتنى «وينى» أنه مكبر للصوت.

وحينما توسطت الجمع رفعت قبضتى اليمنى وحدث صخب هائل فلم أكن قد تمكنت من ذلك منذ سبعة وعشرين عاما، وأمدنى بفيض من القوة والبهجة وشعرت - وكنت فى الحادية والسبعين - ان حياتى تبدأ من جديد.

وعندما عدت إلى منزلى تحققت أن ما تشوقت إليه دائما وهو الحياة العادية. فى منزلى لن يمكن تحقيقه، فانه فى تلك الليلة وعدة أسابيع وشهور ظل المنزل محاصرا بمئات المهنئين الذين أخذوا في الرقص والغناء والتهليل ولم أجد مفرا من مشاركتهم، وكان ذلك على حساب أسرتى مرة أخرى.

كان نشاط «وينى» ومواقفها الحادة تجاه بعض رجال الحزب سببا فى احداث فجوة بينها وبين قيادة الحزب ، وخير مانديلا بين الزوجة أو الحزب

فاختار الحزب. يقول فى سيرته الذاتية «فى ١٣ ابريل ١٩٩٢ وفى مؤتمر صحفي أعلنت انفصالى عن زوجتى «وينى» فقد أصبح الموقف صعبا لدرجة أننى شعرت أنه لمصلحة كل الأطراف: المؤتمر ووينى والأسرة أن تفترق.

وبعد أن استعرضت فى بيانى تاريخ علاقاتنا والتضحيات التى تحملتها وشجاعتها واخلاصها اقتنعت أنه نظرا للتوترات التى نشأ فى علاقتنا فى الشهور الأخيرة بشأن خلافها على عدد من القضايا فقد اتفقنا على الانفصال وأن خطوتى تلك لم يدفعنى إليها الاتهامات ضدها فى وسائل الاعلام لأنها كانت وماتزال تثق فى تأييدى الذى لم يتزعزع خلال تلك اللحظات الصعبة فى حياتنا..

وأضفت ربما كنت قد عميت عن أشياء بعينها بسبب الألم الذى كنت أشعر به لعدم قدرتى على القيام بدور الزوج أو الأب، ولكنى مقتنع أن حياة زوجتى أثناء وجودى فى السجن كانت أصعب من حياتى وكانت عودتى أكثر صعوبة بالنسبة لها، فقد تزوجت رجلا سرعان ما تركها وصار ذلك الرجل أسطورة، وعند عودة الأسطورة إلى المنزل ظهر أنه مجرد رجل».

وكما ترك مانديلا بينه وأسرته خضوعا لرغبة حزبه، فقد ترك الحزب والسلطة بعد ذلك ولكن برغبته هذه المرة، ترك السلطة لنائبه مبيكى بعد أن أدى واجبه الوطنى والإنسانى على أكمل وجه، وصار أشهر شخصية سياسية فى تاريخ القرن العشرين.

هو أكثر الرجال المعاصرين الذين حظوا بالشهور وبالكتابة عنهم، فقط أن أقدم مانديلا من زاوية أخرى، إنسان عادى يحب ويحب.

الفهرس

تابع الفهرس